الدكتور أحمد رحماني
أستاذ الدراسات القرآنية بالمعهد الوطني
للتعليم العالي للعلوم الإسلامية - باتنة - الجزائر

نظريات الإعجاز القرآني

« انظر أى رجل تكون إذا أنت زهدت فى
أن تعرف حجة الله تعالى وآثرت فيه الجهل على
العلم وعدم الاستبانة على وجودها »٠

الجرجانى

يطلب من
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى

1418 هـ - 1998 م



المقدمة :

لقد قيل لكى نعد أى تحليل أدبى مرضيًا فإن على التحليل أن يكون قادرا على تفسير القيمة الجمالية لعمل ما ، أى بعبارة أخرى له من القدرة ما يفسر علة حكمنا على هذا العمل أو ذاك بالجمال ، دون غيره من الأعمال ، وبالمثل لا يعد أى تحليل علمى مرضيًا ما لم يقدم تفسيرا سليما لحقيقة الموضوع وقيمته .

ونحن فى الواقع نُقْدِمُ فى هذا البحث على أمر أشد خطورة من العمل الأدبى أو العلمى ؛ لأننا لا نستهدف تفسير القيمة العلمية والجمالية لعمل بشرى ، وإنما نبحث فى أسباب الإعجاز القرآنى وأسراره الجمالية والعلمية والتشريعية والتاريخية وغير ذلك . بل إننا نستهدف إبراز أهم النظريات التى تفسر الظاهرة الإعجازية ، على أساس أن « **النظرية تركيب عقلى مؤلف من تصورات منسقة تهدف إلى ربط النتائج بالمقدمات** » ، أو هى « **تركيب عقلى واسع يهدف إلى تفسير عدد كبير من الظواهر ، ويقبله أكثر العلماء فى وقته من جهة ما هو فرضية قريبة من الحقيقة** » . أو هى « **مقولة كلية تفسر فى ضوئها مجموع الجزئيات المنتمية إليها** » وأنما عمدت إلى منهج النظريات على اعتبار « أن بناء النظريات يعتبر أحد المكونات الحيوية للمنهج العلمى » [1] .

ولهذا السبب فإن طبيعة موضوع هذا البحث تتطلب مزيدا من الفقه بأسرار الدين ومقاصده وطرق التعبير عنه والبرهنة على صحته ، وبعبارة مختصرة تتطلب الفهم الدقيق للقرآن مبنى ومعنى .

---

(1) إبراهيم رجب : المنهج العلمى للبحث من وجهة إسلامية : ص 19 .

وقبل هذا وذاك لابد من تحديد مفهوم هذه الحقيقة العلمية ، ومفهوم الجمال وبيان الأسباب التى يتحقق وفقها كل منهما ، والصور التى يتجلى عليها ، وهل هى واحدة أم متعددة ؟ وما هى النظريات التى تملك قوة التفسير والبرهنة على تلك المعجزات ؟ وهل يمكن أن نعثر على نظرية واحدة تملك القدرة على تفسير كل أوجه الإعجاز ؟ .

ولعل القرآن الكريم حينما وصف بقرة جميلة وأطلــق حكمه عليها كما يلى : ﴿ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ (1) يكون قد كشف عن معنى الجمال وهو أنه ما يُدخل السرور على النفس ، **فالجمال هو ما يسر** .

ولكن هل يكون معنى ذلك أن الجمال ليست له مواصفات وهيئات خارجية يمكن أن تُحدد ليتيسر لنا أمر اتخاذ قواعد معينة نُجلَى وفقها أسرار القيمة الجمالية لنص ما ؟ .

إننا نعلم يقينا أن الله سبحانه وتعالى إذا قال شيئا فإنه هو الحقيقة التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، ولكن هل فهمى لمعنى تلك الآية التى استنبطنا منها مفهوم الجمال هو فهم سليم ؟ قد يكون وقد لا يكون ؛ لأن المشكلة فى قدرات الإنسان وليست فى النص القرآنى .

إن الآيات التى تعضد ذلك المعنى كثيرة منها قوله : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُون﴾ (2) ، ﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً ﴾ (3) ، ولكن مع ذلك فإن المسألة تتوقف على خلفياتنا المعرفية عمقا ونوعا ، كما تتوقف على ذكائنا .

ثم ماذا يمكن أن يقال عن الإعجــاز بالحقائق التشريعية ، والتاريخية ، والعلمية ؟ أهى حقائق يمكن أن تقـــوم دليلا على النبوة ؟ نبوة خاتم الأنبياء والمرسلين ؟ أم أنها لا تصلح لذلك بسبب أنها ليست مبثوثة فى القرآن كله كما بثت فيه قضية الجمال وقضية الهداية ؟ لا سيما ونحن نقرأ قول الرافعى : « القرآن معجز فى تاريخه دون سائر الكتب ومعجز فى أثره الإنسانى ، ومعجز كذلك فى حقائقه ، وهذه وجوه عامة لا تخالف الفطرة الإنسانية فى شىء ، فهى باقية ما بقيت (4)

---

(1) البقرة : 69 .
(2) النحل : 6 .
(3) المعارج : 5 .
(4) الرافعى : تاريخ آداب العرب 2 / 156 .

وعندئذ كيف نفسر أسباب وجود هذه الحقائق العلمية إلى جانب الحقائق التشريعية والتاريخية فى هذا الوقت المبكر من حياة التطور العلمى ؟ .

إننا بعزلها عن الإعجاز كما يذهب كثير ممن يرون فى التفسير العلمى للقرآن خطرا على القرآن نكون قد ألغينا سر وجودها فيه [1] ؛ لأننا من جهة أخرى سنجد من يقول : إن القرآن ليس كتابا فى العلوم وإنما هو كتاب فى الرسالة التشريعية ، فهو كتاب هداية ، ناسيا أن الهداية إنما تتم بالدليل والبرهان الذى لا يتخلف فى خاتمة الرسالات أبدا ، بل وسيبقى ما بقيت الحياة ليقوم دليلا على صحة الرسالة ، وصدْق مبلغها عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، وإذا ثبت يوما خطأ تفسير ما ، فإنه سيبقى خطأ فى الفهم ،وليس خطأ فى الحقيقة كما ذكرها النص .

إن الإعجاز بالحقيقة المطلقة عام ، يدركه العربى والأعجمى ، لأن حجيته لا ترتبط بلغة قوم من الأقوام ، أما الإعجاز الجمالى فقد يفقد بعض مواصفاته عند الترجمة ، ولهذا لابد من التفكير بجد فى الإعجاز بالحقيقة ،وما أكثر الحقائق التى يسوقها القرآن فنفهم بعضها بحسب ما فتح الله به على الخلق فى عصر لتقوم الحجة ، ويبقى ما لم يفتح به اليوم إلى أجيال لاحقة حين تتوفر لهم سبل الاكتشاف ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ ، وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [2] ، فتأويله المطلـــق ، بمعنى فهمه المطلق ، هذا لله وحده ، أما تأويله النسبى فسيبقى أبدا مما يفتح الله به على الراسخين فى العلم ، ينتهون إلى الإيمان به كل من طريق اختصاصه ، فالعالم الفيزيائى يدرك إعجازه من زاوية تخصصه ، وعالم الفلك من زاوية تخصصه ، وكذا عالم القوانين والتاريخ والعلوم الإنسانية بصفة عامة ،ولهذا السبب دعا الدكتور عبد الله دراز كل من يطلب الحق بإنصاف أن ينظر معنا فى القرآن من أى النواحى أحب : من ناحية أسلوبه أو من ناحية علومه أو من ناحية الأثر الذى أحدثه فى العالم وغيَّر به وجه التاريخ أو من تلك النواحى مجتمعة ، على أن تكون له الخِيرة بعد ذلك أن ينظر إليه

---

(1) الغزالى : نظرات فى القرآن ص 130 .

(2) آل عمران : 7 .

فى حدود البيئة والعصر الذى ظهر فيه أو يفترض أنه ظهر فى أرقى الأوساط والعصور التاريخية » [1] .

دواعى البحث : لا يختلف داعى البحث فى الإعجاز اليوم فى هذا العصر الذى أحرز تقدما عظيما فى مجال البحث العلمى التجريبى عن داعى البحث فيه عند القدماء ؛ لأن الهدف لم يتغير وإن تغيرت كثير من المعطيات الحضـــــارية ؛ ذلك لأن « الذى يوجب الاهتمام التام بمعرفة إعجاز القرآن أن نبوَّة نبيِّنا عليه السلام بُنيت على هذه المعجزة ، وإن كان قد أُيد بعد ذلك بمعجزات كثيرة [2] ، ولما كانت البشرية بحاجة دائمة إلى البراهين الموافقة لمتطلبات العصر فإن البحث العلمى يتطلب مزيدا من العناية بهذا الجانب الأساسى فى عقيدتنا .

وقد كان من أكبر دواعى البحث ضرورة إعادة النظر فى منهج معالجة قضية الإعجاز ؛ ذلك لأن الباحثين على اختلاف مناهجهم - تبعا لاختلاف مشاربهم - فإنهم كانوا يتناولون بعض أوجه الإعجاز بشكل ممزق ، من شأنه أن يحُول دون البرهنة العلمية على المقصد الذى تساق من أجله ، كما حدث فى عرض أوجه الإعجاز البلاغى قبل الجرجانى .

تبرير التسمية : « **نظريات البحث فى إعجاز القرآن** » : هو الاسم الذى فضلناه عنوانا لهذا الكتاب ؛ لأن المنحى الذى انتهجناه فيه يرتكز على فكرة النظريات ليبرزها كضرورة لبحث **الإعجاز فى صورته الجديدة** ذات البعد الأصلى ؛ لما يتمتع به مصطلح النظرية من قدرة على شمولية النظرة واحتمال توافر إمكانية التفسير العلمى للظاهرة التى هى موضوع الدرس .

فقد اعتمدنا - إذن - أسلوب النظريات منهجا للعمل للتحكم فى الظاهرة بشكل أدق علمية ، لأن القدماء مثل السكاكى كانوا يقولون : « اعلم أن شأن الإعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه » [3] ، ونحن فى عصرنا ندعى أن المناهج قد تطورت بحيث تستطيع أن تمدنا بما يمكننا من تحقيق ذلك الوصف الذى كانوا يشيرون

---

(1) النبأ العظيم : نظرات جديدة فى القرآن ص 78 - 79 .

(2) الباقلانى : إعجاز القرآن ص 8 .

(3) البرهان فى علوم القرآن : 2 / 100 .

إليه فى بحوثهم فيلمسونه ، لكن ليس بصورة منظمة كالصورة التى يمكننا منها البحث فى إطار النظريات ·

تعدد نظرياته : ولكـــن لماذا جمـــعنا (نظريات) بدلا من أن نكتفى بالإفراد (نظرية) ؟ فى الواقع جمعنا لأن القدماء أنفسهم قد لاحظوا أنه : « لا يمتنع أن يُعلم إعجازه بطرق مختلفة تتوافى عليه وتجتمع فيه » [1] ، وقد تحققنا فعلا - بعد تأمل عميق ، وبعد تقليب النظر فى الموضوع على كافة أوجهه - أن تفسير ظاهرة الإعجاز لا ينهض بها حق النهوض إلا تعدد النظريات ، ولكن من زاوية معينة تبيَن أن التعددية قد لا تكفى فى البرهنة إذا كان الهدف هو بحث الإعجاز فى سورة أو نص ككل متكامل ، مما يستوجب البحث عن نظرية تتسم بالشمول وتستوعب كافة أوجه الإعجاز ، وقد أفضى بنا الأمر إلى تحديد نظرية جديدة أسميناها « نظرية الإعجاز التضافرى » ، نعتقد أنها قادرة على ذلك ، وقد أصلنا لهذه النظرية ببعض الأفكار التى كانت مبثوثة فى التراث الإسلامى الذى متى سأله الباحث لا يعدم عنده الجواب الشافى ، وقد فعلنا ذلك اعتقادا منا فى أن يكون لهذه النظرية قدرة على استيعاب مشكلات الإعجاز كلها ، وقد قال الجرجانى : « هل رايت رأيا أعجز ، واختيارا أقبح ممن كره أن تُعرف حجة الله تعـــالى من الجهة التى إذا عرفت منها كانت أنور وأبهر ، وأقوى وأقهر » [2] .

وقد ترصَد البحث خطوات القدماء والمحدثين بشكل عام وتفحصها ليبنى هذه النظريات فاستوى له منها خمس نظريات أساسية هى :

1 - نظرية الإعجاز البلاغى ·
2 - نظرية الإعجاز التاريخى ·
3 - نظرية الإعجاز التشريعى ·
4 - نظرية الإعجاز المعرفى والعلمى ·
5 - نظرية الإعجاز التضافرى ·

---

(1) الباقلانى : إعجاز القرآن ص 255 ·
(2) الجرجانى : الدلائل ص 8 ·

هذه هى النظريات الأساسية ، وكل ما عدا ذلك يدخل فى نظرى تحت إحدى هذه النظريات ؛ فالقصص حين يدرس باعتباره حدثا يحلل فى ضوء النـظرية التاريخية ، وحين يقرأ باعتباره فنًّا يحلل فى إطار النظرية البلاغية ، وإذا بحث فيه عما يستنبط من أحكام حلل فى مجال النظرية التشريعية ، ثم إذا كان الهدف هو دراسة القصة ككل متكامل حلل فى ضوء نظرية التضافر وهكذا دواليك .

ثم إن هذه النظريات الخمس تعد بحق أسسا ضرورية لدارس الإعجاز القرآنى دراسة علمية ، تقوم على قواعد متماسكة يمكن أن تشكل منهجا قويما ، يصلح لتفسير ظاهرة الإعجاز تفسيرا أكثر وضوحا ونضجا .

ولما كانت النظرية فى حقيقتها مقولة كلية تفسر فى ضوئها مجموع الجزئيات المنتمية إلى تلك الكلية التى تعبر عن جوهر محتوياتها ، فإن سعى هذا البحث سيصب فى هذا الإطار الذى ينظر إلى كل نظرية من تلك النظريات باعتبارها كلاً يُفسر فى ضوئه مجموع الأجزاء المنتمية إليه ، بما فى ذلك نظرية التضافر التى يفترض فيها أن تستوعب كل المعطيات التى تجود بها النظريات السابقة وتتجاوزها ؛ لأنه « كلما زاد نصيب صاحب التخصص من الثقافة العامة زاد عمقه فى تخصصه » (1) .

وعلى سبيل المثال ، إذا كانت النظرية البلاغية من شأنها أن تبحث فى جمالية القرآن فإن دراسة الوحدة الموضوعية للسورة من جهة الإعجاز البنائى ستحلل فى ضوئها باعتبارها جزءًا من الأجزاء التى تفسرها هذه النظرية دون غيرها من النظريات الأخرى ، وفى الوقت نفسه يمكن أن تفسر هذه الوحدة فى ضوء نظرية التضافر ، على اعتبار أن مستخدم هذه النظرية الأخيرة يفترض فيه أن يتمتع بإلمام كبير بكل الأدوات المنهجية والمعرفية التى تخص كل نظرية على حدة .

وقد استدعت منهجية البحث أن نقف وقفة نقدية عند نظرية الصرفة لنبين موقف الباحثين القدماء منها ،وكيف قبَلوا رأى من يقول بها .

د . أحمد رحمانى

باتنة - 19ربيع الثانى 1418 هـ - 24 أوت1997- الجزائر

* * *

---

(1) محمد فتحى الشنيطى : أسس المنطق والمنهج العلمى ص 156 .

مفهوم إعجاز القرآن

تعريف الإعجاز :

جاء فى الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى قوله : « **اعلم أن المعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدى سالم عن المعارضة وهى إما حسية وإما عقلية** وأكثر معجزات بنى إسرائيل كانت حسية لبلادتهم وقلة بصيرتهم وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية لفرط ذكائهم وكمال أفهامهم ، ولأن هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة خصت بالمعجزة العقلية الباقية ليراها ذوو البصائر » (1) .

هذا تعريف مهم فى هذا الموضوع غير أن فيه ما يقبل وفيه ما يتطلب التفكير ، كالحديث عن مسألة اختلاف الفهوم وربطها بالعرقيات والسلالات ، إذ أن ذلك لا يتناسب مع كثير من الآيات التى تحدد التصور الإسلامى فى هذه النقطة بالضبط كقوله تعالى : ﴿ كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ، وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ (2) .

ولكن قبل أن نتحدث فى ما يرفض وما يقبل يبدو أن المنهجية تقتضى التوقف عند الغرض الذى سقنا من أجله هذا التعريف ، إذ أن هذا التعريف تضمن شروطا أساسية لتكون المعجزة معجزة بالفعل ؛ فمنها أن يكون **خارقا للعادة** ، أى متجاوزا للسنن كما سيتبين فى معجزة سيدنا إبراهيم الخليل ، ومنها : **المعارضة والاقتران بالتحدى** ، ومنها : **مناسبتها للعصر الذى جاءت فيه** ، لأن كل ذلك هو الذى يحدد فاعليتها بالنسبة للغرض الذى أعطيها الرسول من أجله ، وهو تحقيق الإيمان بالرسول والتصديق بالرسالة ، ومنها خاصية تميزت بها المعجزة القرآنية وهى كونها خاصة لذوى البصائر من الراسخين فى العلم .

لذلك ينبغى أن نستنتج من هذا التعريف أن من شروط الإعجاز أن يكون **خارقا للعادة** سواء فى مجال النشاط الحسى للإنسان أو النشاط العقلى ، بحيث يعجز الناس

---

(1) الإتقان فى علوم القرآن : ج 2 ص 116 .
(2) الإسراء : 20 .

الذين وجه إليهم التحدى عن أن يأتوا مثل ذلك النشاط قال الباقلانى : « معنى العجز عندهم تعذر فعل مثله »[1] ، وقال الجرجانى : الإعجاز يعنى علم الناس « أن الذى سمعوه فائت للقوى البشرية ومتجاوز للذى يتسع له ذرع المخلوقين » [2] ، كما نستنتج أنها كانت عقلية لهدف هو الخلود ، وأنها مما لا يدركه إلا الراسخون فى العلم ، كل بحسب اختصاصه .

ومعنى كون القرآن خارقا للعادة أنه خرج عن كل أضرب المعرفة التى عرفتها البشرية وخرج عن كل الأساليب التى تعبر بها عنها ، فكان بذلك ناقضا للعادة فى المعارف علما ولغة شكلا ومضمونا ، قال الرمانى : « وأما نقض العادة فإن العادة كانت جارية بضروب من أنواع الكلام المعروفة ؛ منها الشعر ، ومنها السجع ومنها الخطب ومنها الرسائل ، ومنها المنثور الذى يدور بين الناس فى الحديث فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة لها منزلة فى الحسن تفوق به كل طريقة » [3] ، وقال الجرجانى : « الشرط فى المزية الناقضة للعادة أن يبلغ الأمر فيها إلى حيث يبهر ويقهر حتى تنقطع الأطماع عن المعارضة ... وحتى يكون يأسهم منه وإحساسهم بالعجز عنه فى بعضه مثل ذلك فى كله » [4] ، وقال فى موضع آخر : « والشرط فى نقض العادة أن يعم الأزمان كلها ، وأن يظهر على مدعى النبوة ما لم يستطعه مملوك قط » [5] .

ولكى نتبين ذلك علينا أن نتأمل قوله تعالى : ﴿ يَا نَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ [6] ، فالإعجاز هنا واقع فى كون النار قد تغيرت طبيعتها تماما فصارت سلاما باردة بعد أن كانت محرقة ، ومعنى ذلك أنها قد « خرقت العادة » وخرجت عن نظام السنن الكونية المتعلقة بها ، وقد كان يمكن أن يطفئها الله بإرسال الرياح أو إنزال المطر ، ولكن كل ذلك فى صميم العادة ، أما أن تفقد صفة الإحراق أصلا

---

(1) إعجاز القرآن : ص 296 .
(2) الرسالة الشافية : ص 117 .
(3) الرمانى : النكت فى إعجاز القرآن : ص 110 .
(4) الجرجانى : الرسالة الشافية : ص 129 .
(5) نفسه : ص 135 . (6) الأنبياء : 69 .

وتصير فوق ذلك « بردا وسلاما » فتلك هى المعجزة التى تبهر العقول وتثبت لصاحبها النبوة ، وكذلك كان القرآن ولايزال لمن يعرف سنن العلم ·

غير أن المعجزات الحسية مثل هذه المعجزة ، ومثل معجزة العصا عند سيدنا موسى عليه السلام ، ومعجزات سيدنا عيسى عليه السلام مثل إشفاء المرضى ، وإحياء الموتى بإذن الله ، ومثل معجزة الإسراء والمعراج عند سيدنا محمد - ﷺ - هذه كلها كانت معجزات حسية يؤمن البشر الذين شاهدوها وعاصروا أهلها ، فإذا مات أصحابها ماتت المعجزة بموتهم وعاد الشك إلى الناس بعد اليقين ، ومن ثم كان لابد للمعجزة الخالدة من أن تصاحب الرسالة الخالدة ، لتكون دليلا قطعيا وبرهانا على نبوة محمد - ﷺ - يقول الجرجانى : « لا معنى لبقاء المعجزة بالقرآن إلا أن الوصف الذى له كان معجزا قائم فيه أبدا » [1] · ومعنى هذا أن معجزة الرسول - ﷺ - لابد أن تتصف بهذه الخصوصية ، ولهذا كان البحث فى قضية الإعجاز القرآنى ليس إلا بحثا عن السمات الخاصة بنصوصه ، والتى تميزه عن النصوص الأخرى [2] ، من جهة الشكل ومن جهة المضمون ·

ومن هنا وجب التساؤل التالى : ما هى خصوصيات القرآن ؟ وما هى وجوه إعجازه ؟ وهل هى حسية أم تجريدية عقلية ؟ وما سر ارتباط الإعجاز بالرسالة فى هذا الدين دون سائر الأديان ؟ ، ولهذا لابد من التعرض لطبيعة المعجزة المحمدية ·

* * *

طبيعة المعجزة المحمدية :

حينما أرسل النبى محمد ﷺ كان لابد له من دليل على نبوّته ، وكان لابدَ من أن يكون هـــذا الدليل معـــجزة لا يقدر عليها أحد من الناس فى كل زمان ومكان ،وشاء **الله** أن تكون معجزة هذا الرسول هى **القرآن الكريم** ، ومعنى ذلك أن يكون **خارقا للعادة فى أسلوبه وفى مضمونه** ، وأن يكون هو نفسه الرسالة وبذلك تميزت هذه المعجزة عن سائر المعجزات ·

(1) دلائل الإعجاز : ص 8 ·

(2) نصر حامد أبو زيد : مفهوم النص : 155 ، هذا المرجع عليه مؤاخذات سنبينها فى موضعها إن شاء الله ·

يرى ابن خلدون « أن أعظم المعجزات وأشرفها وأوضحها دلالة القرآن الكريم المنزّل على نبينا محمد - ﷺ - **فإن** الخوارق فى الغالب تقع مغايرة للوحى الذى يتلقاه النبى ويأتى بالمعجزة شاهدة بصدقه **والقرآن هو بنفسه الوحى المدعى والخارق المعجز** ، فشاهده فى عينه ولا يفتقر إلى دليل مغاير له كسائر المعجزات مع الوحى ، فهو أوضح دلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه ، وهذا معنى قوله - ﷺ - : ما من نبى من الأنبياء إلا وأوتى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذى أوتيته وحيا **أوحى إلى** فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تبعا يوم القيامة » ، يشير إلى أن المعجزة متى كانت بهذه المثابة فى الوضوح وقوة الدلالة وهو كونها نفس الوحى كان الصدق لها أكثر لوضوحها [1] .

والواقع أن هذه الإشارة الذكية التى استخلصها ابن خلدون من الحديث الشريف والتى تفيد أن أعظم المعجزات هى هذه لارتباطها بالرسالة تكشف عن طبيعة المعجزة القرآنية ، ويصدقها قول **الله** تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّه ، قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عندَ **الله** وَإِنَّمَا أَنَا نَذيرٌ مُبِينٌ * أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ، إِنَّ فِى ذَلكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [2] ، فالكفار كانوا قد طلبوا الآيات ولكنهم لم يدركوا قيمة **الآية القرآنية** فألحوا فى طلب الآيات المادية ، وذلك لأن عقلية المجتمع الجاهلى لا تزال عقلية تعتمد على الحس أكثر من اعتمادها على العقل ،ويدل على ذلك طبيعة الآلهة التى يعبدونها ، فإنهم لم يقتنعوا بالتعدد ، بل تجاوزوه إلى تجسيم الإله حتى يُرى ويُلمس . ومن هنا كانت المعجزات التى يبحثون عنها ذات طابع مادى حسى ، وهى التى تبينها الآيات التالية :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً * وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى **تَفْجُرَ لَنَا منَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا** * **أَوْ** تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنَ **نَّخيلٍ وَعنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خلاَلَهَا تَفْجيراً** * **أَوْ تُسْقطَ السَّمَاءَ** كَمَا **زَعَمْتَ عَلَيْنَا** كسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِالله **وَالْمَلاَئكَة قَبِيلاً** * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن **زُخْرُف أَوْ** تَرْقَى **فِى السَّمَاءِ** وَلَن

---

(1) المقدمة : 95 .　　(2) العنكبوت : 50 - 51 .

نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ، قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾[1] ، فهم يطلبون كما ترى آيات حسية كتفجير ينابيع الأرض وتحويل الصحراء جنة خضراء ، أو تفتيت نظام السماء أو إحضار الملائكة عيانا بل إنهم قد طلبوا ما طلبه بنو إسرائيل حين قالوا ﴿ أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً ﴾[2] ، بل طلبوا أن يكون للنبى بيت من زخرف ولما جاءهم بآية الإسراء والمعراج كذّبوا وقالوا : ﴿ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ﴾[3] ، والغريب أنهم كانوا يقرؤونه ، ولكن فى الواقع كانوا يطلبون رؤيته مجسما ، بمعنى أن الآية الحسية هى التى يبحثون عنها كسلفهم من الأمم الأخرى ، غير أن الله سبحانه وتعالى يريد لهذه المعجزة طابعا آخر أكثر خلودا لأن الهدف من هذه الرسالة يختلف نوعيا عن بقية الرسائل الأخرى ٠

فالآيات التى صرفها الله قد تضمنها القرآن الكريم كما سنرى من بعد ، ولكن الكفار كانوا يبحثون عن الآيات التى تكون خارج النص ، بمعنى أنهم كانوا يبحثون عن الآيات الحسية ، كالتى كانوا يسمعون عنها بخصوص الرسالات السابقة ، ولكن الأمر كان يختلف ؛ لأن هذه الرسالة كانت خاتمة وخالدة ، ومن ثم اختار لها الله هذا الترابط بين المعجزة الخارقة للعادة والرسالة التشريعية التى كانت معجزة بذاتها كما سنرى ، والسبب فى تمييز هذه المعجزة - والله أعلم - هو أن القصد بها الخاصة من ذوى الألباب ، بينما كانت معجزات الأنبياء حسية لكون المقصود بها العامة ٠

وقد أرجع محمد عرجون سبب كون المعجزة المحمدية معجزة عقلية إلى طبيعة استعداد الأمة ، الأمر الذى يجعلنا نعود إلى الحديث من جديد عن النقطة التى أثرناها كتعليق على تعريف السيوطى لإعجاز القرآن ، فلقد سبق أن قلنا إن السيوطى نظر إلى المسألة فى بعض وجوهها من جهة عرقية صرف ، إذ أن الله سبحانه وتعالى لم يفرق الشعوب من حيث هى شعوب تفرقة تجعل بعضهم أفضل من بعض ذكاء ، حتى يستحقوا التفضيل الذى لا يستحقه غيرهم ، ومن ثم يقع التفاضل فى القرآن

---

(1) الإسراء : 89 - 93 (مكية) ٠

(2) النساء : 153 ٠

(3) الإسراء : 93 ٠

وفى الاستجابة له ، وإنما تتفاضل الأمم ، وتتفاضل المعجزات بحسب الغرض منها وبحسب استعداد الأمة التى بعث فيها النبى ، فالنبى محمد - ﷺ - قد بعث للناس كافة ، ومن ثم كان لابد لهذه المعجزة أن تكون موافقة لاستعدادات الأمم المتحضرة على اختلاف حضاراتها واستعداداتها ، فهى معجزة يقصد بها الخاصة إن لم نقل خاصة الخاصة ، وربما كان هذا أحد أبرز أسباب تعدد أوجه الإعجاز الذى أدى إلى تعدد النظريات التى تعمل على تفسيره ٠

* *

موافقة الآيات لاستعداد الأمة :

لما كانت المعجزات ليس لها من هدف سوى إقناع الناس بصدق نبوَّة الرسول - ﷺ - فإن الله تعالى كان ينزلها بحـــسب استعداد الأمة التى بُعث فيها ذلك الرسول ، وليس من شك فى أن استعدادات الشعوب متفاوتة تبعا لتطور المجتمعات الإنسانية وظروفها العلمية والاجتماعية والحضارية ، فإذا أنزل الله معجزة « جاءت على مقتضى سنة الله فى الرسالات إلى الأمم ، فكل آية تنزل على حسب استعداد الأمة المرسل إليها وحالها ، وقد كانت الأمم السابقة تحمل عقولا مادية لا تؤمن إلا بخرق قوانين المادة فجاءت معجزات رسلها مناسبة لحالها واستعدادها ٠

أما محمد - ﷺ - النبى الأمى خاتم الأنبياء فحسبه أن الله أنزل عليه كتابا هاديا هو آية نبوته ومعجزة رسالته ؛ لأن الله بعثه وقد بلغ العقل الإنساني رشده وتحرر من أغلال التقليد وأسر الغرائز المادية وأتيح له الانطلاق فى آفاق الكون يفكر ويستنبط ويعلم ويستخرج ويستكشف » (1) .

والواقع أن الله ســـبحانه وتعالى قدّر لهذه المسألة بدقة متناهية فى الإيضاح والبيان إذ قال : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ فِى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ ﴾ (2) ، فالقرآن ليس آية معجزة واحدة ، ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ ﴾ متعددة له

---

(1) محمد الصادق إبراهيم عرجون : القرآن العظيم هدايته وإعجازه فى أقوال المفسرين ص 145 دار القلم دمشق ، الدار الشامية بيروت ط 2 / 1989 ٠

(2) العنكبوت : 49 ٠

القدرة على بيان الحجة والدليل على النبوة من أى جـــهة أتيتها ؛ علـــمية أو بيانية أو فكرية أو تشريعية أو بيانا للحق فى جانب الغيب ، غير أن هذه الآية ليست مما يدركه العامة إذ هى مما يكشف أسراره الذين أوتوا العلم فقط ؛ فهى آية الخاصة تكشف أسرارها بحسب الإمكانات العلمية التى يملكونها ، ومن ثم يبقى جانب ، بل جوانب من الإعجاز مستترة حتى تتوفر الأسباب العلمية الأكثر عمقا ، وهكذا ...

وإذا كان هناك من العلماء الذين يشهد لهم بالتفوق فى المعارف النبوية ، ومع ذلك لا يقرون بمعجزة القرآن فى الجوانب التى يتقنونها ، ليتأكدوا من معجزة آياته وبراهينه فإن ذلك ليس له من سبب سوى أنهم غلفت قلوبهم : ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ ﴾ فهم جاحدون للحقيقة العلمية التى أبهرتهم بسبب ظلمهم لأنفسهم وللعلم فحسب .

ومن البيّن أن آيات القرآن ليست - فحسب - فيما يحتويه من الحقائق العلمية أو الأخبار التاريخية أو فى الجانب البلاغى أو الحقائق الكونية ، ولكن أيضا فى كونه كتابا يحمل آية معجزة بحق فى التشريع الربانى الذى لم تعرف البشرية مثله عدلا ورحمة أبدا ، ولذلك حق له أن يقول : ﴿ وَقَالُوا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ، قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (1) ، فالذى لا يقنعه ما يتلوه فى هذا القرآن من حكمة خلقية وتشريع منظم للمجتمعات والأمم يحقق الرحمة بأتم معنى الكلمة هو إنسان لا تنفع معه أية آية مادية تزول مع صاحبها ، وتنتهى بنهايته ، ولذلك قال تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ (2) .

أما محمد - ﷺ - النبى الأمى خاتم الأنبياء فحسبه أن الله أنزل عليه كتابا هاديا هو آية نبوته ومعجزة رسالته ؛ لأن الله بعثه وقد بلغ العقل الإنسانى رشده وتحرر من أغلال التقليد وأسر الغرائز المادية وأتيح له الانطلاق فى آفاق الكون يفكر ويستنبط ويعلم ويستخرج ويستكشف » (3) .

(1) العنكبوت : 50 - 51 . (2) الأعراف : 185 .

(3) محمد الصادق إبراهيم عرجون : القرآن العظيم هدايته وإعجازه فى أقوال المفسرين ص 145 دار القلم دمشق ، الدار الشامية بيروت ط 2 . 1989 .

والواقع أن الله سبحانه وتعالى قدّر لهذه المسألة بدقة متناهـية فى الإيضاح والبيان إذ قال : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ ﴾ (1) ، فالقرآن ليس آية معجزة واحدة ، ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ ﴾ متعددة له القدرة على بيان الحجة والدلـيل على النبـوة من أى جهة أتيتها ؛ علمية أو بيانية أو فكرية أو تشريعية أو بيانا للحق فى جانب الغيب ، غير أن هذه الآية ليست مما يدركه العامة إذ هى مما يكشف أسراره الذين أوتوا العلم فقط ؛ فهى آية الخاصة تكشف أسرارها بحسب الإمكانات العلمية التى يملكونها ، ومن ثم يبقى جانب ، بل جوانب من الإعجاز مستترة حتى تتوفر الأسباب العلمية الأكثر عمقا ، وهكذا . . .

وإذا كان هناك من العلماء الذين يشهد لهم بالتفوق فى المعارف النبوية ، ومع ذلك لا يقرّون بمعجزة القرآن فى الجوانب التى يتقنونها ، ليتأكدوا من معجزة آياته وبراهينه فإن ذلك ليس له من سبب سوى أنهم غلفت قلوبهم ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ ﴾ فهم جاحدون للحقيقة العلمية التى أبهرتهم بسبب ظلمهم لأنفسهم وللعلم فحسب .

ومن البين أن آيات القرآن ليست - فحسب - فيما يحتويه من الحقائق العلمية أو الأخبار التاريخية أو فى الجانب البلاغى أو الحقائق الكونية ، ولكن أيضا فى كونه كتابا يحمل آية معجزة بحق فى التشريع الربانى الذى لم تعرف البشرية مثله عدلا ورحمة أبدا ، ولذلك حق له أن يقول : ﴿ وَقَالُوا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ، قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (2) ، فالذى لا يقنعه ما يتلوه فى هذا القرآن من حكمة خلقية وتشريع منظم للمجتمعات والأمم يحقق الرحمة بأتم معنى الكلمة هو إنسان لا تنفع معه أيّة آية مادية تزول مع صاحبها ، وتنتهى بنهايته ، ولذلك قال تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ (3) .

---

(1) العنكبوت : 49 .
(2) العنكبوت : 50 - 51 .
(3) الأعراف : 185 .

وعلى هذا الأساس قال رسول الله ﷺ : « ما من الأنبياء إلا أوتى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحى إلى فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » فأفاد هذا الحديث أن المعجزة تختلف ، واختلافها يعود أساسا لقدرتها على الثبات أمام جميع الحضارات ، وما تنتجه من أفكار علمية واجتماعية ، لا تزيد فى الحقيقة المتأمل فى هذه الرسالة إلا إيمانا ويقينا ، ومن هنا وجب علينا أن نتعرض لأوجه الإعجاز التى تتضمنها الرسالة المحمدية وهى كثيرة سنشير لبعض ما توصلت إليه عقولنا ، ولكن ما نعجز عنه سيبقى مرهونا بالاكتشافات العلمية إلى يوم القيامة ، وهذا يفسر أمرًا أساسيًا ، وهو أن القرآن نزل موافقا للاستعدادات الإنسانية كلها ومتحديا لها كلها فى كل زمان ومكان .

* *

وجوه الإعجاز :

لما كانت هذه الرسالة هى الخاتمة التى جعلت لنبى أرسل للناس كافة ، وهى الخالدة التى اختيرت لكل الأجيال اللاحقة ، فإن الله سبحانه وتعالى قد جعلها معجزة المعجزات ، وذلك بتضمنها وجوها كثيرة من المعجزات سيتبين لنا أنها تكتشف كلما تطورت العلوم الإنسانية ، وقد عدد الرمانى فى القرن الرابع الهجرى منها وجوها فقال : « وجوه إعجاز القرآن تظهر من سبع جهات : ترك المعارضة مع توفر الدواعى وشدة الحاجة ،والتحدى للكافة ،والصرفة والبلاغة والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة ، ونقض العادة **وقياسه بكل معجزة** » [1] .

ولكن هذه الوجوه الآن لم تعد كافية إذ تطورت المعارف البشرية وصار الإعجاز التشريعى والاقتصادى والعلمى والفكرى والكونى وما إلى ذلك مما يبهر العقول أمرا يفرض نفسه ، لذا تطلب العصر الحديث بيان الإعجاز فيه من هذه الجهات المختلفة .

وليس من شك أن تطور المعارف فى المستقبل سيؤدى إلى اكتشافات أخرى وهكذا يبقى التحدى خالدا ما دامت السموات والأرض ، وقد أشار القرآن نفسه إلى

---

(1) الرمانى : النكت فى إعجاز القرآن ص 75 .

ذلك فقال جل شأنه : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * أَلاَ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ، أَلاَ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ (1) ، يقول سيد قطب « إنه وعد الله لعباده بنى الإنسان أن يطلعهم على شيء من خفايا هذا الكون ومن خفايا أنفسهم على السواء ، وعدهم أن يريهم آياته فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، هذا الدين وهذا الكتاب وهذا المنهج ... ولقد صدق الله وعده فكشف لهم عن آياته فى الآفاق من خلال القرون الأربعة عشر التى تلت هذا الوعد ، وكشف لهم عن آياته فى أنفسهم ، وما يزال يكشف لهم فى كل يوم عن جديد ... ولم تكن فتوح العلم والمعرفة فى أغوار النفس بأقل من فى جسم الكون » (2) .

فالعلوم العقلية ، والعلوم التجريبية ، كلما تطورت كان ذلك سببا من الأسباب التى تكشف عن وجوه جديدة فى إعجاز القرآن ، حتى ليمكن أن نقول مع الرافعى : « إن فى هذه العلوم الحديثة على اختلافها لعونًا على تفسير بعض معانى القرآن وكشف عن حقائقه » (3) التى لا تزال تقنع العلماء بصدق هذه الرسالة وصدق الله إذ يقول : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ ﴾ (4) ، ويضيف الرافعى قائلا : لقد قرأنا قول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ، فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ ﴾ (5) على طبيب مسيحى محق فاضل ونبهناه إلى هذه الحقائق فيها فقال : (آمنت بما أنزل على محمد) (6) .

ونصل من ذلك إلى أن وجه الإعجاز القرآنى لا يمكن حصرها ؛ لأن الله سبحانه قد صمم القرآن الكريم لهذه الغاية بحيث يصلح إعجازا فى كل زمان

---

(1) فصلت : 53 - 54 .

(2) فى ظلال القرآن : 5 / 3131 .

(3) تاريخ آداب العرب : (الإعجاز) ج 2 ص 182 .

(4) فاطر : 28 .

(5) المؤمنون : 12 - 14 .

(6) الرافعى : تاريخ آداب العرب : ج 2 ص 136 .

ومكان ، ولعله لذلك جعل فيه آيات محكمات وأخر متشابهات ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ ، وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [1] .

هذا وكان الباقلانى قد حصر أوجه الإعجاز فى زمانه فى ثلاثة دوائر [2] :

- **أحدهما** : أنه يتضمن الإخبار عن الغيوب وذلك مما لا يقدر عليه البشر كقوله : ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المشْرِكُونَ﴾ [3] .

- **الثانية** : أنه كان معلوما من حال النبى أنه كان أُميًّا .

- **الثالثة** : أنه بديع النظم وعجيب التآليف .

وقد تعددت أوجه الإعجاز عند القرطبى فذكر عشرة أوجه تدخل فى الدوائر السابقة ، وربما تميز بالتأكيد على ما تضمـــنه القرآن من العلم الذى هو قوام جميع الأنام ، والتأكيد على الحكم البالغة التى لم تجر العادة بأن تصدر من آدمى ، والتأكيد على التناسب فى جميع ما تضمنه ظاهرا وباطنا من غير اختلاف [4] .

هذا ، وقد ذكر الغزالى ثمانية وعشرين وجها [5] ، على أننا يمكن أن نحدد بحسب عصرنا أوجه الإعجاز فى الدوائر التالية تمهـيدا لدراستها فى إطار نظام النظريات :

1 - الإعجاز البلاغى والبنائى .

2 - الإعجاز التشريعى .

3 - الإعجاز العلمى والمعرفى .

4 - الإعجاز التاريخى (الأخبار الغيبية) .

وعلى الجملة فإن الأنبياء كما يقول الندوى : « يخبرون بالأخبار والعلوم التى

---

(1) يونس : 61 .

(2) الباقلانى : إعجاز القرآن : 33 - 35 .

(3) التوبة : 33 .

(4) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن : ج 1 ص 73 - 75 .

(5) الغزالى : نظرات فى القرآن 158 - 159 .

يعرف الإنسان بداهة أن مصدرها غير مصدر العلوم التى تستفاد من العلماء والمعلمين وأهل الحذق والبراعة من أفراد البشر ، فعلومهم تختلف عن العلوم البشرية المكتسبة ومن الكتب والمصادر العلمية والتجارب المبنية على الذكاء والاجتهاد والملكة العلمية اختلافا بينا ، ولا صلة لها بتلك الوسائل التى توارثتها البشرية ، وقام عليها صرح العلم قديما وحديثا من تعليم وقراءة وكتابة ومراجعة الكتب وتأمل وتمرين ، وإلى ذلك أشار الله تعالى فى قوله : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ، مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا ﴾ (1) .

والحق أن الدوائر التى أشرنا إليها سابقا كلها تحتوى على هذا النوع من المعرفة التى يتميز بها الوحى دون غيرها ، فنحن لا نكاد نقرأ آية فى الشريعة ، أو فى الأخبار ، أو فى أى جانب من جوانب العلوم الطبيعـــية أو الكونـــية أو التاريخية أو الاجتماعية إلا ونحن نجد أن صياغتها وذوقها وعمقها ودقتها تختلف جذريا عن المألوف فى التأليف العلمى والمعـــرفى فى أى دائرة من الدوائر التى ينسب إليها ما نقرأ ، فلا تخرج منها إلا ونحن نُقرُ أن القرآن نسيج وحده ، فلا نملك إلا أن نقول إنه خارق للعادة .

ولقد صدق بديع الزمان سعيد النورسى حين لاحظ أن المقاصد الأساسية من القرآن وعناصره الأصلية الأربعة وهى : التوحيد والنبوة والحشر والعدالة تتجلى فى القرآن كله كما تتجلى فى كل سورة من سوره ، بل قد يلمح بها فى كل كلام من كلمه بل قد يرمز إليها فى كلمة كلمة (2) .

إن الإعجاز القرآنى لم يدهش فقط علماء البلاغة أو علماء الشريعة ، وإنما أدهش أيضا كبار علماء الطبيعة ، فهذا « موريس بوكاى » فى كتابه - دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة - يقف مندهشا أمام الإعجاز العلمى فى القرآن فيقول : « لقد تناولت القرآن منتبها بشكل خاص إلى الوصف الذى يعطيه عن حشد كبير من الظاهرات الطبيعية ،ولقد أذهلتنى دقة بعض التفاصيل الخاصة بهذه الظاهرات ، لقد أذهلتنى مطابقتها للمفاهيم التى نملكها اليوم عن هـذه الظاهرات

(1) أبو الحسن على الحسنى الندوى : بين الدين والمدنية ص 76 - 77 ، هود : 49 .
(2) النورسى : إشارات الإعجاز فى مظان الإيجاز ص 2 - 3 .

نفسها ، والتى لم يكن ممكنا لأى إنسان فى عصر محمد - ﷺ - أن يكوّن عنها أدنى فكرة .

إن أول ما يثير الدهشة فى روح من يواجه مثل هذا النص هو ثراء الموضوعات المعالجة ؛ فهناك الخلق ،وعلم الفلك ، وعرض لبعض الموضوعات الخاصة بالأرض وعالم الحيوان ، وعالم النبات ، والتناسل الإنسانى ، وعلى حين نجد فى التوراة أخطاء علمية ضخمة ، لا نكتشف فى القرآن أى خطأ ، وقد دفعنى ذلك لأن أتســاءل : لو كان كاتب القرآن إنسانا ، فكيف استطاع فى القرن السابع من العصر المسيحى أن يكتب ما اتضح أنه يتفق مع المعارف العلمية الحديثة ؟ .

ليس هناك أى مجال للشك ، فنص القرآن الذى نملك اليوم هو فعلا النص الأول نفسه ، فما التعليل الذى يمكن أن نعطيه لتلك الملاحظة ؟ .

ثم يقول : « فى رأيى ليس هناك أى تعليل ، إذ ليس هناك سبب خاص يدعو للاعتقاد بأن أحد سكان جزيرة العرب فى العصر الذى كانت تخضع فيه فرنسا للملك داجوبرت DAGOPERT استطاع أن يحظى بثقافة علمية تسبق بحوالى عشرة قرون ثقافة علمية فيما يخص بعض الموضوعات ومعظم المقولات العلمية الموصى بها أو المصاغة بشكل بين تماما فى القرآن لم تتلق إلا فى العصر الحديث وأن الثقافة اللغوية لا تكفى لتفسير بعض آيات القرآن ، ولابد من ثقافة أنسكلوبيدية تقع على عاتق عدة تخصصات ، ولذلك أخطأ القدماء فى فهم هذه الآيات » (1) .

* * *

(1) محمد حسن هيتو : المعجزة القرآنية -الإعجاز العلمى والغيبى: ص 165 - 167 .

مستويات التحدى

فيم وقع التحدى ؟

إن الحديث فى الإعجاز حديث فى أصل كبير من أصول الشريعة الإسلامية ؛ ذلك لأن الهدف هو بيان كون القرآن هو المعجزة الكبرى لهذا النبى الأمى الأمين الذى اختبر بهذه الثقة لهذا الغرض : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ ﴾ [1] ، وبيان كون القرآن هو الرسالة التى أوحى بها الله إلى نبيه الصادق الأمين ، وبيان كون هذه المعجزة **خارقة للعادة** فى كل المجالات التى يقع فيها التحدى ، بدءا من التشريع والأخلاق إلى البيان والبناء العضوى ، إلى الجانب المعرفى وما يتضمنه من أخبار غيبية ماضية ومستقبلية ، إلى الحقائق العلمية ذات المنهج التجريبى ، ومن العجيب أن إعجاز هذا القرآن يشارك الكتب السماوية فى الإعجاز الخبرى ، ويزيد عليها فى النظم والبناء والتشريع والعلم ، يقول الباقلانى : « فارق حكمه حكم غيره من الكتب المنزلة على الأنبياء ، لأنها لا تدل على أنفسها إلا بأثر زائد عليها ووصف منضاف إليها لأن نظمها ليس معجزا وإن كان ما تتضمنه من الأخبار عن الغيوب معجزا وليس كذلك القرآن لأنه يشاركها فى هذه الدلالة ويزيد عليها فى أن نظمه معجز » [2] .

وعلى ذلك فقد كان التحدى مطلقا بالقرآن كله ، ثم بعشر سور ثم بسورة حتى ولو كانت مفتراة ،وتجاوز القرآن للرسائل السماوية نفسها من جهة النظم كان بسبب **أن الله أنزله على رسوله محمد ﷺ** لفظا ومعنى ، **بخلاف التوراة والإنجيل اللتين كانتا رسالتين تحملان معجزات خبرية فقط** ، يقول الباقلانى : « **فإن قيل فهل تقولون بأن غير القرآن من كلام الله عز وجل معجز كالتوراة والإنجيل والصحف ؟**

قيل ليس شىء من ذلك بمعجز فى النظم والتأليف وإن كان معجزا كالقرآن فيما

---

(1) العنكبوت : 48 - 49 .

(2) الباقلانى : إعجاز القرآن : ص 14 - 15 .

يتضمن من الأخبار عن الغيوب وإنما لم يكن معجزا لأن الله تعالى لم يصفه بما وصف به القرآن ولأنا قد علمنا أنه لم يقع التحدى إليه كما وقع التحدى إلى القرآن » [1] .

والواقع إن الإنجيل نفسه كان يشهد بأن كمال الشريعة سيكون فى الكتاب الذى بشر بنبيه من بعد ، فقد جاء فى إنجيل يوحنا ما يلى : « إن لى أمورًا كثيرة أيضا لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن وأما متى جاء ذلك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ، ويخبركم بأمور آتية » [2] .

فهذا النص من الإنجيل يشير إلى من سيرسل من بعد عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ،وقد علمت البشرية كلها أن المرسل هو محمد ﷺ ، وأنه المقصود بقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِن بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ ، فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [3] ، ويحدد ثلاثة أمور هى من خصائص المعجزة القرآنية هى :

1 - الإرشاد إلى جميع الحق لا إلى جزء منه لأنه الرسالة الخاتمة .

2 - إن مبلغ هذه الرسالة لا يتكلم من نفسه وإنما ينطق بما يحفظه إياه الله .

3 - إن هذا القرآن يخبر بأمور آتية .

فنص الإنجيل هذا بقدر ما يدل على معجزة من معجزات مبلغه يدل كذلك على جوانب من المعجزات القرآنية .

ثم إن التحدى وقع فى أكثر من وجه غير الذى أشار إليه الإنجيل ،وقع فى أمية الرسول ﷺ ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ لَّوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ ، فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ، أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [4] ، وتحدى بخلوه من الاختلاف

---

(1) الباقلاني : إعجاز القرآن : ص 31 .

(2) كتاب العهد الجديد : ص 276 .

(3) الصف : 6 .　　　(4) يونس : 16 .

فقـــال : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنـد غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا ﴾ (1)، وتحدى بالعلم المطلق فقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾(2) ، وتحدى بالمغيبات فقال : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا ﴾ (3) ، وتحدى بالبلاغة فى مفهومها الواسع الذى يتضمن بلاغة النص القديم والحديث ، فقال : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّن دُونِ اللهِ إِن كُـنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِـلْمِ اللهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ، فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (4) .

لا شك أن أوجه التحدى قد تعددت كثيرا ، ولكن هذا التعدد هو الذى سيؤدى إلى تعدد النظريات التى ستنهض بعبء البرهان .

التدرج فى التحدى : إن القرآن الكريم - كما ترى - شهدت له الكتب السماوية بالإعجاز من وجوه مختلفة ، ولذلك كان التحدى الذى يحمله شاملا وأبديا وخالدا ، والآيات التى تبين طبيعة هذا التحدى كثيرة أدرك بعض العلماء من خلالها التدرج من الصعب إلى السهل مما يبين عجز البشرية قديما وحديثا عن الإتيان بمثله .

ففى سورة الطور يقول : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ، بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ *فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ (5) فكان التحدى بالقرآن كله شكلا ومضمونا ، وفى سورة الإسراء كان الأمر كذلك ولكن مع الإشارة إلى إشراك الجن معهم ؛ على أساس أن ثقافتهم يومئذ كانت تعتقد أن لكل شاعر جنيا يوحى إليه حتى قال بعضـــهم فى معرض التفاخر :

شيطانك أنثى وشيطانى ذكر

فقال تعالى : ﴿ قُلْ لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (6) ليعبر عن التحـدى المطلق بالقرآن كله ، فى كل زمان ومكان ولكن البشرية ، ولذلك تجاوز الإنس إلى الجن ؛ ولن

---

(1) النساء : 82 .
(2) النحل : 89 .
(3) هود : 49 .
(4) هود : 13 - 14 .
(5) الطور : 33 - 34 .
(6) الإسراء : 33 مكية .

يكون القرآن متحديا لغير العرب باللغة ؛ لان ذلك ليس مما يملكون ؛ وإما كان التحدى لهم فى الجوانب الأخرى كالخبر وهو مما يدخل فى مجال نظرية الإعجاز التاريخى ، والعلم وهو مما يدخل في مجال نظرية الإعجاز المعرفى ، والتشريع وهو مما يدخل في مجال نظرية الإعجاز التشريعى ، قال ابن عطية : « ووجه إعجازه أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علما وأحاط بالكلام كله علما ، فعلم بإحاطته أى لفظة تصلح أن تلى الأولى وتبين المعنى بعد المعنى ، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره ، والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول ، ومعلوم ضرورة أن بشرا لم يكن محيط قط ، فبهذا جاء نظم القرآن فى الغاية القصوى من الفصاحة ... إن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط فى قدرة أحد من المخلوقين » [1] .

وفى سورة هود وقد نزلت بعد الإسراء بمكة كذلك يبدو الإعجاز أبلغ وأقوى ؛ لما فى الآية من تسهيل وتيسير ؛ إذ تحداهم على أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، أى أن التحدى هنا كان فقط فى النظم لا في العلم ، قال تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ، فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [2] . وما دام قد أنزل بعلم الله فمعنى ذلك أن إعجازه مطلق ، تبرهن على حقائقه مجتمعة **نظرية التضافر** ،وتبرهن عليها منفردة النظرية الملائمة لها .

وفى سورة البقرة وهى سورة مدنية يحطهم التحدى عن هذا المقدار إلى سورة واحدة فقال تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللهِ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ ، أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [3] .

وبذلك يفهمون جميعا أن التحدى شمل حاضر العرب يومئذ ومستقبل الإنسان

---

(1) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن 1 / 76 .
(2) هود : 13 - 14 (مكية) .
(3) البقرة : 23 - 24 (مكية) .

حيثما كان لأن (لن) التى نُفى الفعل بها هنا تفيد التأبيد أى نفى حدوث الفعل فى المستقبل بينما نفت (لم) حدوثه فى الحال فثبت التحدى الخالد بقوله : ﴿ فَإِلَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ ، ولما عجزوا عن المعارضة بمثل القرآن ، وتقطعت بهم الأسباب عدلوا - كما يقول القرطبى - إلى الحروب والعناد ولو قدروا على المعارضة لكان أهون كثيرا وأبلغ فى الحجة وأشد تأثيرًا [1] ، وقد توقف التحدى عند السورة ولم يتجاوزها إلى الآيات لسبب فى النظم، لأن من أفانين البلاغة - كما يقول ابن عاشور- ما مرجعه إلى مجموع نظم الكلام وصوغه بسبب الغرض الذى سبق فيه .

والواقع أن السبب فى أن يكون الإعجاز القرآنى بهذا الشمول الذى أشارت إليه حتى الكتب السماوية كما رأينا فى الإنجيل الذى نص على ما سبق ذكره ، كما نص صراحة على أن سيدنا عيسى عليه السلام قال : « أنا أعمدكم بماء التوبة ؛ ولكن الذى يأتى بعدى هو أقوى منى لست أهلا أن أحمل حذاءه » [2] .

أقول : الواقع أن السبب يكمن فى شمولية الإعجاز وخلوده ، بحيث يشمل العرب والعجم معا ، أما العرب فيدركون إعجازه نظما وتشريعا ومعرفة وتاريخا ، أى أن البرهنة على الإعجاز تتوقف على التمكن من أصول النظريات السابقة والتحكم فيها ، وأما غيرهم من أهل اللسان الأعجمى فيدركون بعد الترجمة - كما سنبين فى موضع آخر إن شاء الله - حسن تأليف النص وجودة البناء وأحكام الشرع وكمال الفكرة وعمق العلم وصدق الأخبار عن الغيوب ، ولهذا قال الباقلانى : « والقرآن كتاب دل على صدق متحمله ، ورسالة دلت على صحة قول المرسل بها ،وبرهان شهد له برهان الأنبياء المتقدمين ،وبينة على طريقة من سلف من الأولين ، حيرهم فيه إذ كان من جنس القول الذى زعموا أنهم أدركوا فيه النهاية ، وبلغوا فيه الغاية ، فعرفوا عجزهم كما عرف قوم عيسى نقصانهم فيما قدروا من بلوغ أقصى الممكن فى العلاج ، والوصول إلى أعلى مراتب الطب فجاءهم بما يبهرهم : من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وكما أتى موسى بالعصا التى تلقفت ما دققوا فيه من سحرهم ، وأتت على ما أجمعوا عليه من أمرهم ، وكما سخر لسليمان الريح والطير

---

(1) الجامع لأحكام القرآن : 1 / 77 .

(2) كتاب العهد الجديد : ص 6 من إنجيل متى : 3 .

والجن حين كانوا يولعون به من فائق الصنعة وبدائع اللطف ثم كانت هذه المعجزة مما يقف عليها الأول والآخر وقوفا واحدا ويبقى حكمها إلى يوم القيامة [1] .

ومجمل القول : قد تدرج التحدى من السهل إلى الصعب ، ومن تحدى العرب وحدهم إلى الناس كافة ليكون حجة خالدة فى كل زمان ومكان تستجيب لكل أمة تحكمت فى النظريات المناسبة لذلك ، حسب قدرات الأمم وتمكنها فى المجالات العلمية والمعرفية .

ولكن مع ذلك فإن الناس لم يذعنوا كلهم ، فلم يؤمن منهم إلا قليل ، مما يطرح تساؤلات عن سبب ذلك ؟ .

والواقع أن توليهم عن الاعتراف بكون القرآن معجزة كان بسبب المكابرة ، ولهذا يشير الله بقوله وهو يصف الحركة المضطربة التى يعيشها قادة لواء الكفر : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ [2] .

فالآية تشير إلى العناد والاستكبار اللذين حرفا الوليد بن المغيرة ، وتبين كم كان الحسد يشحن الطاقة الفكرية والانفعالية له ، ليقول حكمه الأخير ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ وكتب التفسير تذكر أن الرجل كان يطمع فى النبوة ، ولذلك كان سخطه شديدا وتحسره كبيرا كما تصوره الآيات السابقة ، بل إن القرآن يكتشف جانبا من الدوافع النفسية بقوله ﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴾ ويوضحه أكثر فى آخر السورة بقوله : ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴾[3] قال قطب « **فهو الحسد للنبى ﷺ أن يختاره الله ويوحى إليه ... ولابد أن الإشارة هنا كانت بصدد الكبراء الذين شق عليهم أن يتخطاهم الوحى إلى محمد بن عبد الله** » [4] فقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ؟ فأجابهم القرآن :

(1) الباقلانى : إعجاز القرآن ص 302 - 303 .

(2) المدثر : 11 - 25 .

(3) المدثر : 52 .

(4) سيد قطب : فى ظلال القرآن 6 / 3762 .

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ، نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ (1) .

بهذا يتبين لنا أن الإعراض لم يكن بسبب كونهم عاجزين عن إدراك طبيعة المعجزة القرآنية لأنها كانت فوق مستوى استعدادهم الفكرى والتنظيمى والبيانى والعلمى ؛ لأن القرآن كان قد صُمم للخلود ، ومن ثم كان يحتوى على تنسيق وعلم لم يدرك بعضه إلا بعد تطور العقل البشرى ، ولكن كان وإلى حد كبير نتيجة عوامل نفسية كالحسد والمكابرة ، وعوامل مادية كالحرص على الزعامة والمصالح المادية والامتيازات التى كانوا يشعرون - جهلا - أنها مهددة بعدالة الإسلام ،ولكن هذا الإعراض الذى كان نتيجة أهواء سرعان ما يندك أمام قوة الحجة العلمية كما سيتضح عند عرض نظريات إعجاز القرآن التى لم تتعدد كبدائل ، وإنما تعددت كضفائر وصدق الله إذ قال : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ (2) ، هكذا سيبقى تطور العلم هو كاشف الأسرار ليقود إلى الإيمان ؛ لأن المسألة تخضع لأسرار وقوانين علمية « فمن كانت بصيرته أقوى ومعرفته أبلغ كان إلى القبول منه أسبق ومن اشتبه عليه وجه الإعجاز أو خفى عليه بعض شروط المعجزات وأدلة النبوات كان أبطأ إلى القبول ، حتى تكاملت أسبابه واجتمعت له بصيرته وترادفت عليه مواده » .

ومجمل القول : فقد وقع التحدى على مستويات متعددة بشكل تدرج فيه من الصعب إلى السهل حتى تبين لهم أنه الحق من ربهم فتحداهم بأن يأتوا بحديث مثله ثم حطهم إلى أن يأتوا بمثله ولو كان من حيث المعنى والمضمون مفترى ثم تنازل لهم عن ذلك إلى أن يأتوا بعشر سور ثم تحداهم بالسورة ، فلم يفعلوا ، وبين لهم أنهم لن يفعلوا إلى يوم القيامة ، وسبب هذا العجز أن القرآن تنزيل من عليم حكيم ، لا يحيط بعلمه إنس ولا جن ولا يحكم الحقائق ، والأفكار والمضامين إحكامه مخلوق ما دامت السموات والأرض ، وصدق الله إذ قال : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيراً ﴾ (3) .

---

(1) الزخرف : 31 .

(2) سورة ص : 87 - 88 (مكية) .

(3) النساء : 82 .

التحول فى الطعن :

ولما عجزوا عن الإتيان بمثله لجأوا إلى الطعن فى الرسول ﷺ ، فوصفوه بما ليس فيه لعلهم ينفرون الناس منه ، فقالوا : ﴿ لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ (1) والآية تبين حدة الصراع وقوته وشعورهم بالانهزام والتقهقر أمام عظمة هذا الوحى .

والواقع أن نهيهم قومهم عن الاستماع للقرآن كان يمثل مرحلة الفشل ، وقد تبين ذلك لهم حينما بعثوا عتبة بن ربيعة ليعرض على رسول الله ﷺ بعض المغريات ظنا منهم أنه قد يتراجع عن رسالته ، فلما جاء إليه واستمع له قرأ عليه قوله تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حم * تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾(2) ثم مضى يقرأها حتى وصل السجدة ثم سجد وقال : « قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك ، فقام عتبة وقد تغير وجهه فلما وصلهم قال : « إنى سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعونى واجعلوها لى . . . وخلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهره على العرب به فملكه ملككم وكنتم أسعد الناس به ، قالوا سحرك بلسانه » (3) .

وقد تكررت التجربة مع الوليد بن عقبة الذى جاء فسمع الرسول ﷺ يقرأ : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى القُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمنكَرِ وَالْبَغْىِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (4) ، فقال أعد فأعاد فقال : والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر وما يقول هذا بشر » .

ومن الواضح أن الحكمين كانا متقاربين ، وأنهما يدلان على انبهار الرجلين بالقرآن ويبدو أن الانبهار لم يكن بسبب فصاحته فحسب ، وإنما كان كذلك بسبب

---

(1) فصلت : 26 . (2) فصلت : 1 - 4 .

(3) الرسالة الشافية : ص 123 - 124 . (4) النحل : 90 (مكية) .

مضمونه الذى كان ينفذ إلى قلوبهم وعقولهم فلا يجدون بدا من الاستسلام لجلال القرآن وجماله ، فيؤمن منهم من هدى الله ويكفر الجاحدون .

وقد كان الرسول ﷺ يفعل ذلـــك بإذن الله إذ قال : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (1) .

فكانت الدعوة إلى الاستماع ردًا على الدعوة إلى الإقلاع عنه ، لذلك رجعوا إلى مكائد من نوع آخر ، وصـــفها الله بقوله على لسانهم : ﴿ هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ، أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ * مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ، أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ (2) وبقوله: ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ (3) ، وقوله : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ (4) وقـــوله : ﴿ فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَـــاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ (5) .

ومعنى كل ذلك أن طعونهم تحولت عن القرآن إلى شخص الرسول ﷺ ، وليس من شك أنهم كانوا يعلمون أن هذه المواصفات لا يمكن أن تلصق به ، ولكنهم كانوا يستخدمونها لتشكيك العامة من الناس ، ولهذا كان القرآن يبرىء الرسول مما قالوا بمثل قوله: ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا ،مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ،إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾(6) ، وقوله : ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ * أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ * قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ (7) .

ارتباط المعجزة بالنبوة والمعجز تبارك وتعالى :

كل المعجزات مرتبطة ارتباطا وثيقا بطرفين أساسيين هما :

1- الله عز وجل .

2 - النبى المرسل عليه السلام .

---

(1) التوبة : 6 (مدنية) ، الرسالة الشافية : ص 125 .

(2) الأنبياء : 3 - 6 .
(3) الصافات : 36 .

(4) الدخان : 14 .
(5) الذاريات : 39 .

(6) الأعراف : 184 .
(7) الطور : 29 - 31 .

أما الأول فلأنه المرسل على الحق ، والمتكفل بجعل المعجزة خارقة للعادة سواء أكانت حسية أو عقلية ، ومن هنا كانت صلته بالمعجزة أساسية ؛ بحيث نجدها ترتبط به قوة وعظمة وبرهانا وصدقا ، وقد بين أبو الحسن الحرالى طبيعة هذه العلاقة بيانا شافيا بقوله : « اعلم أن بلاغة البيان تعلو على قدر علو المبين ، فعلو بيان الله على بيان خلقه بقدر علو الله على خلقه ، فبيان كل مبين على قدر إحاطة علمه ، فإذا أبان الإنسان عن الكائن أبان بقدر ما يدرك منه وهو لا يحيط به علمه فلا يصل إلى غاية البلاغة فيه بيانه ، وإذا أنبأ عن الماضى فبقدر ما بقى من ناقص علمه به كائنا فى ذكره لما لزم الإنسان من نسيانه ، وإذا أراد أن ينبىء عن الآتى أعوزه البيان كله إلا ما يقدَره أو يزوَره ؛ فبيانه فى الكائن ناقص وبيانه فى الماضى أنقـــص وبيانه فى الآتى ساقط ﴿ بَلْ يُرِيدُ الإنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ [1] وبيان الله سبحانه عن الكائن بالغ إلى غاية ما أحاط به علمه ﴿ قُلْ إِنَّمَا العِلْمُ عِندَ اللهِ ﴾ [2] وعن المنقطع كونه بحسب إحاطته بالكائن وسبحانه من النسيان ﴿ لاَّ يَضِلُّ رَبِّى وَلاَ يَنسَى ﴾ [3] وعن الآتى بما هو الحق الواقع ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ، وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ * وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ ﴾ [4] والمبين الحق الذى لا يوهن بيانه إيهام نسبة النقص إلى بيانه ، والإنسان يتهم نفسه فى البيان ويخاف أن ينسب إلى العى فيقصد استقراء البيان ويضعف مفهوم بيانه ضعفا من منته ومفهوم بيان القرآن أضعاف أضعاف أنبائه وقل ما ينقص عن نظيره » [5] .

وأما بالنسبة للثانى فأنه النبى المرسل الذى يتوقف التصديق برسالته على المعجزة التى يقدمها بين يديه برهانا على صدق نبوته .

ومجمل القول : إن تعريف الإعجاز قد حدده القدماء بأنه « أمر خارق للعادة مقرون بالتحدى سالم عن المعارضة » [6] ، ومن الواضح أن هذا التعريف عام يصدق على المعجزات كلها ، لذلك كان لزاما أن نبين طبيعة معجزة النبى ﷺ ، ووجوه الإعجاز القرآنى ، وموافقة الآيات لاستعداد الإنسانية كلها ، ومستويات التحدى

---

(1) القيامة : 5 .
(2) الملك : 26 .
(3) طه : 52 .
(4) الأعراف : 7 - 8 .
(5) البقاعى : نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور 1 / 98 .
(6) انظر : عنصر تعريف الإعجاز من البحث ص7 .

والتدرج فيه ، وأسباب تحول منكرى الحق عن الطعن فى المعجزة إلى الطعن فى شخص الرسول ﷺ ، لكن « لما كان إعجازه لمزايا فيه تعلو قدرة المخلوق علما وحكما وبيانا للعلم والحكمة حار العلماء فى تحديد وجه الإعجاز بعد ثبوته بالعلم اليقينى الذى بلغ حد الضرورة فى ظهوره حتى قال بعض علماء المعتزلة : إن إعجازه بالصرفة » (1) .

ويبدو أن الواجب يقتضى أن نبرهن - من خلال النظريات - على أنه « لا شبهة فى دلالة القرآن على ثبوت الآية المعجزة وتحققها ، بمعنى الأمر الخارق للعادة الدال على تصرف ما وراء الطبيعة فى عالم الطبيعة ونشأة المادة ، لا بمعنى الأمر المبطل لضرورة العقل (2) لأن البرهنة من غير اعتماد منهج النظريات بالمفهوم الذى بيناه فى المقدمة ، سيبقى برهانا قاصرا يجعل أمر البحث فى هذا المجال مضطربا .

على أننا قبل أن نشرع فى عرض النظريات التى نتبناها ،والتى سنقترحها ، ينبغى أن نبين أمرين :

1 - تاريخ تطور البحث فى الإعجاز .

2 - وموقفنا من نظرية الصرفة التى دار الحديث حولها ، ولعله لا يزال دور على بعض الألسنة فى عصرنا هذا ، على الرغم من وضوح موقف كبار العلماء منه .

* * *

---

(1) تفسير المنار : 1 / 198 .

(2) الطباطبائى : الميزان فى تفسير القرآن : مج 1 ص 73 .

تاريخ البحث فى إعجاز القرآن الكريم ووجوهه

قبل نزول القرآن الكريم ، وقبل مبعث الرسول ﷺ كان الحديث عن إعجاز القرآن قد تصدر الكتب السماوية ، ولكى لا نطيل الكلام فى هذا الأمر فقط لهذا النص الواضح فى الإنجيل ، فقد جاء فى رواية يوحنا ما يلى :

« أنا لى أمورا كثيرة أيضا لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن ، وما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية » [1] .

فالإشارة إلى أنه سيخبر الناس بأمور آتية تبين أن القرآن يحمل معجزات ، وهذا أمرواضح فيما نجده بعد ذلك فى القرآن الكريم كما سيتبين ، حين نتحدث عن نبوءات المستقبل ، وقد عالجها الرمانى وغيره ، وسنبين ذلك فى موضعه من البحث [2] .

بعد نزول القرآن على النبى ﷺ بلسان عربى مبين ، طرح بصفته تلك ثلاث مسائل أساسية ظلت مدهشة للعلماء منذ ذلك الحين إلي اليوم هى :

1 - الإعجاز اللسانى .

2 - الإعجاز المضمونى بصفة عامة .

3 - انعدام العلاقة التأليفية بين الأمية والكتاب المعجز .

وقد كان من الطبيعى أن يقـف العرب حيارى أمام هذا التحدى الشامل من جهة ، وقول الله على لسان الرسول ﷺ : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْىٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾[3] من جهة ثانية ، وقد عبر عن تلك الحيرة كثير من جهابذة الفكر ،

---

(1) انجيل يوحنا : ص 276 ، ضمن أسفار العهد الجديد ، وجاء فى السيرة لابن هشام (1 / 248) : « فلو قد جاء المنحمنا بالسريانية : محمد ، وبالرومية : البرقليطس » هذا الذى برسله الله إليكم من عند الرب وروح القدس هذا الذى من عند الرب خرج فهو شهيد على وأنتم أيضا » قارن بانجيل يوحنا ص 275 .

(2) انظر البحث : فصل نبوءات المستقبل .

(3) النجم : 4 - 5 .

وصلنا من أقوالهم بعض ذلك ، ومن أهمها ما روى عن الوليد بن المغيرة أنه قال : « والله لقد سمعت من محمد آنفا ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يعلى . . .

تزعمون أن محمدا مجنون فهل رأيتموه يخنق ؟ وتقولون إنه كاهن فهل رأيتموه قط يتكهن ؟ وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعرا قط ؟ وتزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئا من الكذب ؟ فقالوا فى كل ذلك : اللهم لا ، ثم قالوا فما هو ؟ ففكر فقال : ما هو إلا ساحر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه . . . فارتجَّ النادى فرحا وتفرقوا معجبين » (1) .

من الواضح أن الوليد قد حكم على القرآن الكريم حكما له مكانته فى تاريخ البحث فى إعجاز القرآن فالرجل قد قال ما قال بعد تدبر كبير ، وبعد إمعان نظر وتقليب رأى فى لفظ القرآن ومعناه ، وبعد مقارنته بغيره مما ألفه الناس من أنماط التعبير المختلفة شعرا ونثرا ، فلم يجده يشبه ذلك من أقوالهم فقال : « ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن » ثم علل كلامه بما يحسه فى القرآن من خصائص تميزه ، عبرَ عنها بالحلاوة والطلاوة وما شابه ذلك من الكلمات المستوحاة من بيئة العرب يومئذ .

ولكن الرجل لم يتركه الناس لحاله لما كان لاعترافه من أثر فى قلوب الناس وعقولهم ، لذلك ألحَ عليه كبراء قريش أن يغير رأيه فأعاد النظر بعد النظر ، وحاورهم فى ذلك كثيرا ، ثم كان ما ليس منه بد بالنسبة لمن يخضع لضغوط الواقع المعيش ، فقال - كمن تراجع عن قوله : « ما هو إلا ساحر » وعلل لحكمه الثانى كما علل لحكمه الأول ، غير أن هناك فرقا مهمًا بين التعليلين ، ذلك لأن الحكم الأول يتعلق بجمال القرآن ونظمه وحسن معانيه ، والثانى يتعلق بأثره فى المجتمع إذ قسمه تقسيما كبيرا ، لا باعتبار ما ألفوه من العصبية الدموية ، ولكن باعتبار الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ونستنتج من ذلك أن الوليد بن المغيرة قد أدرك جوانب متعددة من الإعجاز حتى وهو ينوى صد الناس عنه بسبب مصالح السادة المهددة كما الحال فى كل زمان .

(1) الزمخشرى : الكشاف 4 / 183 .

وتعجبنى هذه البداية للحديث عن الإعجاز من الوجهة التاريخية ؛ لان القران الكريم نفسه قد سجل هذه الجملة ، وهذا الموقف فى السور الأولى التى نزلت فى مكة ، الأمر الذى يكشف عن البدايات المبكرة لطرح مسألة الإعجاز بجد ، فقد قال تعالى فى سورة المدثر التى تعد فى بعض الروايات ثانى سورة بعد العلق : ﴿ كَلاَّ ، إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ ، كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ ، كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ (1) .

والتركيب الذى جاءت عليه هذه الآيات يوحى بتباعد المراحل التى حدث فيها فعل التأمل الجاد الذى قام به الوليد بن المغيرة ، إذا أن « ثم » هذه التى تفيد الترتيب والتراخى ، قد تكررت مع كل عملية من عمليات التأمل التى بذلها هذا الشقى .

وشىء آخر نفهمه من قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴾ هو أن الإدبار والتولى كانا بسبب الاستكبار ، ومعناه أنه قد تولى عن فكرته الأولى وحكمه الفطرى الذى كان قبل أن ينزغ الشيطان بينه وبين القرآن عن طريق العتاب الذى وجده من قومه حين أدلى بتصريحه الأول ، حين قال : « ما هو من كلام الإنس » ، فقد تراجع ليقول : « إن هذا إلا سحر يؤثر » وبنى على الاستنتاج حكما « إن هذا إلا قول البشر » ، ولما كان هذا الحكم إرضـــاء لنزواته وقومه وسادة عشيرته ابتغاء مرضاتهم ، ولم يكن كالحكم الأول الذى اعتمد فيه النص وكان موضوعيا ، فقد كان غضب الله عليه كبيرا ، لذا قال بعد ذلك : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لاَ تُبْقِى وَلاَ تَذَرُ . . . ﴾ (2) .

هذا نموذج من النماذج التى تفيدنا بأخبار عن أهل الأدب والفكر ممن عاصر نزول القرآن وقال برأيه فى مسألة الإعجاز ، ولا شك أن النصوص كثيرة فى هذا المجال ، يرويها المفسرون مرتبطة بمناسبات نزل فيه القـــرآن ، نجـــدها مبثوثة فى تفسير الطبرى وابن كثير والقرطبى والرازى والزمخشرى ، كما نجد بعضها فى كتب السيرة .

---

(1) المدثر : 16 - 25 .

(2) المدثر : 26 - 28 .

على أن الفترة التى تليها إلى القرن الثالث سيختفى فيها الحديث عن الإعجاز ؛ لأن الصراع قد حسم لصالح النبوة ، فصدّق الناس بالقرآن وآمنوا به وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولا ، وأخذوا فى الفتوحات لتبليغ الرسـالة التى جاءت للناس كافة من جهة ، وانكبوا على حفظ القرآن وتفسيره من جهة ثانية ، وعكفوا على السيرة وواظبوا على جمع الحديث وحفظهما من الضياع من جهة ثالثة ، ولهذه الأسباب مجتمعة قل الاهتمام بمسألة الإعجاز فى عصر بنى أمية ، تماما كما قل الاهتمام بغيره من العلوم الأخرى الثانوية [1] .

فلما استقر الحال فى عصر بنى العباس ، وكثر الحديث في العلوم بصفة عامة كان من الطبيعى أن يعود التساؤل عن قضية الإعجاز ، لكن ليس من أجل التشكيك فى النبوة والقرآن من جديد ،وإنما من أجل بيان الخصائص التى بها كان معجزا ، ولهذا لم يكن الناس يقولون : هل هو معـجز حقًّا ؟ وإنما كانوا يقولون ما سر إعجازه ؟ لقد كانوا يطرحون آراء مختلفة بخصوص الأسباب التى كان بها معجزا .

فالعودة إلى الحديث فيه كانت بسبب التطور الحضارى والفكرى ولم تكن بسبب « مقالة بعض المعتزلة بأن فصاحة القرآن غير معجزة » كما يعتقد الرافعى [2] . إذ أن المعتزلة أنفسهم كانوا نتيجة لحركة علمية واسعة ، وربما كان قولهم بالصرفة لشدة الانبهار والإعجاب .

ولعل عبد الرؤوف مخلوف قد مس هذه القضية حينما أرجع السـبب إلى نشأة « علم الكلام » الذى كان من بين قضاياه الأساسية مسألة « الإعجاز القرآنى » [3] .

وسنلاحظ فى أواخر القرن الثانى نشاطا متميزا ، يأخذ فى التبلور شيئا فشيئا بدءا من كتاب (مجاز القرآن) لأبى عبيدة (201 هـ) ثم (معانى القرآن) للفـراء (207 هـ) ثم كتاب (تأويل مشكل القرآن) لابن قتيـبة (213 هـ) ثم أفكار النظام (231 هـ) عن الإعجاز القرآنى بالصرفة ، ثم جهود الجاحظ (255 هـ) التى توزعت فى عدة كتب ورسالات من أهمها فى هذا الباب خاصة كتاب (نظم القرآن)

---

(1) عبد الرؤوف مخلوف : الباقلانى وكتابه إعجاز القرآن ص 28 .

(2) الرافعى : تاريخ آداب العرب ص 151 .

(3) عبد الرؤوف مخلوف : الباقلانى وكتابه إعجاز القرآن ص 31 .

الذى ذكره غير واحد [1] ولم تصلنا منه إلا نقول مشتتة لا تعطى فكرة كاملة عن رأيه فى الإعجاز القرآنى ، وإن أعطت فكرة رئيسية سيبنى عليها عبد القاهر الجرجانى من بعد فكرة النظم ، ومن المهم كذلك أن نشير إلى تفسير الطبرى الذى كان يعرض لهذه المسألة من حين لآخر [2] .

ويمضى القرن الثالث وقد تبلورت الفكرة ، وجد فيها الحديث ليكون مقدمة هامة للقرن الرابع ، الذى نشط فيه هذا العلم نشاطا كبيرا على يد الرمانى (386 هـ) صاحب رسالة (النكت فى إعجاز القرآن) ثم الخطابى (319 - 388 هـ) صاحب رسالة (بيان إعجاز القرآن) ، ثم الباقلانى (403 هـ) وهو صاحب أضخم وأهم كتاب ألف فى القرن الرابع الهجرى على الإطلاق فكتابه « إعجاز القرآن » كان بحق من المصادر الهامة التى اعتمدها الباحثون من بعد .

ومع مطلع القرن الخامس الهجرى يكون الفكر الإسلامى قد نضج مما مهد لظهور أمثال القاضى عبد الجبار (415 هـ) صاحب كتاب « دلائل النبوة » ، ولعله هو الذى مهد الطريق أكثر لظهور معلم من المعالم الحضارية التى لا يشق لها غبار منذ ذلك الوقت إلى اليوم ، وأعنى العلامة عبد القاهر الجرجانى (- 471 هـ) فقد بسط هذا الموضوع فى الرسالة الشافية وكتابيه (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) ، هذان الكتابان اللذان ظلا مرجعا لأهل البلاغة والتفسير إلى يومنا هذا ، وأحسب أنه لم يؤلف مثلهما فى موضوعهما ، وحتى جهود المحدثين لم تستطع أن تجيد كما أجاد هذا العلامة فى مجال الإعجاز البلاغى لاسيما قسم النظم .

ولهذا السبب سمى بعد ذلك صاحبهما شيخ البلاغيين ، فقد كان شيخا للمفسر الكبير الزمخشرى (- 538 هـ) الذى ظهرت بصمات الجرجانى فى تحليلاته البلاغية للقرآن فى مواطن مختلفة من تفسير « الكشاف » ، حتى قال الدكتور مصطفى الصاوى الجوينى : « إن أسس التربية الفنية التى اهتدى إليها عبد القاهر الجرجانى قد أثمرت ثمرتها عند الزمخشرى » [3] .

ويمكن أن نعد البحوث العلمية التى جاءت بعد ذلك على يد ابن عطية (542هـ)

---

(1) الكشاف : 1 / 15 .   (2) الطبرى : مختصر تفسير الطبرى 1 .

(3) الجوينى : منهج الزمخشرى فى تفسير القرآن وبيان إعجازه ص 216 دار المعارف .

الذى يرى أن وجه إعجاز القرآن يعـــود إلى نظمه وصحة معانيه وتوالى فصاحة ألفاظه ، وذلك أن الله أحاط بكل شيء علما ، وأحاط بالكلام كله ، فإذا أراد ترتيب اللفظة من القرآن علم بإحاطته أى لفظة تصـــلح أن تلى الأولى وتبين المعنى بعد المعنى [1] .

ولعل البحوث التى جاءت على يد حازم القرطاجنى ولا سيما فى كتابه (منهاج البلغاء وسراج الأدباء) ، والسكاكى (1228 هـ) فى « مفتاح العلوم » وأبو حيان التوحيدى - حوالى 400 هـ) الذى يضرب مثالا بالرجل الذى سئل عن موضع الإعجاز من القرآن فقال : إنه شبيه بقولك مـا موضـــع الإنسان من الإنسان بل متى أشرت إلى جملته فقد حققته ودللت على ذاته ، كذلك القرآن لشرفه لا يشار إلى شيء منه إلا وكان ذلك المعنـــى آية فى نفسه ومعجزة لمحاوله وهدى لقائله [2] .

وكذلك ما نجده فى كتـــاب الرازى (606 هـ) « نهاية الإيجاز فى دراسة الإعجاز » وما نجده فى « البرهـــان فى علوم القـــرآن » للزركشى (794 هـ) [3] ، « والإتقان فى علوم القرآن » للسيوطى (911 هـ) هذه كلها كتب كانت تنهل بصفة أساسية من كتابى الباقلانى والجرجانى ، مما يدل على أن مرحلة الإيداع قد بدأت تستنفد طاقتها .

ولهذا السبب تعطل البحث فى الإعجاز إلى العصر الحديث الذى كان من أبرز ما يتميز به هو التوجه الجديد فى البحث فى وجوه الإعجاز التى كشفها التطور الفكرى والعلمى والنقدى الحديث نتيجة تطور المنظومة المعرفية بصفة عامة ، وكان من أبرز البحوث ذات الطابع البيانى والعلمى فى الوقت نفسه الكتاب القيم الذى ألفه مصطفى صادق الرافعـــى (1880 - 1937) لبيان « إعجاز القرآن والبلاغة النبوية » ،

---

(1) السيوطى : الإتقان فى علوم القرآن 2 / 119 .

(2) نفسه : ص 2 / 120 .

(3) الموضوعات التى عرض لها : دور الذوق الحضارى فى معرفة مقامات الكلام - وجوه المخاطبات - مناسبة فواتح السور وخواتمها - ارتباط السور ببعضها .

وقد ظهر الكتاب فى إخراجه المستقل عن كتاب تاريخ الأدب العربى سنة 1928 م [1] ، وظهر كتاب « إشارات الإعجاز فى مظان الإيجاز » لبديع الزمان النورسى فى طبعته الأولى سنة 1959 بأنقرة .

وظهر بعد ذلك كتاب « التصوير الفنى فى القرآن الكريم » لسيد قطب ، وبعض الكتب التى تمس هذا الموضوع مسا خفيفا حين تتحدث عن علوم القرآن مثل كتاب الصابونى : « التبيان فى علوم القرآن » ، وكتاب المرحوم محمد الزفزاف « التعريف بالقرآن والحديث » وكتابى عبد الله دراز : « النبأ العظيم » و « مدخل إلى القرآن الكريم » وكتاب الغزالى « نظرات فى القرآن » ، وكتاب محمد الصادق إبراهيم عرجون : « القرآن العظيم هدايته وإعجازه فى أقوال المفسرين » وكتاب نصر أبو زيد : « مفهوم النص - دراسة فى علوم القرآن » الذى أثار ضجة بسبب المنهج الذى تبناه فى طرح القضية .

فهذه الكتب وغيرها كثير مما يمس إعجاز القرآن من جهات مختلفة ، هى مؤلفات قيمة ولكنها لم تختص بموضوع الإعجاز كما سبق أن رأينا عند القدماء ، كما أنها لم تطرح مشكلة الإعجاز كنظرية تفسر الإعجاز القرآنى تفسيرا أعمق .

إلا أن هناك بحوثا قيمة قد اهتمت بجوانب من الإعجاز العلمى فى القرآن وهى مؤلفات تسعى بالاستعانة بالكشوفات العلمية لتدل أهل العقول على جوانب إعجازية فى العلوم المختلفة كالطب والفلك وعلم البحار وما إلى ذلك ، ويمكن أن نذكر من ذلك مثلا : كتاب خالص جلبى : « الطب محراب الإيمان » وهو من أتقن الكتب فى موضوعه ، ويقع فى جزأين ، وكتاب عادل عبد الله القلقيلى : « كشوف جديدة فى إعجاز القرآن الكريم » وكتاب السيد الجميلى : « الإعجاز العلمى فى القرآن » وكتاب نعمت صدقى « معجزة القرآن » وكتاب حنفى أحمد : « التفسير العلمى للآيات الكونية » .

هذا فضلا عن الإشارات الموزعة فى كتب التفسير المعاصر ، مثل « تفسير المنار » لمحمد عبده ورشيد رضا ، وتفسير « الجواهر فى تفسير القرآن »

---

(1) تاريخ آداب العرب : 2/ 9 .

لطنطاوى جوهرى ، و « فى ظلال القرآن » لسيد قطب و « التـــحرير والتنوير » لابن عاشور و « من وحى القرآن » لمحمد حسين فضل الله ، و « الميزان فى تفسير القرآن » لمحمد حسين الطباطبائى الذى تميز بالتركيز على مسائل ، قصد منها بيان معنى الآية المعجزة فى القرآن ، منها :

1 - تصديق القرآن لقانون العلية العامة .

2 - إثبات القرآن ما يخرق العادة .

3 - القرآن يسند ما أسند إلى العلة المادية إلى الله تعالى .

4 - القرآن يثبت تأثيرا فى نفوس الأنبياء فى الخوارق .

5 - القرآن كما يسند الخوارق إلى تأثير النفوس يسندها إلى أمر الله تعالى .

6 - القرآن يسند المعجزة إلى سبب غير مغلوب .

7 - القرآن يعد المعجزة برهانا على صحة الرسالة لا دليلا عاميا [1] .

ومجمل القول : إن البحث فى الإعجاز القرآنى قد بدأ فى فترة مبكرة جدًا من عمر الثقافة الإسلامية ، وقد كان السبب فى ذلك واضحاً لارتباط المعجزة بالرسالة ، وارتباطهما معا بقضية الإيمان ، فلما استقر الإيمان فى النفوس اشتغل الناس بما هو أولى ؛ كتدوين القرآن ، وجمع الحديث الشريف ، وتنظيم أبواب الفقه ، حتى إذا استقر الأمر ونشط البحث العلمى فى القرنين الثالث والرابع عاد العقل الإسلامى إلى طرح القضية من جديد لكن هذه المرة ليس من باب التشكيك ، وإنما من باب البحث العلمى النزيه ، ولذلك تعددت وجهات النظر فى أسباب الإعجاز وأسراره ، فرده بعضهم إلى أسباب خارج النص كالقول بالصرفة ، ورده بعضهم إلى وجوه متعددة كالبيان والأخبار والفصاحة واللغة ، ولكنهم لم يصوغوا ذلك فى نظرية شاملة ، وحتى نظرية النظم التى تبلورت على يد عبد القاهر الجرجانى (- 471 هـ) لم تكن شاملة لكل أوجه الإعجاز ، بل لم تتجاوز مستوى الجملة إلى مستوى السورة كلها كوحدة مترابطة الآيات .

وقد توقفت الجهود بعد إشارات الشاطبى وابن خلدون ، ولم تعد إلى الظهور

---

(1) الميزان فى التفسير : 1 / 74 - 83 .

إلا بعد عودة الوعى على أيدى المصلحين من آمثال جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وابن باديس ومحمد بن عبد الوهاب والمودودى والنورسى وغيرهم ، ففى ضوء الوعى الذى نشره هؤلاء الدعاة الأفاضل برزت جهود جديدة لها طروحات متميزة منهجا وعمقا ، نجدها عند مالك بن نبى فى كتابه « الظاهرة القرآنية » وعند عبد الله دراز فى كتابيه : « مدخل إلى القرآن » و « النبأ العظيم » وعند غيرهم ممن ذكرنا ٠

وقد تميزت هذه الفترة بالتركيز على الإعجاز العلمى كوجه من أوجه إعجاز المحتوى ، والبحث فى الوحدة الموضوعية لسور القرآن كوجه من أوجه إعجاز الشكل والبناء البلاغى ٠

ولكن مع أن البحوث الجديدة قد فتحت فتوحات جديدة فإنها لم تصغ قضية الإعجاز فى إطار نظرية شاملة تجمع كل الأوجه الصحيحة وتفسرها ، وقد حتم علينا هذا الطموح أن نقدم محاولة فى هذا المجال أسميناها « **نظرية تضافر أوجه الإعجاز** » استأنسنا فيها ببعض الملاحظات التى لها علاقة وطيدة بهذه الفكرة مما أدلى به القدماء والمحدثون فى هذا الباب ٠

* * *

نظرية الصرفة وموقفنا منها

كان بعض القدماء والمحدثين قد عرضوا لنظرية تعدُّ من أقدم النظريات التى تناولت موضوع الإعجاز القرآنى سميت (الإعجاز بالصرفة) ، وهى مقولة قال بها النظام وبعض القدرية ، ومفادها على ماروى القرطبى : « أن وجه الإعجاز هو المنع من معارضته والصرفة عند التحدى بمثله ، وأن المنع والصرفة هو المعجزة دون ذات القرآن ، وذلك أن الله تعالى صرف هممهم عن معارضته مع تحديهم بأن يأتوا بسورة من مثله » [1] ، وهذا يعنى أن الإعجاز خارج النص وقد قال بهذه النظرية الرمانى [2] ، وهو معتزلى ، غير أنه لم يقصر الإعجاز عليها ، ولم يفصل الحديث فيها مما يجعلنا نشك فى أنه ما قال بها إلا تحت ضغط الانتماء الفكرى الذى من شأنه أن يبعد بصاحبه عن الموضوعية ، قال ابن عاشور : « وقد اختلف العلماء فى تعليل عجزهم عن ذلك فذهبت طائفة قليلة إلى تعليله بأن الله صرفهم عن معارضة القرآن فسلبهم المقدرة أو سلبهم الداعى ، ويعرف هذا القول بالصرفة ... ولعلها بفتح الصاد وسكون الراء ، وهى مرة من الصرف وصيغ بصيغة المرة للإشارة إلى أنها صرف خاص فصارت كالعلم بالغلبة ، ولم ينسبوا هذا القول إلا إلى الأشعرى ... وإلى النظام والشريف المرتضى وأبى إسحاق الاسفرائينى ... وهو قول ابن حزم ... وقد عزاه صاحب المقاصد فى شرحه إلى كثير من المعتزلة ، وأما الذى عليه جمهرة أهل العلم والتحقيق واقتصر عليه أئمة الأشعرية وإمام الحرمين وعليه الجاحظ وأهل العربية كما فى المواقف ، فالتعليل لعجز المتحدين به بأنه بلوغ القرآن فى درجات البلاغة والفصاحة مبلغا تعجز قدرة بلغاء العرب عن الإتيان بمثله » [3] .

وقد لاقت هذه النظرية من النقد ما لم تلاقه نظرية من النظريات فى هذا المجال ؛ فانتقدها الباقلانى مبينا أنهم « لو كانوا صرفوا على ما ادعاه – النظام – لم

(1) الجامع لأحكام القرآن : ج ١ ص ٧٥ .

(2) النكت فى إعجاز القرآن : ص ١١٠ .

(3) ابن عاشور : التحرير والتنوير ١ 103 104 .

يكن من قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عما كان يعـــدل به فى الفصاحة ، والبلاغة ، وحسن النظم وعجيب الوصف ؛ لأنهم لم يتحدوا إليه ، ولم تلزمهم حجته ، فلما لم يوجد فى كلام من قبله مثله علم أن ما ادعاه القائل بالصرفة ظاهر البطلان » [1] .

ورد على النظام القرطبى بقوله : « لو قلنا إن المنع والصرفة هو المعجز لخرج القرآن عن أن يكون معجزا وذلك خلاف الإجماع ... وقد علم أن نفس القرآن هو المعجز ؛ لأن فصاحته وبلاغته أمر خـــارق للعادة إذ لم يوجد قط كلام على هذا الوجه » [2] .

وتأكد الرد على لسان الخطابى حيـــث بين أن المعنى فى الصرفة التى وصفوها لا يلائم صفة الإعجاز ومفهـــومه ، وهو أن تكون أمرا خارجا عن العادات ناقضا لها » [3] .

وتأكد النقد فى تحليل عميق بقلم الجرجانى ضمنه الرسالة الشافية [4] بين فيه استحالة ما يقولونه من أن قدرات العربى قد تراجعت بعد نزول القرآن ؛ لأن ذلك كلام ليس له ما يصدقه فى واقعهم ، قال : « اعلم أن الذى يقع فى الظن من حيث القول بالصرفة أن يكون الذى ابتدأ القول بها ابتدأه على توهم أن التحدى كان إلى أن يعبر عن أنفس معانى القرآن بمثل لفظه ونظمه دون أن يكون قد أطلق لهم وخبروا فى المعانى كلها ، ذاك لأن فى القول بها على غير هذا الوجه أمورا شنيعة يبعد أن يرتكبها العاقل ويدخل فيها ، وذاك أنه يلزم عليه أن يكون العرب قد تراجعت حالها فى البلاغة والبيان ، وفى جودة النظم وشرف اللفظ ، وأن يكونوا قد نقصوا فى قرائحهم وأذهانهم ، وعدموا الكثير مما كانوا يستطيعون » [5] .

وانتقد القول بالصرفة كل المعاصرين – فيما أعلم – واعتبر بعضهم ذلك هروبا

---

(1) إعجاز القرآن : ص 30 .
(2) الجامع لأحكام القرآن : 1 / 75 .
(3) بيان إعجاز القرآن : ص 23 .
(4) الرسالة الشافية : ص 147 .
(5) نفسه : ص 147 .

من مواجهة القضية بالبحث العلمى الدقيق ، فجاء فى تفسير المنار : « قال بعض المعتزلة : إن إعجازه بالصرفة ... وهذا رأيُ كسولٍ ، أحبَ أن يريح نفسه من عناء البحث وإجالة قدح الفكر فى هذا الأمر » [1] .

وجاء فى إعجاز القرآن للرافعى : « ثم لما تجمعت آراء المعتزلة بعد أن أقبل جماعة .. على دراسة كتب الفلسفة مما وقع إليهم من اليونان وغيرهم نبغت لهم شؤون أخرى فى الكلام فمزجوا بين تلك الفلسفة على كونها نظرا صرفا ، وبين الدين على كونه يقينا محضا .. واختلفت بهذا آراؤهم فى وجه إعجاز القرآن ... فيبدأ فارغًا وينتهى كما بدأ ... وعلى الجملة فإن القول بالصرفة لا يختلف عن قول العرب فيه : ﴿ إِن هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ وهذا زعم رده الله على أهله وأكذبهم فيه وجعل القول به ضربا من العمى ﴿ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ ﴾[2] فاعتبر ذلك بعضه ببعضه فهو كالشىء الواحد » [3] .

* * *

(1) تفسير المنار : 1 / 198 .

(2) الطور : 15 .

(3) تاريخ آداب العرب : 2 / 144 - 147 .

نظرية الإعجاز البلاغى

توطئة :

تفاوت النصوص فى قيمتها مرهون بتفاوتها فى قيمة المضمون الذى تحمله ، وقيمة المضمون متوقفة على الإمكانات التعبيرية التى تؤديه ، ولذلك نرى تعبيرا نحسبه جميلا فإذا نحن فتشنا - كما يقول ابن قتيبة - عن المعنى لم نجده شيئا ، ونرى تعبيرا مغلقا وربما بسيطا ، فإذا نحن بحثنا عن المعنى وجدناه مكتنزا .

والسبب فى ذلك يعود إلى الطاقات التعبيرية التى يملكها المعبر ، بحيث تكون تلك التعابير بمثابة استجابة دقيقة لمقتضى الحال .

وإذا نحن بحثنا عن السر فى كون بعض التعابير أقوى طاقة من بعض وجدناه بصورة واضحة فى ظاهرتين بارزتين ، عالجهما القدماء تحت مصطلحين كبيرين هما : **مصطلح البلاغة ومصطلح الفصاحة** ، ولا شك ، أن أولهما يركز على الدلالة وثانيهما يركز على القيمة الصوتية ، وقد أدى ذلك فى الحقيقة إلى بروز اتجاهين فى الدراسة ؛ أحدهما برز عند الجرجانى فى **نظرية النظم** ، وثانيهما ظهر عند ابن سنان الخفاجى فى ما يمكن أن نسميه **نظرية الفصاحة** ، ولكن هذين العالمين عالجا - على اختلافهما - مسألة الإعجاز فى ثلاثة أطر جعلتهما يلتقيان ، عرفت باسم علوم البلاغة هى :

1 - علم البيان .
2 - علم المعانى .
3 - علم البديع .

وعلى الرغم من تساوى أهمية نظرية النظم التى ارتكزت أساسا على علم الدلالة ، ونظرية الفصاحة التى ارتكزت أساسا على البعد الصوتى ، فإن بعض العلماء قد ركزوا على علمى البيان والمعانى وجعلوهما أهم فى تفسير النص وبيان إعجازه ، ولأهمية هذين العلمين عندهم فى بناء النص وتفكيكه وجدنا الزمخشرى يشير فى مقدمة الكشاف إلى ذلك بقوله : « علم التفسير الذى لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذى علم ... لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق ، ولا يغوص

على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع فى علمين مختصين بالقرآن ، وهما : **علم المعانى وعلم البيان** ، وتمهل فى ارتيادهمـــا آونة ، وتعب فى التنـــقير عنهما أزمنة ، وبعثته على تتبع مظانها همة فى معرفة حجة الله وحرص على استيضاح معجزة رسول الله ﷺ » (1) .

على أن من العلماء من استدرك الأمر ،ونبه على أهمية القيمة الصوتية إلى جانب القيمة الدلالية ، ومنهم الرافعى وسيد قطب وسنبين ذلك فى موضعه .

أما عبد القاهر الجرجانى فقد هيمنت على عقله فكرة النظم واستهوته جهة الدلالة فألف كتابيه : « أسرار البلاغة » ، و « دلائل الإعجاز » . يعالـــج فى أولهما : قضايا علم البيان ، وفى الثانى : قضية النظم ودورها فى إعجاز القرآن على اعتبار أن الطاقات التعبيرية ذات البعد الدلالى هى مكمن السر فى التفاوت بين مستويات النصوص فيعلو بعضها على بعض حتى يصل إلى مرتبة الإعجاز للبشر ، ويقوم ذلك على المقدرة الفائقة فى اختيار الألفاظ ، وفى تنزيلها المنازل اللائقة بها حسب مقتضى الحال الذى يرتبط دقة وعمقا بالعلم الذى يصدر عنه ذلك النص ، وقد جاء فى تفسير المنار : « إن فى القرآن من إفادة المبانى القليلة للمعانى الكثيرة بمعونة السياق والأسلوب مالا يخطر فى بال أحد من كتاب البشر وعلمائهم ، ومثل هذا مما تجب العناية ببيانه ، يقول الشيخ عبد القاهر الجرجانى فى دلائل الإعجاز : إن كون القرآن معجزا ببلاغته يوجب علينا أن نجعل أسلوبه الذى كان معجزا به فنا ليبقى دالا على وجه إعجازه » (2) .

وسنقف هنا على ظاهرة النظم كما عالجها الجرجانى ، ثم ظاهرة الفصاحة ، ثم ظاهرة التقديم والتأخير بصورة واسعة ، لنبين صنيعها فى الإعجاز القرآنى .

أولا : الإعجاز القرآنى فى نظر الجرجانى (471 هـ) :

سبقت الإشارة إلى أن البحث فى الإعجاز القرآنى وأسراره البلاغية قد بدأ ينمو ويتسع منذ أن نزل القرآن الكريم متحديا العرب خاصـــة والناس عامة أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله .

---

(1) الكشاف : 1 / 16 .

(2) تفسير المنار : (4 / 139) .

فكتب فى أسرار الإعجاز خلق كثير : كالجاحظ والرمانى والخطابى والباقلانى والقاضى عبد الجبار ، وأبو هلال العسكرى وعبد القاهر الجرجانى وغيرهم كثير .

وقد اختلفوا فى أسرار الإعجاز فرده بعضهم إلى فصاحة لفظه وبعضهم إلى دقة نظمه ، وحصره بعضهم فى الصرفة ، وأرجعه بعضهم إلى الأخبار المستقبلية ، ورأى بعضهم أن الإعجاز يتم من عدة وجوه .

غير أن عبد القاهر الجرجانى قد اشتـــهر أكثر من غيره بكتابه : « دلائل الإعجاز » والسبب فى ذلك أنه حصر الإعجاز فى جانب واحد هو « النظم » واجتهد كثيرا فى أن يجعل من فكرة النظم - التى كانت تتداول ببساطة عند الجاحظ والقاضى عبد الجبار والباقلانى والخطابى - نظرية كاملة فى بابها يبرهن بها على الإعجاز القرآنى وأسراره .

والسبب الذى جعل الجرجانى يتجه هذا الاتجاه هو الاعتقاد بأن سر الإعجاز لابد أن يكون فى كل آية بغض النظر عن معناها وفحواها وخطابها : « لا معنى لبقاء المعجزة بالقرآن إلا أن الوصف الذى له كان معجزا قائم فيه أبدا » [1] ، وقد بدا له أن الخاصية التى لا تتخلف فى القرآن مهما تبدلت المعانى ومقتضيات الأحوال إنما هى النظم ، فركز عليها كما ركز من بعد سيد قطب على « التصوير » [2] وركز إبراهيم عرجون على « الإعجاز بالهداية » [3] .

ونحن هنا سنتتبع رويدا رويدا فكرة النظم لنضع تصور عبد القاهر الجرجانى لمسألة الإعجاز أمام أنظارنا ثم نعمد بعد ذلك لتقييمها إن شاء الله .

* *

1 - بداية الطرح :

طرح عبد القاهر الجرجانى المسألة أول الأمر عن طـــريق تســـاؤلات عامة هى : « خبرونا عنهم عماذا عجزوا ؟ أعن معان من دقـــة معانيه وحسنها وصحتها فى

---

(1) دلائل الإعجاز : ص 8 .

(2) سيد قطب : التصوير الفنى فى القرآن الكريم .

(3) إبراهيم عرجون : القرآن العظيم : هدايته وإعجازه 159 .

العقول ؟ أم عن ألفاظه ؟ فإن قلتم : عن الألفاظ ، فماذا أعجــزهم من اللفظ ؟ أم ما بهرهم منه ؟ » [1] .

ثم أجاب عن تلك التساؤلات التى تضمنت أوجه الطرح اللفظية الشكلية والمعنوية الباطنية على حد سواء إجابة واضحة الدلالة ، أرجع فيها السر إلى النظم وخصائصه وبدائعه ؛ لأن النظم يشمل القرآن كله ويتخلل كل الأساليب التعبيرية فيه فقال : « قلنا أعجزتهم مزايا ظهرت فى نظمه ، وخصائص صادفوها فى سياق لفظه وبدائع راعتهم من مبادى آية ومقاطعها ، ومجارى ألفاظها ومواقعها ، وفى مضرب كل مثل ، ومساق كل خبر ، وصـــورة كل عظة وتنبيه وإعلام وتذكير وترغيب وترهيب ، ومع كل حجة وبرهان وصفة وتبيان وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة وعشرا عشرا وآية آية فلم يجدوا فى الجميع كلمة ينبو بها مكانها ، ولفظة ينكر شأنها أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه أو أحرى وأخلق ، بل وجدوا **اتساقا** بهر العقول وأعجز الجمهور ، ونظاما والتئاما وإتقانا وإحكاما لم يدع فى نفس بليـــغ منهم - ولو حك بيافوخه السماء - موضع طمع حتى خرست الألسن عن أن تدعى وتقول ، وخلدت القروم (الفحول) فلم تملك أن تصول ، نعم فإذا كان هذا هو الذى يذكر فى جواب المسائل فبنا أن ننظر أى أشبه بالفتى فى عقله ودينه وأزْيد له فى علمه ويقينه ؟ أأن يقلِّد فى ذلك ويحفظ متن الدليل وظاهر لفظه ولا يبحث عن تفسير المزايا والخصائص ما هى . . . أم أن يبحث عن ذلك كله ويستقصى النظر فى جميعه ويتتبعه شيئا فشيئا . . حتى يعرف كلا منه . . وعلمه بتفسيره وتأويله . . . وجملة ما أردت أن أبينه لك أنه لابد لكل كلام تستحسنه ، ولفظ تستجيده من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلـــومة وعلة معقولة وأن يكون لنا إلى العبارة عن ذاك سبيل » [2] .

إن هذه الإجابة الطويلة التى لخصت فكرة الإعجاز عند الجرجانى هى عبارة عن إجمال وتعميم يحتاج بعد ذلك إلى التفصيل ، فقد بين أن سر الإعجاز يرجع إلى

(1) دلائل الإعجاز : ص 32 .
(2) نفسه : ص 32 - 33 .

خصائص النظم ، ولكن لم يبين ما معنى النظم ؟ وكيف يكون ؟ ، وذلك هو ما سيفصله بعد ذلك فى كتاب دلائل الإعجاز وفى كتاب أسرار البلاغة وفى رسالته المسماة « الشافية » .

* *

2 - مفهوم النظم :

عرض عبد القاهر لتعريف مفهوم النظم مرات فعرفه مرة بقوله : « اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التى نهجت فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التى رسمت لك فلا تخل بشىء منها » (1) .

ومعنى هذا الكلام أن النظم هو مراعاة قوانين النحو ، وعليه فإن الإعجاز قد تم بسبب مراعاة قواعد النحو بدقة متناهية ، وكل فساد فى النظم هو فساد فى استعمال قواعد النحو ، ولذلك عدّ من فساد النظم قول الفرزدق :

وما مثله فى الناس إلا مملكا أبو أمه حى أبوه يقاربه

وبين أن الفساد والخلل كانا بسبب تجنب الصواب إذ وضع فى تقديم أو تأخير أو حذف أو إضمار أو غير ذلك ما ليس له أن يصنعه ، وانتهى إلى أنه « إذا ثبت فساد النظم واختلاله أن لا يعمل بقوانين هذا الشأن ثبت أن سبب صحته أن يعمل عليها ، ثم إذا ثبت أن مستنبط صحته وفساده من هذا العلم ثبت أن الحكم كذلك فى مزيته والفضيلة التى تعرض فيه ، وإذا ثبت جميع ذلك ثبت أن ليس هو غير توخى معانى هذا العلم وأحكامه فيما بين الكلم » (2) .

إنك ترى أن الجرجانى يجعل صواب النظم وفساده هو سر المزية والفضيلة ، ومعنى ذلك أن الحسن يرتقى كلما كان النظم أكثر صوابا ، وهذا كلام قد لا يقبل مقياسا للإعجاز ، لأن الصواب ليس إلا الخطوة الأولى نحو الحسن ، فضلا عن أن يكون سببا أساسيا للإعجاز ، ومع ذلك فقد يكون حكمنا متسرعا ، فهذه بداية

(1) دلائل الإعجاز : ص 64 .

(2) نفسه : ص 67 .

الطرح ؛ إذ أن الجرجانى يعرف النظم فى موضع آخر بقوله : « وأمر النظم فى أنه ليس شيئا غير توخى معانى النحو فيما بين الكلم وأنك ترتب المعانى أولا فى نفسك ثم تحذو على ترتيبها الألفاظ فى نطقك ، وأنا لو فرضنا أن تخلو الألفاظ من المعانى لم يتصور أن يجب فيها نظم وترتيب فى غاية القوة والظهور » (1) .

وهذا التعريف لا يناقض الأول وإنما يتممه ويشرحه ، وذلك لأنه أضاف جانبا هاما وهو علاقة ترتيب المنطوق بالمفهوم من جهة وعلاقتهما معا بالناحية النفسية للمتكلم .

ولكى يبين نمط هذا الترتيب عمد إلى التفرقة بين ترتيب الحروف والأصوات فى نطق الكلمة وترتيب الكلمات فى الجملة ، وكشف أن نظم الحروف هو تواليها فى النطق فقط وليس نظمها بمقتضى عن معنى ، وأما الكلمات فيقتفى فى نظمها آثار المعانى وترتيبها حسب ترتيب المعانى فى النفس ، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض وليس هو النظم الذى معناه ضم الشىء إلى الشىء كيــف جاء واتفق « والفائدة فى معرفة هذا الفرق أنك إذا عرفته عرفت أن ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها فى النطق بل إن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذى اقتضاه العقل » (2) .

ومعنى ذلك أن النظم عمل يخلو من العشوائية ؛ لأنه عمل ينشط فيه العقل بحسب القواعد النحوية التى تقتضى أن يكون التركيب متناسقا بحسب تناسق الدلالات والمعانى ، ومن الواضح أن تلاقى المعانى وتناسق الدلالات يستوجب النظر إلى المدلول قبل الدال ؛ ولكن المدلولات تحــتاج لكى تتناسق إلى من يعيها ويستوعبها ، ولما كانت عقول الناس متفاوتة فى إدراك المعانى والدلالات فإنها تكون متفاوتة كذلك فى كيفية التعبير عنها ، لأن العلاقة بين الدال والمدلول لا تقبل الانفصام فى الوعى مطلقا .

وعلى هذا الأساس يرفض عبد القاهر أن يتحقق الحسن فى العبارات بسبب من

---

(1) نفسه : ص 192 .

(2) دلائل الإعجاز : ص 40 - 41 .

العلم باللفظ وحده ، أو بالمعنى وحده ، وإنما يراه متحققا بالنظم أى العلم بمواضع الألفاظ ، لأنها لا يمكن أن تترتب إلا بمقتضى المعنى ، فالذى يرى أن المزية والحسن يأتيان من جانب العلم باللغة مخطىء ، وغلطه يفضى به إلى رفع الإعجاز من حيث لا يعلم [1] .

كما أن الذى يرى الإعجاز فى الصـــرفة قد جانب الصواب ودخل فى الشناعات [2] ، وهكذا يبقى فى رأيه النظم وحده الوجه الصالح للبرهنة على الإعجاز فيقول : « واعلم أنا لم نوجب المزية من أجل العلم بأنفس الفروق والوجوه فنستند إلى اللغة ،ولكنا أوجبناها للعلم بمواضعها وما ينبغى أن يصنع فيها ، فليس الفضل للعلم بأن الواو للجمع والفاء للتعقيب بغير تراخ « وثم » له بشرط التراخى ... ولكن لأن يتأتى إذا نظمْتَ وألفْتَ رسالة أن تحسن التخير وأن تعرف لكلٍّ من ذلك موضعه » [3] .

فالحسن والمزية متوقفان على النظم ، والنظم متوقف على العلم بمواضع الألفاظ وهذه متوقفة على « حسن التخير » للفظ وموضعه على حد سواء .

والسبب فى كون المزية تتوقف على هذه السلسلة من المتتاليات مرده إلى أثر الكلام فى القلب « لأنه إذا كان النظم سويًا وبالتأليف مستقيما كان وصول المعنى إلى قلبك تلو وصول اللفظ إلى سمعك » [4] .

* *

3 - الأوجه اللغوية التى يرفض الجرجانى الإعجاز بها :

كما رفض الجرجانى الإعجاز بالصرفة رفض كذلك الإعجاز فى المفردات إذ يرى أنه « لا يجوز أن يكون فى الكلم المفردة ، لأن تقدير كونها فيها يؤدى إلى المحال وهو أن تكون الألفاظ المفردة التى هى أوضاع اللغة قد حدث فى حذاقة حروفها وأصدائها أوصاف لم تكن لتكون تلك الأوصاف فيها قبل نزول القرآن وتكون

---

(1) نفسه : ص 192 .   (2) نفسه : ص 299 .
(3) نفسه : ص 193 .
(4) دلائل الإعجاز : ص 210 .

قد احتضنت فى أنفسها بهيئات وصفات يسمعها السامعون عليها إذا كانت متلوّة فى القرآن لا يجدون لها تلك الهيئات والصفات خارج القرآن » [1] .

ورفضه أيضا فى معانى المفردات ؛ لأن ذلك يقتضى أن تكون معانى المفردات قد تجددت وهذا شيء أبعد من المحال كما يقول .

ورفضه فى الجانب الصوتى الناجم عن أوزان مختارة للمفردات إذ لا يجوز فى رأيه أن يكون هذا الوصف فى تركيب الحركات والسكنات حتى كأنهم تُحدُّوا إلى أن يأتوا بكلام تكون كلماته على تواليها فى زنة كلمات القرآن وحتى كأن الذى بان به القرآن من الوصف فى سبيل بينونته بحور الشعر بعضها من بعض » [2] .

ورفض أن يكون الإعجاز فى الموسيقى الخارجية ، وذلك لأن التعويل على ذلك ليس بأكثر من التعويل على مراعاة وزن ، وإنما الفواصل فى الآى - كما يقول - كالقوافى فى الشعر ، وقد اقتدروا على القوافى فكيف لا يقدرون على فصول الكلام [3] .

ورفض أن يكون الإعجاز فى الموسيقى الداخلية بأن لم يلتق فى حرفه ما يثقل على اللسان [4] .

ورفض أن يكون الإعجاز فى التصوير وخصص من أساليب التصوير الاستعارة لأنها أقوى الأساليب التصويرية وأصعبها وأدقها فى الاستعمال ؛ لأن الاستعارة وإن كانت بهذه الخصوصية فإنها ليست عامة فى القرآن ، وقال فى **خلاصة كل ذلك** : « فإذا بطل أن يكون الوصف الذى أعجزهم من القرآن فى شيء مما عددناه لم يبق إلا أن يكون الاستعارة ، ولا يمكن أن تجعل الاستعارة الأصل فى الإعجاز وأن يقصد إليها ، لأن ذلك يؤدى إلى أن يكون الإعجاز فى أى معدودة فى مواضع من السور الطوال مخصوصة » ، « وإذا امتنع ذلك فيها لم يبق إلا أن يكون فى النظم والتأليف لأنه ليس من بعد ما أبطلنا أن يكون فيه إلا النظم ،وإذا ثبت أنه فى النظم والتأليف

---

(1) نفسه : ص 295 - 296 .
(2) نفسه : ص 296 .
(3) نفسه: ص 296 .
(4) نفسه .

وكنا قد علمنا أن ليس النظم شيئا غير توخى معانى النحو وأحكامه فيما بين الكلم ، وأنا إن بقينا الدهر نجهد أفكارنا حتى نعلم للكلم المفردة سلكا ينظمها وجامعا يجمع شملها ويؤلفها ويحمل بعضها بسبب من بعض غير توخى معانى النحو وأحكامه فيها طلبنا ما كل محال دونه » .

ومستخلص كل ذلك أن **الإعجاز محصور فى النظم** : ولكن ما هى خصائص النظم لينال هذه المكانة فى نظرية الجرجانى ؟ .

* *

4 - هيمنة النظم على الأدوات التعبيرية :

إن النظم عند الجرجانى هو السلك الذى ينتظم كل الأدوات التى سبق أن رفض أن يكون الإعجاز بها مفردة ، ومعنى ذلك أن الإعجاز يتم بها مجتمعة فى نظام واحد هو النظام ، ولذلك تحرى المسألة وتساءل : « فإن قيل : قولك إلا النظم يقتضى إخراج ما فى القرآن من الاستعارة وضروب المجاز من جملة ما هو به معجز ، وذلك ما لا مساغ له : قيل ليس الأمر كما ظننت بل ذلك يقتضى دخول الاستعارة ونظائرها فيما هو به معجز ، وذلك لأن هذه المعانى (الأدوات) التى هى الاستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز من بعدها مقتضيات النظم وعنها يحدث وبها يكون لأنه لا يتصور أن يدخل شىء منها فى الكلم وهى لم يتوخ فيما بينها حكم من أحكام النحو ، فلا يتصور أن يكون ههنا فعل أو اسم قد دخلته الاستعارة من دون أن يكون قد أُلف مع غيره » [1] .

ومعنى ذلك أنه حينما حصر سر الإعجاز القرآنى فى النظم فإنه لم يلغ بقية الأدوات التى كان من سبقه مثل الرمانى والخطابى والباقلانى يعدونها من أسباب الإعجاز ، وإنما رفض أن تكون هى بنفسها مفردة قادرة على بيان وجه الإعجاز لأسباب بينها عند الحديث عن كل أداة على حدة كما رأينا ، لأنها لا تملك فى رأيه القدرة على أن تشمل القرآن كله ، بينما النظم الذى هو توخى معانى النحو فى معانى الكلم يملك - فى نظره - ذلك ، ويملك أن يهيمن على تلك الأدوات كلها ، ولكى

---

(1) نفسه : ص 300 - 301 .

يبين ذلك ضرب مثالا باستعارة اعتمدها جل باحثى الإعجاز دليلاً على الإعجاز بالاستعارة هى قوله تعالى : ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ (1) ، فقد أوردها الرمانى ضمن آيات فى باب الاستعارة وعلق عليها بقوله : « أصل الاشتعال للنار وهو فى هذا الموضع أبلغ وحقيقته كثرة شيب الرأس ، إلا أن الكثرة لما كانت تتزايد تزايدا سريعا صارت فى الانتشار والإسراع كاشتعال النار ، وله موقع فى البلاغة عجيب وذلك أنه انتشر فى الرأس انتشارا لا يتلافى كاشتعال النار » (2) وأوردها الباقلانى ضمن ما يعجز من بديع القرآن (3) ، ولكن عند النظر نجد أنهما لم يستطيعا البرهنة على الإعجاز ، وإنما اكتفيا وحسب بالإشارة إلى أنها من الأدلة على الإعجاز البلاغى فى القرآن ، وهم يعلمون أن فى كلام العـرب استـعارات جيدة ولكن لا أحد يعدها معجزة .

أما عبد القاهر الجرجانى فيقـول : « أفلا ترى أنه قدر فى اشتعل من قوله تعالى : ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ أن لا يكون الرأس فاعلا له ويكون شيبا منصوبا عنه على التمييز لم يتصور أن يكون مستعارا ، وهكذا السبيل فى نظائر الاستعارة فاعرف ذلك » (4) .

فالجرجانى لا يعد الاستعارة معجزة إلا فى سياق النظم ، الذى يتحكم فيه النحو بصفة مطلقة ، ويبين ذلك فى موضع آخر بقوله : « يبين أن الشرف كان لأن سلك فيه هذا المسلك وتوخى به هذا المذهب أن تدع هذا الطريق فيه ، وتأخذ اللفظ فتسنده إلى الشيب صريحا فتقول : اشتعل شيب الرأس والشيب فى الرأس ثم تنظر : هل تجد ذلك الحسن وتلك الفخامة ؟ وهل ترى الروعة التى كنت تراها ؟ فإن قلت ما السبب فى أن كان (اشتعل) إذا استعير للشيب على هذا الوجه كان له الفضل ، ولِمَ بَانَ بالمزية من الوجه الآخر هذه البينونة ؟ فإن السبب أنه يفيد مع لمعان الشيب فى الرأس الذى هو أصل المعنى الشمول وأنه قد شاع فيه ، وأخذه من نواحيه ، وأنه

---

(1) مريم : 4 .

(2) الرمانى : النكت فى إعجاز القرآن ص 88 .

(3) الباقلانى : إعجاز القرآن ص 60 - 66 .

(4) دلائل الإعجاز : ص 301 .

قد استقر به وعم جملته حتى لم يبق من السواد شىءٌ أو لم يبق منه إلا ما لا يعتد به وهذا ما لا يكون إذا قيل : اشتـعل شيب الرأس أو الشيب فى الرأس ، بل لا يوجد اللفظ حينئذ أكثر من ظهوره فيه على الجملة » [1] .

وهكذا يتضح لنا أن الجرجانى قد ذهب مذهبا جديدا فى البرهنة على سر الإعجاز القرآنى كان القدماء يكتفون فيه بذكر المصطلح دون أن يغوصوا فى مدلوله تدقيقا وتمحيصا ليشفوا الغليل ، فالاستعارة عند الجرجانى تحقق الإعجاز ولكن فى سياق النظم لأن القرآن على كل حال كما يقول : « إنما كان قرآنا وكلام الله عز وجل بالنظم الذى هو عليه » [2] .

وما يقال عن الاستعارة يقال على كل جزئية من الجزئيات التى ذهب الظن بالقدماء إلى حصول الإعجاز بها مفردة بما فى ذلك الجناس والطباق والتشبيه وغيره ، فكلها لا تصلح للبرهنة على الإعـجاز إلا فى سياق النظم ، وإذا كان سابقوه قد قالوا : « إن الفصاحة لا تظهر فى أفراد الكلمات وإنما تظهر بالضم على طريقة مخصوصة » فإن قولهم ذلك دليل على أن الفصاحة لا تتحقق : « إلا أن يكون المعنى فى ضم الكلمة إلى الكلمة توخى معنى من معانى النحو فيما بينهما ، وقولهم على طريقة مخصوصة يوجب ذلك » [3] .

وكذلك الحال فى قولهم : « إن المعانى لا تتزايد وإنما تتزايد الألفاظ » لأن معنى هذا الكلام يبين أن « تزايد الألفاظ عبارة عن المزايا التى تحدث من توخى معانى النحو وأحكامه فيما بين الكلم لأن التزايد فى الألفاظ من حيث هى ألفاظ ونطق لسان محال » [4] .

والأمر يتكرر فى توظيف الألفاظ ، بحيث : « لا توجب الفصاحة للفظة مقطوعة مرفوعة من الكلام الذى هى فيه ، ولكنا نوجبها لها موصولة بغيرها ومعلقا معناها بمعنى ما يليها ، فإذا قلنا فى لفظة اشتعل من قوله تعالى : ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ

---

(1) دلائل الإعجاز : ص 80 .
(2) نفسه : ص 398 .
(3) نفسه : ص 301 .
(4) نفسه : ص 302 .

شَيْبًا ﴾ أنها فى أعلى المرتبة من الفصاحة ، لم نوجب تلك الفصاحة لها وحدها ولكن موصولا بها الرأس معرفا بالألـــف واللام ومقـــرونا إليهما الشيب منكرا منصوباً » [1] ، والدليل على ذلك أنه لو كانت « الفصاحة صفة للفظة اشتعل لكان ينبغى أن يحسها القارىء فيه حال نطقه به فمحال أن تكون للشىء صفة ثم لا يصح العلم بتلك الصفة إلا من بعد عدمـــه ... ذلك لأنه لا يتصـــور أن تدخل الحروف بجملتها فى النطق دفعة واحدة حتى تجعل الفصاحة موجودة فيها فى حال وجودها » [2] .

وهو نفسه فى توظيف الجناس ، إذ أن الجمال فى تجنيس الألفاظ يقوم على دخوله فى النظم ، لأنه هو الذى يحقق ارتباطه بسابقه ولاحقه ، لذا يقرر : « واعلم أنّا لا نأبى أن تكون مذاقة الحروف وسلامتها مما يثقل على اللسان داخلا فيما يوجب الفضيلة وأن تكون مما يؤكد أمر الإعجاز ، وإنما الذى ننكره وننفيه رأى من يذهب إلي أن يجعله معجزا به وحده ويجعله الأصل والعمدة فيخرج إلى ما ذكرنا من الشناعات » [3] .

فالطاقة الصوتية مما يعين على تحقيق الإعجاز حينما ترتبط بغيرها من الطاقات المعنوية ،ولكن لا يمكن أن تحقق ذلك بنفسها بعيداً عن النظم والترتيب الذى يتحكم فى كل ذلك ويستدل على ذلك بالسجع ، إذا أن « ما يعطى التجنيس من الفضيلة أمر لم يتم إلا بنصرة المعنى ، إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن ولما وجد فيه إلا معحبب مستهجن » [4] ، ويقول : « إنك لا تجد تجنيسا مقبولا ولا سجعا حسنا حتى يكون المعنى هو الذى طلبه واستدعاه وساق نحوه وحتى تجده لا تبتغى به بدلا ولا تجد عنه حولاً » [5] .

من كل ذلك تبين أن الجرجانى يرى أن النظم هو الطريق لبيان الإعجاز لأنه

---

(1) دلائل الإعجاز : ص 309 .
(2) دلائل الإعجاز : ص 312 - 313 .
(3) نفسه : ص 401 .
(4) أسرار البلاغة : ص 8 .
(5) نفسه : ص 10 .

يملك الهيمنة على الأدوات التعبيرية كلها سواء ما يتعلق منها بعلم البيان كالتشبيه والاستعارة والكناية ، أو ما يتعلق بعلم المعانى كالتقديم والتأخير باعتبار الإسناد والحذف والذكر والفصل والوصل والقصر والاختصاص ، أو ما يتعلق بعلم البديع كالجناس والطباق والمقابلة والسجع ،وكل ذلك يهيمن عليه بواسطة علم النحو الذى يرى فيه العلم الذى يملك قدرة الربط والتنسيق وتعلق بعض الكلام ببعض .

ولكن بقيت مسألة لابد من طرحها لبساط المناقشـــة ، وهى علاقة النظم بالمعنى ، فلابد أن نعرض لهذه القضية لنعرف ما إذا كانت نظرية النظم تملك الإجابة الكافية والشافية .

* *

5 - النظم والمعنى :

لا شك أن عبد القاهر الجرجانى كان يرى أن اللفظ خدم للمعنى [1] ؛ ولكن للمعنى عنده عدة مستويات ؛ فهناك المعانى النحوية ، ومعانى الألفاظ ، والفكر ، والأغراض ، ومعنى المعنى ، والمعنى الغفل .

إن الجرجانى يصر على أن تحليل مسألة علاقة اللغة بالفكر ينبغى أن تعالج على أساس المتكلم أى المرسل ، لا على أساس السامع أى المتلقى ، فيقول : « إنك ترى أحدهم يعتبر حال السامع ، فإذا رأي المعانى لا تترتب فى نفسه إلا بترتب الألفاظ فى سمعه ظن عند ذلك أن المعانى تبع للألفاظ ، وأن الترتيب فيها مكتسب من الألفاظ ومن ترتبها في نطق المتكلم ، وهذا ظن فاسد ممن يظنه ، فإن الاعتبار ينبغى أن يكون بحال الواضع للكلام والمؤلف له ، والواجب أن ينظر إلى حال المعانى معه لا مع السامع ، وإذا نظرنا علمنا ضرورة أنه محال أن يكون الترتيب فيها تبعا لترتيب الألفاظ مكتسبا عنه لأن ذلك يقتضى أن تكون الألفاظ سابقة للمعانى وأن تقع فى نفس الإنسان أولا ثم تقع المعانى من بعدها وتالية لها بالعكس مما يعلمه كل عاقل إذا هو لم يؤخذ عن نفسه ، ولم يضرب حجابا بينه وبين عقله ، وليت شعرى هل كانت الألفاظ إلا من أجل المعانى ؟ وهل هى إلا خدم ومصرفة على حكمها ؟ » [2] .

---

(1) أسرار البلاغة .

(2) دلائل الإعجاز : ص 319 - 320 .

ومعنى ذلك أن الجرجانى يقلل من قيمة نظرية التلقى ، وهى مسألة خطيرة عند التأمل خاصة حينما نفكر فى علاقة النظم بمسألة الإعجاز القرآنى ، إذ أن التأثير والهداية يقومان إلى حد كبير على السامع ، ودليل ذلك أن الله يخاطب الرسول ﷺ قائلا : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى الْقُبُورِ ﴾ (1) .

والحال أن العملية الكلامية غرضها تبليغ الرسالة ، والرسالة شركة بين الملقى والمتلقى ، فالملقى لابد أن يكون كلامه بليغاً ﴿ وَقُل لَّهُمْ فِى أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا ﴾(2) والمتلقى يلزمه القدرة على السماع والفهم ، فإن فقدهما حسا أو معنى فقد القدرة على الاستجابة ، ولهذا يقول الله تعالى : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ (3)

وعلى الجملة فإن علاقة اللفظ بالمعنى في علاقة محكمة : « هذا وأمر النظم فى أنه ليس شيئا غير توخى معانى النحو فيما بين الكلم وأنك ترتب المعانى أولا فى نفسك ثم تحذو على ترتيبها الألفاظ فى نطقك ، وأنا لو فرضنا أن تخلو الألفاظ من المعانى لم يتصور أن يجب فيها مضمون وترتيب فى غاية القوة والظهور » (4) .

على أن هناك فرقا بين المعنى والغرض فى علاقتهما بالنظم ، إذ أن المعانى عند الجرجانى تتغير بتغير الأبنية أما الأغراض فقد تكون واحدة مع تغير النظم المعبر عنها ، ذلك لأن « صور المعانى لا تتغير بنقلها من لفظ إلى لفظ حتى يكون هناك اتساع ومجاز وحتى لا يراد من الألفاظ ظواهر ما وضعت له فى اللغة ،ولكن يشار بمعانيها إلى معانى أخرى ، واعلم أن هذا كله ما دام النظم واحدا فأما إذا تغير النظم فلا بد حينئذ من أن يتغير المعنى على ما مضى من البيان فى مسائل التقديم والتأخير ، وعلى ما رأيت فى المسألة التى مضت الآن ، أعنى قولك : إن زيدا كالأسد وكأن زيدا الأسد ذلك لأنه لم يتغير من اللفظ شىء وإنما تغير النظم فقط » (5) .

على أن تغير المعانى لا يعنى دائما تغير الغرض جذريا ، فقد يبقى الغرض مع تغير المعنى إذ « لا يكون لإحدى العبارتين مزية على الأخرى حتى يكون لها فى المعنى تأثير لا يكون لصاحبتها ، فإن قلت : فإذا أفادت هذه ما لا تفيده تلك فليستا عبارتين

---

(1) فاطر : 22 . (2) النساء : 63 . (3) الأعراف : 179 .
(4) دلائل الإعجاز : ص 349 . (5) نفسه : ص 204 - 205 .

عن معنى واحد بل هما عبارتان عن معنيين : قيل لك إن قولنا « المعنى » فى مثل هذا يراد به الغرض والذى أراد المتكلم أن يثبته أو ينفيه نحو أن تقصد تشبيه الرجل بالأسد فتقول : زيد كالأسد ، ثم تريد هذا المعنى بعينه فتقول : كأن زيدا الأسد ، فتفيد تشبيهه أيضا بالأسد إلا أنك تزيد فى معنى تشبيهه به زيادة لم تكن فى الأول »[1] .

ولا شك أن زيادة المعنى كانت بسبب النظم الجديد الذى عبر به عن الغرض العام ولكن مع ذلك فإن الجرجانى يذكر فى موضع آخر ما يفيد أن للغرض والمقصد دورا كبيراً فى توجيه العبارة ، ويؤكد ذلك قوله : « ثم اعلم أن ليست المزية بواجبة لها - أي للمعانى النحوية - فى أنفسها ، ومن حيث هى على الإطلاق ولكن تعرض بسبب المعانى والأغراض التى يوضع لها الكلام ثم بحسب موقع بعضها من بعض واستعمال بعضها مع بعض »[2] .

غير أن المعنى لا ينتهى عند مجرد المزية والزيادة والثراء فحسب ، وإنما قد يصل إلى درجة أعمق حينما يعبر المعنى على المعنى بواسطة تقنيات فى النظم ، ومن ثم كان « الكلام على ضربين : ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده .. وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن يدل اللفظ على معناه الذى يقتضيه موضوعه فى اللغة ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض ، ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل ... وإذ قد عرفت هذه الجملة فهاهنا عبارة مختصرة ، وهى أن تقول المعنى ومعنى المعنى ، تعنى بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذى تصل إليه بغير واسطة وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضى بك ذلك المعنى إلى معنى آخر كالذى فسرت لك »[3] .

والسبب فى أن تذهب البلاغة هذا المذهب الذى يعبر فيه المعنى على المعنى بدل تعبير اللفظ عليه مباشرة هو ثراء المعنى لأن « المتكلم يتوصل بدلالة المعنى على المعنى إلى فوائد لو أنه أراد الدلالة عليها لاحتاج إلى لفظ كثير »[4] .

---

(1) نفسه : ص 199 . (2) نفسه : ص 69 .
(3) دلائل الإعجاز : ص 202 - 203 .
(4) نفسه : ص 357 .

وجملة القول : إن لعبد القاهر الجرجانى الفضل الكبير فى تعميق النظر فى مسألة الإعجاز القرآنى لدرجة يمكن القول بأنها لا تزال فريدة من نوعها إلى يومنا هذا حتى بعد ظهور كتاب إعجاز القرآن للرافعى وكتاب التصوير الفنى فى القرآن لسيد قطب ، غير أن أى طرح يبقى مرهونا بمعارف العصر حتى عند العباقرة ، وذلك عذر كبير للجرجانى فى أن يقف عند مستوى تحليل جمال العبارة متجنبًا الحديث عن النص ولا سيما السورة القرآنية الكاملة .

ولعل النص الوحيد الذى تناوله كاملا هو سورة الفاتحة ، إذ جعلها مثالا لكون فصاحة النظم معنوية ، ولم يتعد فى تحليلها مستوى الحديث عن العلاقات النحوية كقوله : « وجملة الأمر أن النظم إنما هو أن الحمد من قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ مبتدأ ولله خبر ورب صفة لاسم الله تعالى ومضاف إلى العالمين والعالمين مضاف إليه ، والرحمن الرحيم صفتان كالرب . . . » [1] .

ولهذا السبب يبقى البحث فى الإعجاز القرآنى مطروحا على مستوى النص بكل خصائص النص ومواصفاته ، بدءًا من الوحدة العضوية للنص إلى تشابك النصوص فى السورة إلى وحدة النغم وتغيره بتغير الغرض والمقاصد وما إلى ذلك .

حقًا إن الجرجانى قد تحدث عن الوحدة وتلاحم الأجزاء الكلامية وارتباطها وشبه ذلك بالبنيان [2] ، ولكن حديثه فى ذلك كان يقصد ترابط الكلمات فى إطار الإسناد وفى أحسن الأحوال يصل إلى مسألة الفصل والوصل فى العلاقات بين الجمل .

* *

ثانيا : الإعجاز بالفصاحة :

رأينا فى الحديث عن نظرية النظم عند الجرجانى أنه لم ينكر أن يكون القرآن معجزا بفصاحته ، ولكن ينكر أن تكون هى الأساس فى الإعجاز ، ورأينا أن هذا الرأى نتيجة طبيعية للمنطلق الذى انطلق منه فى تحقيق البحث فى مسألة الإعجاز .

---

(1) نفسه : ص 347 .

(2) دلائل الإعجاز : ص 70 ، 73 ، 75 .

والآن نريد أن نبين ملامح نظرية أخرى ظهرت كفكرة فى فترة مبكرة على يد الرمانى ثم استوت كنظرية لها ملامح متميزة على يد عالم له قدره فى مجال الصوتيات هو ابن سنان الخفاجى (– 466 هـ) الذى ألف كتابه « سر الفصاحة » لهذا الغرض إذ قال : « المعجز الدال على نبوة محمد نبينا صلى الله عليه وعلى آله وسلم هو القرآن ، والخلاف الظاهر فيما به كان معجزا على قولين أحدهما أنه خرق العادة بفصاحته ، وجرى فى ذلك مجرى قلب العصا حية ، وليس للذاهب إلى هذا المذهب مندوحة عن بيان ما للفصاحة التى وقع التزايد فيها موقعا خرج عن مقدور البشر ، والقول الثانى أن وجه الإعجاز فى القرآن صرف العرب عن المعارضة مع أن فصاحة القرآن كانت فى مقدورهم لولا الصرف » (1) .

ويمكن لقارىء هذا النص أن يفهم منه أن القصد ربما هو البلاغة ، على اعتبار أن القدماء يجعلون أحد المصطلحين مرادفا للآخر ، ولكن ذلك يمكن لو لم يكن ابن سنان الخفاجى قد فرق صراحة بين المصطلحين بقوله :« والفرق بين الفصاحة والبلاغة مقصورة على وصف الألفاظ ، والبلاغة لا تكون إلا وصفا للألفاظ مع المعانى » (2) .

وقوله هذا يبين أنه يريد أن يبرهن على وجه من وجوه الإعجاز بنظرية تختلف عن نظرية النظم التى عنى بها معاصره عبد القاهر الجرجانى ، هذه النظرية هى نظرية الفصاحة ، وتقوم أساسا على القيمة الصوتية للنص القرآنى ، وكون النظرية ذات بعد صوتى فإن ابن سنان قد مهد للطرح بفصل فى الصوتيات ، ثم شرع فى بيان القيم الصوتية فى الألفاظ والتراكيب ، ولكن هذا البحث كان قد تحول – نتيجة افتقاره إلى نماذج تطبيقية من القرآن – إلى بحث فى الصوتيات بدلا من التركيز على البنية الصوتية للقرآن ، وربما لو فصَل الحديث فى مقولة الرمانى : « والمتلائم فى الطبقة العليا القرآن كله ، وذلك بين لمن تأمله ... والسبب فى التلاؤم تعديل الحروف فى التأليف ، فكلما كان أعدل كان أشد تلاؤما ... ، والفائدة فى التلاؤم

---

(1) ابن سنان الخفاجي : سر الفصاحة ص 14 دار الكتب العلمية – بيروت .
(2) سر الفصاحة : ص 59 .

حسن الكلام فى السمع وسهولته فى اللفظ وتقبل المعنى له فى النفس لما يرد عليها من حسن الصورة وطريق الدلالة » [1] .

وقد ذهب هذا المذهب نفسه حازم القرطاجنى غير أنه جمع بين البلاغة والفصاحة ، إذ كان يرى فى كتابه منهاج البلغاء وسراج الأدباء :« أن الإعجاز فيه من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحائها فى جميعها استمراراً لا توجد له فترة ولا يقدر عليه أحد من البشر » [2] .

وفى العصر الحديث اهتم بالإعجاز الصوتى ، وهو أساس الفصاحة ، الرافعى اهتماما بالغا جعله يقول :« ولولا أن القرآن الكريم قد ملك سر هذه الفصاحة ، وجاءهم منها بما لا قبل لهم برده ، ولا حيلة لهم معه ، مما يشبه على التمام أساليب الاستهواء فى علم النفس ... لما صار أمر القرآن إلى أكثر مما ينتهى إليه أمر كل كتاب فى الأرض ؛ بل لما كان له فى أولئك العرب أمر البتة ؛ لأنهم قوم أميون ... فلو أن هذا القرآن غير فصيح ، أو كانت فصاحته غير معجزة فى أساليبها التى ألقيت إليهم ، لما نال منهم على الدهر منالا [3] .

لقد اهتم الرافعى بالطاقة الصوتية فى القرآن فجعلها سببا أساسيا فى ظاهرة الإعجاز خاصة بالنسبة للعرب ، إذ « لما قُرىء عليهـــم القرآن ، رأوا حروفه فى كلماته ، وكلماته فى جمله ألحانا لغوية رائعة ، كأنـــها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة ، قراءتها من توقيعها ، فلم يفتهم هذا المعنى ، وأنه أمر لا قبل لهم به ، وكان ذلك أبين فى عجزهم [4] .

إن الرافعى يصر على أن الإعجاز يكمن فى الطاقة الصوتية ولهذا السبب تراه يستخدم المصطلحات ذات الدلالة الموسيقية مثل الألحان والتوقيع ، بل إنه لم يتردد فى استخدام مصطلح الموسيقى بلفظه حين يقول :

« وحسبك بهذا اعتبارا فى إعجاز **النظم الموسيقى فى القرآن** ، وأنه مما لا يتعلق

---

(1) الرمانى : النكت في إعجاز القرآن : ص 96 .
(2) البرهان في علوم القرآن : 2 / 101 .
(3) الرافعي : تاريخ آداب العرب : 2 / 159 - 160 .
(4) نفسه : ص 214 .

به أحد ، ولا يتفق على ذلك الوجه الذى هو فيه إلا فيه ، لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها ومخارجها ، ومناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية فى الهمس والجهر ، والشدة والرخاوة ، والتفخيم والترقيق ، والتفشى والتكرير ، وغير ذلك مما أوضحنا فى صفات الحروف » (1) .

إن الرافعى يحدثنا عن نمط من النظم غير الذى حدثنا عنه الجرجانى ، إنه النظم القائم على الطاقة الصوتية لا الذى يقوم علـــى الطاقة النحوية كما الحال عند الجرجانى ، ومعنى ذلك أن سر الإعجاز عنده يختلف عن سره عند الجرجانى ، ولذلك تراه ما فتىء يعلل للقضية بترتيب الحروف بدلا من ترتيب الكلمات .

والحديث عن مسألة الترتيب يحتم الحديث عن أسبابه ، إذ نجد كلاً منهما يجعل الانفعال النفسى أصلا فى الترتيب ، لكن فى الوقت الذى يجعله الجرجانى أصلا فى ترتيب المعانى النحوية ، نجد الرافعى يجعله أصلا فى ترتيب الأصوات والحروف ، لذلك قال :« وليس يخفى أن مادة الصوت هى مظهر **الانفعال النفسى** ، وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب فى **تنويع الصوت** ، بما يخـــرجه فيه مدًّا أو غنة أو لينا أو شدة ، وبما يهيىء له من الحركات المختلفة فى اضطرابه وتتابعه على مقادير **تناسب ما فى النفس من أصولها** ، ثم هو يجعل الصوت إلى الإيجاز والاجتماع أو الإطناب والبسط بمقدار ما يكسبه من الحدوة والارتفاع والاهتزاز وبعد المدى ونحوها ، مما هو **بلاغة الصوت** فى لغة الموسيقى » (2) .

وهكذا نجد البلاغة عند الرافعى تقوم على الصوت ، فى حين قد رأيناها عند الجرجانى تقوم على النحو ، ولكن هذا لا يعنى أنه يهمل دور الطاقة الصوتية فى الإعجاز القرآنى ، إذ يقول :« واعلم أنا لا نأبى أن تكون مذاقة الحروف وسلامتها مما يثقل على اللسان داخلا فيما يوجب الفضيلة ، وأن تكون مما يؤكد أمر الإعجاز ، وإنما الذى ننكره ونفنيه رأى من يذهب إليه أن يجعله معجزا به وحده ويجعله الأصل والعمدة » (3) .

---

(1) نفسه : ص 215 .
(2) نفسه : ص 216 .
(3) دلائل الإعجاز : ص 401 .

والحق أن الرافعى فى تركيزه على الفصاحة أو ما يسميه النظم الصوتى يتجاوز الحدود اللغوية إلى التأثير الموسيقى فيعلل به تأثير القرآن فى غير فاهم معناه من العجـم ، فيقول : « وهذه هى طريقة الاستهواء الصوتى فى اللغة ، وأثرها طبيعى فى كل نفس تفهمه ، وكل نفس لا تفهمه ، ثم لا يجد من النفوس على أى حال إلا الإقرار والاستجابة ، ولو نزل القرآن بغيرها لكان ضربا من الكلام البليغ الذى يطمع فيه أو فى أكثره ، ولما وجد فيه أثر يتعدى أهل هذه اللغة العربية إلى أهل اللغات الأخرى ، ولكنه انفرد بهذا الوجه للعجز ، فتألفت كلماته من حروف لو سقط واحد منها أو أبدل بغيره أو أقحم معه حرف آخر لكان ذلك خللا بينا أو ضعفا ظاهرا فى نسق الوزن وجرس النغمة ، وفى حس السمع وذوق اللسان ، وفى انسجام العبارة وبراعة المخرج » (1) .

والذى ينبغى أن نصل إليه هو أن القرآن معجز بنظميه : الصوتى والنحوى ، فهو معجز بفصاحته ، كما هو معجز بترتيبه النحوى ، وأن التفكير فى مجرد التقليل من قيمة أحدهما هو فى الحقيقة تقليل من قيمة الآخر ، وعلى هذا الأسـاس كان أبو حامد الغزالى يرى أن القرآن كله جواهر غير أنه يفرق بين جواهر الظاهر وجواهر الباطن ، ويعد الجانب الصوتى هو الذى يمثل الصدف الخارجى ، فيقول :« صدف القرآن ووجهه البرانى الخارج هو الصوت ، والذى يتولى علم تصحيح مخارجه فى الأداء والتصويت صاحب علم الحروف » (2) ، وربما كان ذلك سر قول الرسول صلى الله عليه وسلم :« **ليس منا من لم يتغن بالقرآن** » .

* *

ثالثاً : صور التقديم والتأخير :

التقديم والتأخير ظاهرة تسترعى الانتباه فى القرآن ؛ إذ هى تخلو من الاعتباط تماما ، على الرغم من أنها تتجلى فى مظاهر متعددة ؛ منها ما يتخلل الجمل التى تقوم علاقة ترابطها على عطف النسق ، ومنها ما يتخـلل جملا تقوم علاقاتها على الإسناد ، ومنها ما تتخلل نصوصا أو قصصا تقوم علاقتها على الترابط المنطقى ، وقد

(1) الرافعى : تاريخ آداب العرب : ص 217
(2) جواهر القرآن : ص 36

انتبه العلماء إلى ذلك ، وأشاروا إليها ، ولكن كانت إشارات موزعة تحتاج إلى رابط منهجي يحكم وحدتها ، وعلى سبيل المثال نذكر وقفات القدماء عند التقديم والتأخير فى الألفاظ والتراكيب ، ونذكر وقفة المحدثين عند النصوص والقصص ، فقد ذكر مثلا الشيخ محمود شلتوت الحكمة فى مخالفة الترتيب الواقعى للحوادث ، وبين أننا « قد عرفنا من سنن القرآن فى ذكر القصص والوقائع أنه لا يعرض لها مرتبة حسب وقوعها ، وذلك لأنه لا يذكرها على أنها تاريخ يعين لها الوقت والمكان ، وإنما يذكرها لما فيها من العبر والمواعظ وما تتطلبه من الأحكام والحكم »[1] وسنفصل الحديث فى كل ذلك على الترتيب ، فنتحدث عن التقديم والتأخير فى الألفاظ والتراكيب ، ونتحدث عن التقديم والتأخير فى النصوص والأحداث والقصص وما نسميه الترتيب المنطقى وسنبين أنه يخضع دائماً لقانون ثابت هو **جاذبية قوة الأسباب** :

1 - التقديم والتأخير فى الألفاظ والتراكيب :

للتقديم والتأخير أهمية أكيدة فى التمـــكين للمعانى فى النفوس ، ولضبط الدلالة ، وللحرص على جمال العبارة ، ولهذا قال الجرجانى : « هو باب كثير الفوائد ، جم المحاسن واسع التصرف بعيد الغاية لا يزال يفتر لك عن بديعه ويفضى بك إلى لطيفه ، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه ، ويلطف لديك موقعه ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أنه قدم فيه شئ ، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان ، واعلم أن تقديم الشئ على وجهين : تقديم يقال إنه على نية التأخير ، وذلك فى كل شئ أقررته مع التقديم على حكمه الذى كان عليه وفى جنسه الذى كان فيه كخبر المبتدأ إذا قدمته على المبتدأ . . .

وتقديم لا على نية التأخير ، ولكن على أن تنقل الشئ عن حكم إلى حكم وتجعله بابا غير بابه وإعرابا غير إعرابه ، وذلك أن تجىء إلى اسمين يحتمل كل واحد منهما أن يكون مبتدأ ويكون الآخر خبرا له فتقدم تارة هذا على ذاك وأخرى ذاك على هذا »[2] .

---

(1) تفسير القرآن : ص 535 .

(2) دلائل الإعجاز : ص 83 .

فالتقديم والتأخير له أهميته الأكيدة فى بيان أسرار تفاوت الأساليب حتى تصل إلى الإعجاز ، ولكن الصيغ التى يتم على أساسها إخراج العبارات تختلف فى هذا المجال ، فهناك تقديم يقع لغرض التغيير فى المعنى النحوى ، كتقديم المفعول على الفاعل والخبر على المبتدأ وهذا كثير ، وهناك تقديم لا يقع به تغيير فى المعانى النحوية ، وإنما يكون لأغراض يقتضيها الحال دون أن يكون لذلك أثر على المعانى النحوية ومثاله عطف النسق ولا سيما بالواو .

ولهذا السبب ارتأيت أن أفرق فى بيان إعجاز القرآن من جهة البلاغة بين هذين الخطين من أساليب التقديم والتأخير ، وسأعد أحدهما مما يقع تقديمه وتأخيره فى الألفاظ ، وثانيهما مما يقع التقديم والتأخير فيه من جهة التراكيب .

ولكن من المهم جدا أن نشير إلى أن الترتيب فى هذه المسألة سواء بالوجه الأول الذى يتحكم فيه النسق كما فى قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا * لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴾ (1) - إذ قدم الأنعام على الأناسى لأن صلاحها سبب لصلاح حال العباد (2) ، أو بالوجه الثانى الذى يتحكم فيه الإسناد كما فى قوله : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (3) إذ قدم الخبر على المبتدأ لإفادة الاختصاص (4) ، فإنه - أى الترتيب - يقع دائماً حسب **قوة الأسباب** ، فقد « يجتمع فى شئ واحد عدة منها فيكون تقديمه أولى ، وإذا تعارضت أسباب روعى أقواها وإن تساوت كان المتكلم بالخيار فى تقديم أى الأمرين معا » (5) ، فالتقديم والتأخير سواء بالاعتماد على النسق أو على الإسناد أو حتى على المنطق والواقع ، فإنه يخضع دائماً لقاعدة « **قوة الأسباب وتعارضها** » هذه كما سيتبين من النماذج التالية :

* *

---

(1) الفرقان : 48 - 49 .

(2) ابن القيم : الفوائد المشوق إلى علوم القرآن ص 84 .

(3) آل عمران : 20 .

(4) الجرجانى : الدلائل .

(5) ابن القيم : الفوائد المشوق . . . ص 85 .

1/1 - التقديم والتأخير فى الألفاظ عن طريق عطف النسق :

فى مثل هذا النمط من أساليب التقديم والتأخير يختفى كون التقديم لأهمية المقدم أو للعناية به من حيث هو فاعل للفعل أو من حيث هو مفعول أو خبر لمبتدأ أو ما أشبه ذلك ، ويتجلى أمر آخر هو نوع من الاهتمام والعناية لا يقوم على المعانى النحوية ، وإنما يقوم على أسباب أخرى ؛ كالأسبقية فى الوجود والقدم ، أو الأسبقية فى الوظيفة التى ينهض بها مدلول اللفظ الموظف فى مجال الواقع ، أو ما أشبه ذلك ..

(أ) تداول التقديم والتأخير بين كلمتى الجن والإنس :

وأول مثال لذلك قول الله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ ﴾[1] ، وقوله ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا ، لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ ﴾[2] .

ففى الآية الأولى قدم ذكر « الإنس » وفى الثانية قدم ذكر « الجن » وعند تأمل ذلك نجد أن الأمر فى أسلوب القرآن مختلف تمام الاختلاف عن الأساليب البشرية ، فتقديم ما قدم خال من الاعتباط والعشوائية ، وإنما يقوم على العلم الدقيق بما يقتضيه الواقع الذى كانت عليه حال الحدث الذى هو موضوع التعبير ، ففى الآية الأولى قدم « الإنس » على « الجن » لكون موضوع الحديث مناسبا لذلك ، فالموضوع هو بيان أعداء الأنبياء وكيف يوحى بعض الأعداء لبعض طرائق الغواية ، ومن البين أن شياطين الإنس أكثر تعرضا لأهل الحق من شياطين الجن ، يقول مالك بن دينار :

« إن شياطين الإنس أشد عليَّ من شياطين الجن ، لأنى إذا تعوذت بالله ذهب شيطان الجن عنى وشيطان الإنس يجيئنى فيجرنى إلى المعاصى عيانا[3] ، وذكر القرطبى أن أبا ذر الغفارى قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا ذر هل

---

(1) الأنعام : 112 . (2) الرحمن : 33 .

(3) الكشاف : 2 / 45 والقرطبى : الجامع 7 / 68 .

تعوذت بالله من شر شياطين الإنس والجن ، قال قلت : يا رسول الله وهل للإنس من شياطين ؟ قال : نعم هم شر من شياطين الجن [1] .

« فتقديم الإنس على الجن هنا لم يأت عفوا لأن الأنبياء أرسلوا إلى الإنس وهم من الإنس ، ولأجل ذلك فإن المصادمة المباشرة والمرئية هى مع الإنس فهنا سببان الأول هو الاتصال والجنسية والثانى المصادمة المباشرة [2] .

وفى الآية الثانية عكست المسألة فقدم ذكر الجن على ذكر الإنس ، وعند تأمل المعنى نجد أن السر يكمن فى درجة العلم المحكم الذى يمكن أحد الطرفين من النفاذ فى السماء والخروج من الأرض ، ومن المعلوم أن علم الجن فى هذا المجال أوثق من علم الإنس ، ومن ثم قدم الذى هو أعلم وهو « الجن » لأنه أقدر من « الإنس » قال ابن عباس : « إن استطعتم أن تعلموا ما فى السموات وما فى الأرض فاعلموه ، ولن تعلموه إلا بسلطان أى بينة من الله تعالى [3] » ، وقد نعلم أن الله سبحانه وتعالى قد قال فى سورة أخرى : ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ، وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ [4]، ويبدو من النص أن علم الإنس أقوى من علم الجن ، والواقع أن الأمر ليس كذلك فى كل حال ؛ لأن المقصود هنا سيدنا سليمان إذ جاء قبل ذلك قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ، وَقَالاَ الحَمْدُ للهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ المؤْمِنِينَ ﴾ [5] ، فاتضح أن علم هذين حالة خاصة هى حالة علم النبوة ، ولذلك استطاع سليمان عليه السلام أو من كان يعلم من ذلك النوع النبوى أن يتحدى الجن ، أما فى الحالات العادية فالجن أقوى ، ولهذا تراه فى السورة نفسها ، وفى المجال نفسه يقدم الجن على الإنس ويقدم الإنس على الطير ،فقال: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾[6] . ونظرا لكثرة الآيات التى هى من هذا السبيل يحسن بنا أن نعرضها فى هذا الجدول :

(1) الجامع لأحكام القرآن : 7 / 68 •

(2) محمد فرحات : الإعجاز في القرآن مجلة ، الجذور ، العدد الثالث ص 95 سنة 1991 •

(3) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن : 17 / 170 •

(4) النمل : 39 - 40 • (5) النمل : 15 • (6) النمل : 17

الآيات	اللفظ المقدم	السبب ومقتضى الحال
1 - قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ .	الإنس	لأن الإرسال هنا للإنسان أولا ، ولأن التحدى البلاغى موجه له بصورة أساسية .
2 - فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ .	إنس	لأنه نحمل المسؤولية الأثقل ولأن الترهيب موجه إليه .
3- لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ .	إنس	لأن الإنس مكرم هنا على الجان ، ولأن الحديث موجه لترغيب الإنسان أصلا في الجنة .
4 - يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ منكُم يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي[1] .	الجن	السياق فى الآيات السابقة + الغواية لأن الموقف موقف حشر .
5 - قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ .	الجن	بسبب الغواية ، لأن الموقف موقف حشر .
6 - وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ .	الجن	بسبب القوة وخرق العادة .

إن التقديم والتأخير فى الآيات السابقة كان بين الكلمات عن طريق العطف بالواو التى تفيد مجرد الجمع ، ولذلك نجد بعض المفسرين مثل القرطبى يعلق بقوله : « وقرأ الأعمش » : شياطين الجن والإنس « بتقديم الجن والمعنى واحد»[2] ، والحق أن المعنى ليس واحدا فى هذه الآية الأولى ، لأن موضوع الآية هو « التحدى » الإعجازى الذى كان الهدف منه إقناع الإنسان بصدق نبوة محمد ﷺ ، فحين تكون الآية هى : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا

(1) الأنعام : 130 . (2) الجامع لأحكام القرآن : ص 17 .

بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (1) ، فإن ذلك يعنى أن المقصود أساسا بالتحدى هو الإنسان ، وأن الجن ذكر كمبالغة فى التحدى ، ومن ثم يكون تقديم الجن هنا مما يفرضه السياق الدلالى للنص ·

ومع ذلك فهذا لا يعنى أن التقديم والتأخير حين يكون العطف بالواو التى تفيد مطلق الجمع يكون دائما خاضعا للعناية ، فقد يكون لمجرد الذكر بغض النظر عن الأهمية والعناية تقديما أو تأخيرا ·

(ب) تداول التقديم والتأخير بين القلب والحواس :

وثانى مثال لبيان أهمية هذا النوع من التقديم والتأخير ما يتعلق بترتيب الألفاظ الدالة على السمع والبصر والفؤاد ·

فقول الله تعالى اسمه : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ (2) ، قد ترتبت فيه الكلمات بحسب مقتضى الحال ، إذ لما كان مقتضى الحال هنا هو بيان نعمة العطاء الربانى من جهة ، وبيان أهمية ما ترتب على هذه النعمة من تحمل المسؤولية من جهة ثانية ، فذكر السمع أولا ثم البصر ثم الفؤاد لأن نعمة السمع فى حالة الاستقبال لمعانى الأشياء أهم ، فمن فقد هذه الحاسة فقد المعرفة والفهم ، وعجز عن التعامل الطبيعى مع المجتمع ؛ لأن من ولد أصم كان أبكم بالضرورة ، ولكن يبقى له مع ذلك القدرة على استخدام الإشارة ؛ لأنها تعتمد على حاسة البصر والقدرة العقلية ، لذلك يكون الإنسان فى هذه الحال كما يلى :

(صم / بكم) ⋚ انعدام اللغة دون البنيات العملية المنطقية ·

أى أن : (صم / بكم) + صحة دماغيـــة ⋚ لغة إشارية + خيال + لغة رمزية ·

ولارتباط السمع باللغة ارتباطا وثيقا وجدنا الآية خالية من ذكر (اللسان) ، يقول القرطبى : « فى معنى قوله ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ ﴾ إثبات النطق لأن من لم يسمع لم يتكلم » (3) ·

---

(1) الإسراء : 88 · (2) الإسراء : 36 ·

(3) الجامع لأحكام القرآن : 10 / 151 ·

ثم ذكرت الآية (البصر) لأن نعمته كبيرة ولكن اقل قيمة من السمع إذ ان المولود أعمى يستطيع أن يملك اللغة ومن ثم يعيش شبه طبيعى ، وذلك لأن نقص التصورات الحسية لا تملك اللغة تعويضه كليا ، وتصاغ كالتالى :

أعمى بالولادة ⇐ نقص فى التصورات الحسية ولا تعوضها اللغة .

وذكرت نعمة (العقل = الفؤاد) ثالثا ، وإن كان العقل هاما جدا لأنه يفقد وظيفته إذا لم يجد الأساسين الأولين اللذين هما بمثابة جند من جنوده ، بهما يستقبل المعرفة السمعية والبصرية على حد سواء ، نعم من الناحية المبدئية يبدو أن التفكير سابق للغة ، ولكن من الناحية العملية ينعدم التفكير النافع إذا انعدمت اللغة والإدراك البصرى معا ، بل إن الطفل يتعلم اللغة والتفكير معا ، ونحن دائما نفكر - كما يقول الفلاسفة - بواسطة اللغة ولو كنا لا ننبس ببنت شفة .

وعلى هذا الأساس نصوغ المسألة هنا كما يلى :

(صم/ بكم) + خلل دماغى ⇐انعدام الوظيفة الرمزية والإشارية والخيالية .

ومعنى كل ذلك أن الإنسان فى حالة التلقى الأولى يحتاج إلى هذه النعم جميعا بالترتيب التالى : سمع + بصر + فؤاد ، قال القرطبى : « جعل لكم السمع لتسمعوا به الأمر والنهى ، والأبصار لتبصروا بها آثار صنعه ، والأفئدة لتصلوا بها إلى معرفته » [1] .

لكن عندما ينضج الإنسان ، وتكتمل دورة النمو ، ويصل إلى مرحلة التكليف الشرعى ، يصير العقل أعظم النعم التى أنعم الله بها على الإنسان ، ومن ثم يكون ترتيبها كما يلى : فؤاد + سمع + بصر .

وعلى هذا الأساس نجد الآية فى حالة ما إذا كان مقتضى الحال هو بيان خطر السلب للنعم تترتب فيها تلك الكلمات الثلاثة حسب أهمية الجوارح الثلاثة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ۞ خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ، وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [2] .

---

(1) نفسه .

(2) البقرة : 6 - 7 .

فقد قدم القلوب وثنى بالسمع وثلث بالأبصار ؛ لأن القلوب هى مصدر التكبر الذى جعل الأسماع لا تستفيد والأبصار لا تتأمل آيات الله ، يقـــول الزمخـــشرى : « لأن الحق لا ينفذ فيها ولا يخلص إلى ضمائرها من قبل إعراضهم واستكبارهم عن قبوله واعتقاده ، وأسماعهم لأنها تمجه وتنبو عن الإصغاء إليه وتعاف استماعه كأنها مستوثق منها بالختم ، وأبصارهم لأنها لا تجتلى آيات الله المعروضة ودلائله المنصوبة كما تجتليها أعين المعتبرين المستبصرين ، كأنما غطى عليها وحجبت وحيل بينها وبين الإدراك »[1] .

ولما كانت القلوب فى هذه المرحلة التى يتحدث عنها ، وهى مرحلة تكبر الإنسان عن الحق وإدباره عنه تكون هى سيدة الموقف الذى يتحكم فى بقية جوارح الإنسان ، فإن الله قدمها فى الذكر لأنها أهم ، ومن ثم كان أخذها مقدما على أخذ بقية الجوارح ، وإن كانت لا تفيد فى حالة ختم القلوب ، والفقهاء يقولون : « إذا أخذ ما أوهب أسقط ما أوجب » ويقولون : « العقل مناط التكليف » .

وخلاصة القول : إن القرآن الكريم فى هذه المسألة يوظف هذه الكلمات الثلاثة دائما وبصفة مطردة لا تتخلف أبدا بحسب مقتضى الحال ، فإن كان الحال هو بيان عطاء النعم قدم السمع ثم ثنى بالبصر وأخر العقل ، وإن كان مقتضى الحال هو بيان سلب النعم عكست المسألة فقدم العقل وأخر السمع ، وهذا الجدول يوضح ذلك :

* *

(1) الكشاف : 1 / 156 .

الآيات	المقدم	السبب والعلة
1 - ﴿ وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ، لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (1) .	السمع	المقام هو بيان ذكر النعم ليحصل الشكر
2-﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إن أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾(2) .	السمع	المقام هو بيان أهمية النعم ليحصل الشكر
3 - ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ، قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ ﴾ (3) .	السمع	المقام هو بيان أهمية النعم ليحصل الشكر
4-﴿ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾(4) .	القلوب	المقام هو بيان سلب النعم بسبب الكفر
5-﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُوْلَٰئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُوْلَٰئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ﴾(5) .	القلوب	المقام هو بيان سلب النعم بسبب سوء الاستعمال

ومن الواضح أن معنى « العطاء » أو « السلب » يتبين من سياق المقال

---

(1) النحل : 78 .
(2) الأنعام : 46 .
(3) المؤمنون : 78 .
(4) النحل : 106 - 108 .
(5) الأعراف : 179 .

أو المقام ، وذلك كأن نجد كلمة « ختم » أو « أخذ » أو « طبع » أو النفى مثل (لا يفقهون ، لا يسمعون ، لا يبصرون) ففى مثل هـذه التعابير يكون التقديم دائما للعقل ؛ لأن الموقف موقف سلب النعم .

أما إذا كان السياق يفيد الإنعام أو ما يشبه الإنعام كالتذكير به أو التهديد بأخذ النعم ، فإن التقديم يكون للسمع ويسبق بعبارات وأفعال مثل : (جعل لكم - أنشأ لكم) ، فإن تغيرت دلالة الفعل من دلالة العطاء إلى دلالة الأخذ والسلب وبقى السمع مقدما كما فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إن أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِهِ ﴾ [1] فإن ذلك ليس فى موضع السلب ، وإنما هو فى موقف التهديد بالسلب ؛ كما يفهم من هذه الآية إذ بدأ بالاستفهام ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إن أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ ... ﴾ وختم باستفهام آخر هو : ﴿ مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِهِ ﴾ وكلاهما يفيد التحسيس بأهمية النعمة وقدرة مصدرها ، ولا يفيد السلب بقدر ما يفيد التهديد بوقوع السلب إذا أمعن الإنسان فى الكفر والعناد .

والآن ماوجه الإعجاز فى هذه الآيات وما يشبهها ؟ السر فى وقوع الإعجاز هنا لا يعود إلى التقديم والتأخير من حيث هو ترتيب للكلمات مرة بطريقة وأخرى بطريقة معاكسة ، وإنما فى علاقة ترتيب الألفاظ فى النطق بحسب ترتيب المعانى فى النفس ، إذ لا يقدر على ذلك إلا من كانت المعانى واضحة فى علمه تماماً ، بحيث يعرف بدقة طبيعة الإنس والجن ، ويعرف مسالكهما فى الحياة وما يصلحان له ويقدران عليه ، وفى أى المواضع يكون أحدهما أحق بالأسبقية من غيره ، كما يعرف الفروق الدقيقة بين جوارح الإنسان ؛ فى عملها وكيفية نشاطها وطريقة تأثير بعضها فى بعض .

فالعلم بأسرار الإعجاز هو العلم بأن علم الله محيط بالمعانى والألفاظ ، فإذا علم الإنسان أن علم الله هو وحده المحيط بالأشياء والناس والعلاقات الموجودة بينها ، وبالألفاظ القادرة على التعبير عنها بدقة محكمة لا يتطـرق إليها الترتيب العشوائى أو الذكر الاعتباطى ، علم أن هذا القرآن معجز لهذا السبب .

وقد أصاب الهدف ابن عطية حين قال : « وجه التحدى فى القرآن إنما هو

---

(1) الأنعام : 46 .

بنظمه وصحة معانيه ، وتوالى فصاحة ألفاظه ، ووجه إعجازه : أن الله تعالى قد أحاط بكل شيىء علما وأحاط بالكلام كله علما فعلم بإحاطته أى لفظة تصلح أن تلى الأولى وتبين المعنى بعد المعنى ، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره ،والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول ، ومعلوم ضرورة أن بشرا لم يكن محيطا قط ، فبهذا جاء نظم القرآن فى الغاية القصوى من الفصاحة » [1] .

ومعنى كل ذلك أن الإعجاز يتحقق من كون الإنسان لا يستطيع بأى حال أن يحيط علما بالموضوعات والألفاظ التى يعبر بها عنها ، فإن كان ذلك كذلك عجز عن الإتيان بمثل هذا القرآن .

* *

2- التقديم والتأخير فى التراكيب باعتبار الإسناد :

الأساس الذى يقوم عليه تركيب الجملة العربية هو الإسناد ، وله وجهان رئيسيان هما :

1 - فى الجملة الفعلية يكون المسند إليه هو الفاعل أو ما هو فى حكمه والمسند هو الفعل .

2 - فى الجملة الاسمية يكون المبتدأ هو المسند إليه ، والخبر أو ما هو فى حكمه مسند .

ومن ثم يكون الترتيب الأساسى لهذه الجمل هو أن يتقدم الفعل فى الجمل الفعلية وأن يتقدم المبتدأ فى الجمل الاسمية ، فإذا حدث تغير فى ذلك فثمة سبب هو وجود علة تقتضى التغيير ، ومعناه أن **الاعتباط فى ترتيب عناصر الجمل وبناء بعض التراكيب على بعض لا وجود له** ، يقول القزوينى بشأن تقديم المسند إليه : « وأما تقديمه فلكون ذكره أهم ، إما لأنه الأصل ولا مقتضى للعدول عنه وإما ليتمكن الخبر فى ذهن السامع لأن فى المبتدأ تشويقا إليه ، وإما لتعجيل المسرة أو المساءة لكونه

---

(1) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن : 1 / 76 .

صالحا للتفاؤل أو التطير ، وإما لإيهام أنه لا يزول عن الخاطر أو أنه يستلذ فهو إلى الذكر أقرب » (1) .

ولكن وضع التراكيب بهذا الترتيب الذى لا يجيء آليا أو اعتباطا ليس مما يسر للناس كلهم إذ هو عند النظر نجده يحدث وفق مقتضيات وإمكانات علمية دقيقة ، بحيث لا يستقيم التركيب المتين إلا لمن كان له علم مكين ، ليس فقط بتقنيات اللغة وملابساتها المختلفة : النفسية واللسانية والاجتماعية ،ولكن بأسرار وخفايا الموضوع الذى يقصد التعبير عنه .

ومعنى ذلك أن مستويات جودة التراكيب تختلف باختلاف المعبرين عن تلك المقاصد والأغراض ، ويبدو أن البلاغيين قديما وحديثا يؤكدون - بطريقة واضحة - امتداد جذور الصياغة التركيبية إلى ذات المعبر ، وذلك يشكل بعدا إدراكيا لوعى هذا المبدع بالمكونات المتشابكة لجزئيات صياغته ، وهو ليس إدراكا آليا وذهنيا ، وإنما هو إدراك يكثف المستوى الجمالى للتعبير عن طريق تكوين بنية لغوية تتداخل فيها مجموع العلاقات ، وتتبادل فيها التفاعلات بفنية تستمد قيمها من النحو الإبداعى (2) من جهة ، وعلم المبدع بأسرار موضوعه بدقة تستجيب لها الطاقات النحوية واللغوية كلها استجابة الدال للمدلول عند أهل اللغة العارفين بأسرارها من جهة ثانية .

وهكذا يتبين لنا أن السر فى تفاوت الأساليب يكمن فى التفاوت فى العلم بمستلزماتها كلها ، إذ يحسن التعبير ويسمو بقدر القيمة العلمية الشاملة ، ويتدرج فى الحسن حتى يصل إلى الإعجاز .

يقول ابن قيم الجوزية بشأن التقديم والتأخير : « إنهم أتوا به دلالة على تمكنهم فى الفصاحة وملكتهم للكلام وتلعبهم به وتصرفهم فيه على حكم ما يختارونه وانقياده لهم لقوة ملكتهم فيه وفى معانيه ثقة بصفاء أذهانهم ، وغرضهم فيه أن يكون اللفظ وجيزا بليغا وله فى النفوس حسن موقع وعذوبة مذاق » (3) .

---

(1) السكاكى : الإيضاح : 1 / 53 .

(2) محمد عبد المطلب : البلاغة والأسلوبية : ص248 .

(3) شمس الدين ابن القيم الجوزية : الفوائد المشوق فى علوم القرآن وعلم البيان ص82 .

ولكى نتبين ذلك جليًا يمكننا أن نتأمل بعض آيات القرآن الكريم التى تتوافر على ظاهرة التقديم والتأخير باعتبار الإسناد ·

2 / 1 - قال تعالى فى سورة الفاتحة على لسان المؤمنين : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، ومن الواضح أن كلمة « إياك » التى قدمت فى الجملتين معا هى من جهة الإعراب مفعول به مقدم ، وحكمه التأخير - كما نعلم - فلماذا قدم ؟ وما القيمة الجمالية والمعنوية لذلك ؟ ·

يقول ابن قيم الجوزية : « المقصود بتقديم - إياك - تعظيم الله سبحانه وتعالى والاهتمام بذكره مع إفادة اختصاص العبادة والاستعانة بالله ليصير الكلام حسنا متناسقا ، ولو قال نعبدك ونستعينك لم يكن الكلام متناسبا »[1] ، فالأسباب التى جعلت المفعول هنا يتقدم على الفعل والفاعل هى أسباب معنوية وجمالية ؛ معنوية لأن التقديم كان بسبب بيان من هو أحق بالعبادة ، وأخص بالاستعانة ، وأجدر بالذكر والاهتمام ، وجمالية لأن السورة كلها قد بنيت صوتيا على نغمة تقتضى الوقوف على الياء والنون أو الياء والميم لتشابه مخارجهما ونغماتهما الصوتية ؛ مما يؤدى إلى انسجام صوتى وتناسق جميل يبعث على الدهشة والإعجاب ، ولذلك عدَ بعض القدماء من صور إعجازه « ما يقع فى النفوس منه عند تلاوته من الروعة وما يملأ القلوب عند سماعه من الهيبة وما يلحقها من الخشية سواء كانت فاهمة لمعانيه أو غير فاهمة أو عالمة بما يحتويه أو غير عالمة ، كافرة بما جاء به أو مؤمنة ؛ ولذلك قال ﷺ : « القرآن صعب مستصعب على من كرهه » [2] .

ويقول الرمانى : « المتلائم فى الطبقة العليا القرآن كله ، وذلك بين لمن تأمله ··· وبعض الناس أشد إحساسا بذلك وفطنة له من بعض ، كما أن بعضهم أشد إحساسا بتمييز الموزون فى الشعر من المكسور ··· **والسبب فى التلاؤم تعديل الحروف فى التأليف** ، وكلما كان أعدل كان أشد تلاؤما ··· **والفائدة فى التلاؤم حسن الكلام فى السمع وسهولته فى اللفظ وتقبل المعنى** فى النفس لما يرد عليها من

---

(1) نفسه : ص 82 ·

(2) ابن القيم : الفوائد المشوق : ص 250 ·

حسن الصورة وطريق الدلالة ... فإذا انضاف إلى ذلك حسن البيان فى صحة البرهان فى أعلى الطبقات ظهر الإعجاز للجيد الطباع البصير بجواهر الكلام »[1] .

وعلى هذا الأساس يتبين أن تقديم ما قدم وتأخير ما أخر لم يكن عملا اعتباطيا ؛ وإنما كان بناء دقيقا وضعت فيه الألفاظ الموضع اللائق بها بحسب ما يقتضى الحال خضوعا لتمكن العلى القدير من فهم المقاصد من الكلام الذى أنزله ، ومن علمه المطلق بالمواقع الموضوعية واللغوية الصالحة لإحداث الأثر النفسى فى المتلقى ، ومن علمه المطلق بطبائع المستمعين .

ولهذا وضعت الجملة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ بهذا الترتيب الذى يستدعى التقديم والتأخير ليحدث الانسجام والتلاؤم بينها وبين باقى الآيات من سورة الفاتحة والبسملة .

2 / 2 - قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِن عِبَادِهِ العُلَمَاءُ ﴾ فقد تقدم المفعول وتأخر الفاعل فى جملة جاءت صياغتها فى أسلوب الحصر ، والسر فى ذلك يعبر عنه عبد القاهر الجرجانى بقوله : « فى تقديم اسم الله عز وجل معنى خلاف ما يكون لو أخر ، إن تقديم اسم الله تعالى إنما كان لأجل أن الغرض أن يبين الخاشين من هم ويخبر بأنهم العلماء خاصة دون غيرهم ، ولو أخر ذكر اسم الله وقدم العلماء فقيل إنما يخشى العلماءُ الله لصار المعنى على ضد ما هو عليه الآن ، ولصار الغرض بيان المخشى من هو والإخبار بأنه الله تعالى دون غيره ، ولم يجب حينئذ أن تكون الخشية من الله تعالى مقصورة على العلماء ، وأن يكونوا مخصوصين بها كما هو الغرض فى الآية ، بل كان يكون المعنى أن غير العلماء يخشون الله تعالى أيضا إلا أنهم مع خشيتهم الله تعالى يخشون معه غيره ،والعلماء لا يخشون غير الله تعالى ، وهذا المعنى وإن كان قد جاء فى التنزيل فى غير هذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللهَ ﴾ فليس هو الغرض فى الآية ولا اللفظ بمحتمل له البتة ، ومن أجاز حملها عليه كان قد أبطل فائدة التقديم وسوَّى بين قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِن عِبَادِهِ العُلَمَاءُ ﴾ وبين أن يقال إنما يخشى العلماء الله » .

---

(1) الرمانى : النكت فى إعجاز القرآن : ص 96 ضمن ثلاث رسائل .

2 / 3 - قال تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ ، وقال : ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ ﴾ .

ففى هذين المثالين اختلاف فى التقديم والتأخير بين المبتدأ والخبر مع أن الأسلوب واحد ، ففى الآية الأولى قدم الخبر (عليك) وفى الثانية قدم المبتدأ (السبيل) والسر فى ذلك كما يقول عبد القاهر الجرجانى : « إنك إذا تركت الخبر فى موضعه فلم تقدمه على المبتدأ كان الاختصاص فيه ، وإن قدمته على المبتدأ صار الاختصاص الذى كان فيه فى المبتدأ .. فإنك ترى الأمر ظاهرا أن الاختصاص فى الآية الأولى فى المبتدأ الذى هو البلاغ والحساب دون الخبر الذى هو عليك وعلينا وأنه فى الآية الثانية فى الخبر الذى هو (على الذين) دون المبتدأ الذى هو السبيل » (1) .

وعلى الجملة فإن التقديم والتأخير فى الجملة الإسنادية يقوم على دواعى وأسباب ؛ إما أن تكون معنوية ، وإما أن تكون تحسينية ،والغالب اجتماعها لأن الحسن يتحقق إذا لم يكن هناك خلل فى المعنى ، وإلا فقد التعبير جماله ؛ لأن الصواب فى التراكيب بحسب مقتضى الحال هو بداية صناعة الجمال فى العبارة الأدبية .

إن العدول عن الأصل فى الإسناد لا يكون إلا لسبب كإفادة الاختصاص أو زيادة المعنى كما فى قوله تعالى : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ ﴾ قال ابن قيم : « ولو قال وظنوا أن حصونهم من الله مانعتهم لما أشعر بزيادة وثوقهم بمنعها إياهم . وكذلك : ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِى يا إِبْرَاهِيمُ ﴾ ولو قال أأنت راغب عنها ما أفاد زيادة الإنكار على إبراهيم بالرغبة عنها » (2) .

وقد يكون التقديم للاهتمام دائما ، ولكن يختلف من آية إلى أخرى ؛ لذا لا يكفى أن نقول قدم للاهتمام وإنما ينبغى تحليل الآيات لبيان سر الاهتمام بما قدم إن كان قد قدم ، أو سر ما أخر إن كان قد أخر ، ولكن من المفيد القول مع ابن القيم : إن

---

(1) نفسه : ص 265 .

(2) الفوائد المشوق فى علوم القرآن : ص 83 .

« غرضهم فيه أن يكون اللفظ وجيزا بليغا وله فى النفوس حسن موقع وعذوبة مذاق [1] ، لأن الجانب النفسى والعقلى للمتلقى هو المقصود بالخطاب ، ولذا قيل : « لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ، ولفظه معناه ، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك » [2] ، وقد علق الجاحظ على هذا الكلام فقال : « وهو أحسن ما اجتبيناه ودونَّاه » [3] ، وعلق عليه الجرجانى فقال : « إنك ترى اللفظ يصل إلى سمعك وتحتاج إلى أن تخب وتوضع فى طلب المعنى ، ويجرى لك هذا الشرح والتفسير فى النظم كما جرى فى اللفظ ، لأنه إذا كان النظم سويا والتأليف مستقيما كان وصول المعنى إلى قلبك تلو وصول اللفظ إلى سمعك ، وإذا كان على خلاف ما ينبغى وصل اللفظ إلى السمع وبقيت فى المعنى تطلبه وتتعب فيه وإذا أفرط الأمر فى ذلك صار إلى التعقيد الذى قالوا إنه يستهلك المعنى » [4] ، وقال أبو هلال العسكرى : البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه فى نفسه لتمكنه فى نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن [5] .

3 - التقديم والتأخير باعتبار الترابط المنطقى للمقاصد :

إلى جانب مسألة التقديم والتأخير بالاعتبارين السابقين : النسق والإسناد ، هناك مجال خصب فى الترتيب باعتبار المنطق ، وقد نبه على ذلك ابن قيم الجوزية فقال : « والثانى إما أن يكون ذلك لما يتعلق بمعنى الكلام الأول أو بلفظه ، والمتعلق بمعناه كما فى قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُم شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ فإنه الشقى لأن المراد بهذا وما قبله التخويف ، والمتعلق بلفظه كما فى قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ ﴾ ثم قال : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الجَنَّةِ ﴾ فإن تقديم حال الأشقياء هاهنا لأجل تقديمه أولا الشقى والذى يكون كذلك ، لا لأجل المتقدم إما أن يكون لأجل حال فى الكلام نفسه أولا يكون كذلك » [6] .

---

(1) نفسه : ص 82 .
(2) البيان والتبيين : ص 1 / 81 . (3) نفسه .
(4) دلائل الإعجاز : ص 209 - 210 .
(5) أبو هلال العسكرى : الصناعتين : ص 19 .
(6) الفوائد المشوق : ص 84 .

وقد حصر ابن قيم أسباب ذلك في ما يأتي [1] :

1 - إذا كان التقدم أدل على قدرة الله الخالق كقوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُم مَن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعَ ﴾ .

2 - أن يكون للمتقدم تأثير في وجود المتأخر أو لا يكون كذلك .

3 - إذا كان المتقدم أكثر وجوبا كما في قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُم ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُم سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ .

4 - أن يكون للمتعلق أولا به ، أو لتعلقه هو بالمذكور أولا .

5 - أن يكون لما يتعلق بالمعنى المذكور أو لفظه .

كان ابن قيم الجوزية قد انتبه إلى هذا الجانب من الأساليب في القرآن الكريم ، وأكد أن التقديم والتأخير إنما يتم وفق دواع : « وقد يجتمع في شيء واحد عدة منها فيكون تقديمه أولى وإذا تعارضت أسباب روعي أقواها ، وإن تساوت كان المتكلم بالخيار في تقديم أي الأمرين معا» [2] .

وللتقديم والتأخير بهذا الاعتبار تجليات مختلفة يمكن إيضاحها بالأمثلة الدالة في القرآن الكريم ، إذ قد يكون التقديم للآية سنة من سنن القرآن لا تتغير وذلك كالبسملة ، فإنها تحتل مقدمة السور جميعا ، فلم تتخلف إلا في سورة براءة وقد اختلف المفسرون في سبب ذلك [3] ، ولم تذكر أثناء الآيات إلا في سورة النمل كمقدمة لرسالة بعث بها سليمان عليه السلام إلى ملكة سبأ .

وتقديم البسملة على الآيات الأخر في كل سورة يعود إلى الترتيب الذي يقتضيه منطق الشرع ، وهو أن كل عمل ينبغي أن تسبقه نية الإخلاص إما لله إن كان العمل لله ، وإما لغير ذلك إن كان العمل من عمل المشركين ، قال الطبري : « إن الله تعالى ذكره وتقدست أسماؤه أدب نبيه محمدا بتعليمه تقديم ذكر أسمائه الحسنى ، أمام جميع أفعاله وجعل ذلك لجميع خلقه سنة يستنون بها ، وسبيلا يتبعون عليها ، فيه

(1) نفسه : ص 83 - 84 .
(2) ابن قيم : الفوائد المشوق في القرآن : ص 85 .
(3) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : ج 8 ص 61 - 63 .

افتتاح أوائل منطقهم ، وصدور رسائلهم وكتبهم وحاجاتهم ، حتى أغنت دلالة ماظهر من قول القائل (بسم الله) على ما يظن من مراده الذى هو محذوف ، فقول القائل (بسم الله الرحمن الرحيم) إذا افتتح تاليا سورة ينبىء عن مراده بذلك اقرأ بسم الله » (1) .

ومنال ذلك تقديم الحروف فى كل سورة تبدأ بالحروف الرمزية كما فى (الٓمٓ ، طسٓ ، حمٓ ، قٓ . . .) ففى كل السور التى هذا شأنها يقدم ذكر هذه الرموز على غيرها ، ولئن كنا نجهل أسرارها فى الغالب فإن تقديمها ينبىء عن أهميتها ، إذ أن القاعدة العامة للتقديم تقضى أن يكون التقديم دائما لما هو أهم بالنسبة لذلك الموضع الذى تعرض فيه الآيات بحسب مقتضى الحال .

وثمة مسألة أخرى يكون فيها التقديم والتأخير خاضعا للترتيب المنطقى هو **عرض الأحداث التاريخية** ، ويبدو أن هذا النوع من أساليب التقديم والتأخير له هدف برهانى ، ففى سورة الأعراف - مثلا - تستعرض الآيات رحلة الإنسان فى الحياة ، فتبدأ بقصة آدم عليه الســـلام ثم تتدرج فى الترتيب إلى عهد نبينا محمد ﷺ ، يقول سيد قطب : « إن موضوع سورة الأنعام هو العقيدة وموضوع سورة الأعراف هو العقيدة ، ولكن بينما سورة الأنعام تعالج العقيدة فى ذاتها وتعرض موضوع العقيدة وحقيقتها . . تجد سورة الأعراف وهى تعالج موضوع العقيدة كذلك تأخذ طريقا آخر وتعرض موضوعها فى مجال آخر ، إنها تعرضه فى مجال التاريخ البشرى ، فى مجال رحلة البشرية كلها مبتدئة بالجنة والملأ الأعلى وعائدة إلى النقطة التى انطلقت منها ، وفى هذا المدى المتطاول تعرض موكب الإيمان من لدن آدم عليه السلام إلى محمد عليه الصلاة والسلام » (2) . ويقول محمود شلتوت : « وقد عرفنا من سنن القرآن فى ذكر القصص والوقائع أنه لا يعرض لها مرتبة حسب وقوعها ، وذلك لأنه لا يذكرها على أنها تاريخ يعين لها الوقت والمكان ، وإنما يذكرها لما فيها من العبر والمواعظ وما تتطلبه من الأحكام والحكم » .

وعلى هذا فقد نجد الترتيب التاريخى يغيب فى بعض السور ،فنجد تقديم قوم

---

(1) الطبرى : جامع البيان فى تفسير القرآن : مقدمة تفسير سورة الفاتحة .

(2) سيد قطب : فى ظلال القرآن : 3 / 1200 .

فى الذكر هم مؤخرون تاريخا ، فإذا التمسنا السبب وجدنا الأهمية تقتضى ذلك بحسب مقتضى الحال ، ولعل قطب رحمه الله كان يقصد ذلك حينما قال : « إن سورة يونس تحتوى على جانب من القصص مجمل ، إشارة إلى قصة نوح وإشارة إلى الرسل من بعده وشيء من التفصيل فى قصة موسى وإشارة مجملة إلى قصة يونس ،ولكن القصص إنما يجيء فى السورة شاهدا ومثالا لتصديق الحقائق الاعتقادية التى تستهدفها السورة ، أما سورة هود فالقصص فيها هو جسم السورة ، وهو وإن جاء شاهـــدا ومثالا لتصـــديق الحقائق الاعتقادية التى تستهدفها ، إلا أنه يبدو فيه أن اســـتعراض حركة العقيدة الربانيـــة فى التاريخ البشـــرى هو الهدف الواضح البارز » (1) .

ومن صــــور الترتيب المنـــطقى ما عـــرض له الفخر الرازى فى « التفسير الكبير » إذ بين أن الله سبحانه وتعالى قد رتب فى قوله : ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ ، تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا ، لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَـــحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ ، إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ، وَيَخْلُقُ مَالاَ تَعْلَمُونَ * وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ، وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ * هُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُمُ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْــنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ * وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَأَلْقَى فِى الأَرْضِ رَوَاسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلاَمَاتٍ ، وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ * أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَن لاَ يَخْلُقُ ، أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ * وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا ، إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (2) ، أقول فهو يرى أن هذه الآيات قد

---

(1) نفسه : ص 4 / 1844 . (2) النحل : 3 - 18 .

رتبت ترتيبا منطقيا حسب **شرف العناصر** المخلوقة لا حسب أسبقيتها فى الوجـــود أو غير ذلك من الأسباب كالتدرج من الأظهر إلى الأخفـــى ، أو من الأعلى إلى الأدنى .

يقول الفخر الرازى : « من الدلائل القرآنية أن يحتج الله تعالى **بالأشرف فالأشرف** نازلا إلى الأدون فالأدون وهذا الطريق هو المذكور فى هذه السورة ، وذلك لأنه تعالى ابتدأ فى الاحتجاج على وجود الإله المختار بذكر الأجرام العالية الفلكية ، ثم ثنى بذكر الاستدلال بأحوال الإنسان ، ثم ثلث بذكر الاستدلال بأحوال الحيوان ، ثم ربع بذكر الاستدلال بأحوال النبات ، ثم خمـس بذكر الاستدلال بأحوال العناصر الأربعة ، وهذا الترتيب فى غاية الحسن » (1) .

ولم يتوقف الرازى عند الترتيب الشامل لهذه الآيات فحسب ، ولكنه توقف عند الترتيب الداخلى للآية الواحدة أو المسألة الواحدة ، فقد نظر فى ترتيب ذكر المنافع فى الآية : ﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا . . . ﴾ وذكر أن « الحيوان الذى ينتفع الإنسان به إما أن ينتفع به فى ضروريات معيشته مثل الأكل واللبس أو لا يكون كذلك ، وإنما ينتفع به فى أمور غير ضرورية مثل الزينة وغيرها والقسم الأول أشرف من الثانى ، وهذا القسم هو الأنعام فلهذا السبب بدأ الله يذكره فى هذه الآية فقال : ﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا ، لَكُمْ ﴾ (2) .

ثم نظر فى ترتيب ذكر المنافع حسب أهميتها فبين أن المولى سبحانه قد بدأ بذكر المنافع الضرورية ثم ثنى بالمنافع الكمـالية ، فالمنفـعة الأولى قوله : ﴿ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ . . . ﴾ والثانية قوله ﴿ وَمَنَافِعُ ﴾ والمراد نسلها ودرها والثالثة قوله : ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ ، وهذه المنافع الثلاثة ضرورية .

وأما المنافع التى هى ليست ضرورية ، وإنما هى كمالية فهى : الأولى قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ ، وقد قدم جمال

---

(1) الفخر الرازى : التفسير الكبير : 19 / 222 - 223 .
(2) نفسه : ص 227 .

الإراحة على جمال التسريح لأن « الجمال فى الإراحة أكثر ؛ لأنها تقبل ملأى البطون حافلة الضروع » ، والثانية قوله : ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ ، إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وبين كذلك أنه تعالى لما ذكر منافع الحيوانات التى ينتفع الإنسان بها فى المنافع الضرورية والحاجات الأصلية ذكر بعده منافـــع الحيـــوانات التى ينتفع بها الإنسان فى المنافع التى ليســـت بضرورية [1] فقال : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ .

وبين أيضا أنه لما كان النبات أشرف أجسام العالم السفلى بعد الحيوان ، فإن المولى تبارك وتعالى اتبع الاستدلال على وجود الصانع الحكيم بعجائب أحوال الحيوانات - فى هذه الآية - بذكر الاستدلال على وجود الصانع الحكيم بعجائب أحوال النبات [2] ، يعنى قوله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْـــنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [3] .

وتدفق فى مسألة تقديم الحيوان وهو مما ينتفع به على النبات وهو مما ينتفع به أيضا فقال : « أعلم أن الإنسان خلق محتاجا إلى الغذاء ، والغذاء إما أن يكون من الحيوان أو من النبات والغذاء الحيوانى أشرف من الغذاء النباتى لأن تولد أعضاء الإنسان عند أكل أعضاء الحيوان أسهل من تولدها عند أكل النبات لأن المشابهة هناك أكمل وأتم » [4] .

ويمكن أن نتبين ذلك بصورة واضحة حين نشكلها كتابة كما يلى :

﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ ، تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ *

خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ *

---

(1) نفسه : ص 229 .

(2) نفسه : ص 232 .

(3) النحل : 10 - 11 .

(4) الرازى : السابق ص 23 .

وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا ، لَكُمْ
فِيهَا دِفْءٌ
وَمَنَافِعٌ
وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ *
وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ *
وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ ، إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ *وَالخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالحَمِيرَ
لِتَرْكَبُوهَا
وَزِينَةً ،
وَيَخْلُقُ مَالاَ تَعْلَمُونَ *
وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ، وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ *
هُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم،
مِّنْهُ شَرَابٌ
وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ *
يُنبِتُ لَكمُ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْـنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ،
إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ *
وَسَخَّرَ لَكُمُ الْلَيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ ، وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ *
وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ *
وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ البَحْرَ
لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا
وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا
وَتَرَى الفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ

وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ *

وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ

رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ

وَأَنْهَارًا

وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ *

وَعَلامَاتٍ ، وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ *

أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ ، أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ *وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا ، إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (1) .

ومجمل القول : إن القرآن الكريم شكلت بنيته التركيبية تشكيلا خارقا للعادة التى ألفناها فى الأساليب التعبيرية عند البشر ، وقد تجلى ذلك الخرق للعادة فى نظمه ، وقد رأينا كيف برهن على ذلك عبد القاهر الجرجانى ، كما تجلى فى صور التقديم والتأخير المختلفة ، وقد اتضح لنا من التحليل العلمى الذى عرضناه من خلال النماذج المتعددة أن البرهنة على هذا النوع من الإعجاز يستوجب التحكم فى نظرية خاصة هى : **نظرية الإعجاز البلاغى فى القرآن** ·

وهذه النظرية لاتبرهن فقط على الإعجاز القرآنى بالمفهوم البلاغى القديم ، ولكن تتجاوزه لتتوسع أكثر فأكثر لتشمل ظواهر بلاغية متعددة ، ومنها التقديم والتأخير فى القصص والأحداث وما إلى ذلك مما يخضع لـ قاعدة **تجاذب قوة الأسباب وتعارضها** ·

وإذا كانت الأسباب المتجاذبة أو المتعارضة كثيرة تبعا لكثرة مقتضيات الأحوال فإن من أهمها : شرف العناصر وكرمها ،والتقدم الزمنى ، والتدرج من الأظهر إلى الأخفى ، والتدرج من الأدنى إلى الأعلى ، وقد لخصها القدماء بقولهم : **تقديم الذى هو أهم** ، ولكن على الباحث أن يجد فى اكتشاف الأسباب التى جعلت هذا أهم من ذاك ، لأن الاكتشاف هو صلب الغرض من التحليل فى ضوء هذه النظرية ·

* * *

(1) النحل : 4 - 17 .

نظرية الإعجاز التشريعى

حقا إن العلماء الذين درسوا إعجاز القرآن وتوقفوا عند وجوهه المختلفة فقلما يذكرون الجانب التشريعى فى أوجه إعجازه ، وإن ذكروه فإنهم لا يتعدون مجرد الذكر فى غالب الأحيان فالغزالى نقلا عن هبة الدين الحسينى يذكر ثمانية وعشرين وجها ثم يقول فى آخرها : « ولعل من الأصوب أن يضاف إلى ذلك تضمنه الأسس التشريعية للإنسانية صالحة لكل زمان ومكان » (1) ، والقدماء لم يعرضوا لهذا الجانب ، كما أن كثيرا من المعاصرين أهملوه .

والغزالى إذ يذكر هذا فإنه قد قال فى موضع آخر بصدد حديثه عن النبوات فى القرآن : « نعم ربما وصل أولو النهى إلى بعض الحقائق التى ينقلها النبيون عن رب العالمين غير أن وصولهم إلى جملة الحقائق التى لابد منها لصلاح الناس مستحيل والقليل الذى يوفق إلى فقهه يعبرون إليه جسورا من التجارب والمتاعب تستغرق السنين » (2) ، وأكد كذلك أن العقل البشرى حين ارتقى فى الغرب كان أقصى ما وصل إليه أن أباح المفسدات من الربا والزنا والتمييز العنصرى ، وشرع قوانين للاسترقاق الجماعى فامتلأت الأرض فسادا ودارت بسكانها كفعل الخمرة بالرؤوس حتى ليوشكن أن يكون هذا الرقى العقلى نكسة إنسانية مروعة (3) .

إن عبارات كهذه تبين - ولا شك - أن التشريع القرآنى وجه من وجوه إعجازه ، ولكنها لا تكشف عن طبيعة هذا الإعجاز ، وهل هو إعجاز حقا وفيم يتجلى إعجازه ؟ .

حينما تحدث القرافى عن الإعجاز قال : « لو لم يكن لرسول الله ﷺ معجزة إلا أصحابه لكفوه فى إثبات نبوته » (4) .

---

(1) نظرات فى القرآن : ص 160 . (2) نفسه : ص 86 .
(3) نفسه : ص 90 . (4) الفروق : 2 - 477 .

وحينما تبارى السيدان : « ديدات » و « سوافرت » ، حول الإنجيل لإثبات ما إذا كان هو كتاب الله فعلا ؟ كان سوافرت قد ذكر أن مما ينبغى الاعتماد عليه فى بيان صحة ومصداقية الإنجيل وغيره من الكتب المقدسة أن ننظر إلى فاعليته فى إصلاح البشرية ، وهذا معناه أنه جعل دليل النبوة قائما على الجانب التشريعى ، وهو شىء فى غاية الأهمية ؛ لأن هذا العصر هو عصر القوانين والأيديولوجيات والتشريعيات التنظيمية بقدر ما هو عصر التكنولوجيا والتقدم العلمى ، وعلى هذا الأساس أضحى من الضرورى بيان وجه الإعجاز التشريعى بيانا شافيا ، وذلك بكشف أسس النظرية التى تفسره تفسيرا علميا تبنى نتائجه على مقدماته ·

إن الكتب السماوية كلها قد أحدثت زمن نزولها انقلابات اجتماعية خطيرة نلمس أثرها فى التوسعات والفتوحات التى أحدثتها فى العالم ، والتى لا تزال تحدثها وإن اختلفت الطرق الحديثة عن القديمة ، والحق أن الآلاف ، بل الملايين البشرية الأوروبية التى دخلت الإسلام حديثا فى أمريكا وأوروبا وآسيا دليل على التأثير التشريعى للقرآن أكثر من غيره من الوجوه الأخرى ·

إن إسلام مفكر كبير مثل جارودى بعد الاطلاع على مختلف التشريعات والتنظيمات البشرية وغير البشرية ، من السذاجة أن نرجعه إلى شىء غير التشريع ، وقد كان المرحوم محـمد الزفزاف قد ذكر أن « **القرآن الكريم معجزة فى أثره الإنسانى** » وأن هذا « **الانقلاب البشرى العظيم الذى حدث فى حقبة من الدهر لاتقاس بالأجيال التى تكون الأمم ليس إلا أثرا من آثار إعجاز القرآن** » [(1)] إذا استطاع أن يغير المجتمع العربى الذى كان يعيش حياة مأساوية عقائديًا ، واجتماعيا ، وأخلاقيا ، فقد استحكمت فيه الرذيلة ، والخرافات والأباطيل وشاعت المنكرات والفواحش حتى جاء القرآن فغيره من أبشع صورة إلى ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ تماما كما وصفها جعفر بن أبى طالب لملك الحبشة إذ سأله : « ما هذا الدين الذى قد فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا به فى دينى » فأجابه : « كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسىء الجوار ويأكل القوى منا

---

(1) محمد الزفزاف : التعريف بالقرآن والحديث : ص 141 ·

الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفته فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ... وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات فصدقناه وآمنا به » (1) .

لقد كان هذا الوصف دليلا على الانقلاب الاجتماعى الخطير الذى أحدثه التشريع المعجز ودل هذا الانقلاب على أن هذا التشريع ظل كذلك يصنع بالنفوس صنيعه العجيب إلى يومنا ، فلم يتخلف عن هذا الدور إلا إذا اتخذه الناس مهجورا ، أليس هذا الانقلاب البشرى العظيم الذى حدث فى حقبة من الدهر قصيرة لا تقاس بالأجيال التى تخلق الأمم أثرا من آثار إعجاز القرآن الذى خاطب عقولهم فاستمعوا لندائه (2) .

إن هذا الانقلاب الذى أحدثه القرآن فى المجتمع هو الذى جعل الصابونى يرى أن **وفاء القرآن بحاجات البشر وجه من وجوه إعجازه يدركه كل من يتأمل شريعة الإسلام** ، لما يفجأه من إصلاحات للأفراد والجماعات ، والعبادات والأخلاق والحكم والسياسة والشؤون المالية وتحرير العقول من الخرافات (3) .

كما أن هذه الإصلاحات الكبيرة هى التى جعلت الدكتور محمد عبد الله دراز فى كتابيه : « مدخل إلى القرآن الكريم » و « النبأ العظيم » ينوه بالإعجاز الإصلاحى التهذيبى الاجتماعى (4) الذى أدهش الخلق ، ولا سيما ذوى الألباب ، فقد توقف هذا الباحث عند تعاليم القرآن وقارن بينها وبين تعاليم التوراة والإنجيل فى المجال الخلقى أو « الخير » ، وتبين له أن القرآن يفوقهما معا ، ويقدم جديدا فى :

1 - **مجال الفضيلة الشخصية** : إذ ربط أعمال الإنسان بنياته ، أى ابتغاء وجه الله (5) .

---

(1) ابن هشام : السيرة النبوية : ص 01 / 359 - 360 .

(2) الزفزاف : التعريف بالقرآن : ص 141 - 142 .

(3) محمد على الصابونى : التبيان فى علوم القرآن : ص 130 .

(4) محمد عبد الله دراز : النبأ العظيم / عن نظرات جديدة فى القرآن : 79 .

(5) قال تعالى : ﴿ وَمَا لأحد عِندَهُ مِن نِعْمَةٍ تُجْزَى ۞ إلاَّ ابْتغَاءَ وجهِ ربِّه الأعْلَى ﴾ سورة الليل : 19 - 20 .

2 – **مجال الفضيلة فى العلاقات بين الأفراد** : إذ أوجد القرآن حضارة أخلاقية بفضل تقنين أخلاقى حقيقى فى الأدب والذوق الاجتماعى والتحشم حتى فى المظهر والزينة .

3 – **الفضائل الجماعية والعامة** : فقد كانت بنو إسرائيل قد جعلت القوانين ذات طابع عنصرى حتى فى ممارسة الربا ، فجاء الإسلام وجعل الناس سواسية لا يتفاوتون إلا بالتقوى والعمل الصالح .

4 – **الفضيلة فى المعاملات الدولية** : فقد تضمن القرآن مبادىء أساسية للعلاقات الدولية فى السلم والحرب فمنع الاعتداء والغدر والخيانة . . .

وكل ذلك يبين أن موضوعية تشريعاته موضوعية مطلقة لا يمكن أن تصدر عن الإنسان ، ومعنى ذلك أن مصدره ربانى لذلك كان يخلو من الذاتية والأنانية والنزعات النفسية والقومية .

إن التشريع القرآنى قد بلغ من الدقة والشمول ما يجعله صالحا لكل زمان ومكان وصدق الله العظيم إذ قال : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾[1] فنبهنا إلى شمولية شريعته وقال : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَت آيَاتُه ﴾ فدل على كمالها واتساقها ، وقال : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهَ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا ﴾[2] فدل على وحدتها وتجانسها .

ولكى نبين ذلك ينبغى أن نبرهن على تلك النظرية التى تقول : « النص القرآنى معجز بتشريعه كما هو معجز ببلاغته » ،وذلك يقتضى أن نتناول بالتحليل عدة أمثلة تشريعية :

* *

المثال الأول : الخمر :

لقد عقد مالك بن نبى مقارنة فى هذا الموضوع بين تشريع القرآن وبين التشريع الأمريكى فيما سمى عهد التحريم ، واستنتج أن هذه المسألة التى حلها القرآن ببساطة شديدة بأسلوبه الربانى المحكم ، قد أثيرت بعد ثلاثة عشر قرنا فى أمة صارت اليوم – بالمقياس المادى – أرقى الأمم حضارة ، هى الولايات المتحدة الأمريكية ، فقد حرم هذا المخدر بقانون أعدت لتنفيذه منذ سنة 1918 م وسائل هامة تمثلت فى أسطول

(1) الأنعام : 38 . (2) النساء : 82 .

بحرى ومراقبة جوية وأخرى علمية فكانت النتيجة هر الفشل الكامل لدرجة أن حدث تعديل فى الدستور عام 1933 م لصالح الخمر والخمارين (1) .

هذا الوباء الذى جندت له إمكانات حربية فلم تقض عليه كيف قضى عليه القرآن ؟ عرفنا من قبل أن القرآن معجز ؛ لأن منزله عليم لدرجة الإحاطة المنقطعة النظيرَ بالموضوعات التى يعالجها ، فهو خبير بالأساليب التى يعالج بها أمراض المجتمعات ، ومن ثم كانت الطريقة التى تمت بها المعالجة قد مرت بطرق تدريجية منها بيان الأسباب والعلل التى من أجلها تم تشريع التحريم للخمر ، ولعل بيان العلة يبدو للوهلة الأولى بسيطا ولكن عند التأمل يظهر أنه أساسى جدا ودليل ذلك أن عالما أوروبيا مستشرقا هـــو : (مونتجومرى وات) قد قال بعد تفكير عميق : « يبدو إذن أن من الممكن أن السبب الرئيسى لتحـــريم الخمر كان على صلة بالدين الـــوثنى نجهلها » (2). فبغض النظر عن أهدافه فقد بين أن البحث فى العلة مهم .

ولبيان جوانب هذا الموضوع لنصل إلى الإعجاز ينبغى الوقوف عند :

(أ) التشريع لتحريم الخمر فى مكة :

من العجيب أن القرآن الكريم قد عرض لذكر « مصادر الخمر » ولم يبد بشأنها حكما حتى ليظن من لا يعرف منهج التشريع القرآنى أنه سكت عنها ، ولكن الأمر فى الواقع ليس كذلك تماما ، فقول الله تعالى : ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (3) يلمح هنا للعلة ولا يصرح بها ؛ لأن هذه الآية نزلت بمكة ، وهى الفترة التى يتسم ما نزل بها من القرآن بالطابع العقدى الذى يستهدف إصلاح التصورات ويمهد النفوس لتقبل التشريعات التى تنسجم مع تلك العقيدة الجديدة ، يقول قطب : « هذه الثمرات المنبثقة عن الحياة التى بثها الماء النازل من السماء تتخذون منه سكرا ، والسكر : الخمر ولم تكن حرمت بعد ، ورزقا حسنا ، والنص يلمح إلى أن الرزق الحسن غير الخمر وأن الخمر ليست رزقا حسنا ، وفى هذا توطئة لما جاء بعد من تحريمها ، وإنما كان

---

(1) مالك بن نبى : الظاهرة القرآنية : 284 .

(2) مونتجومرى وات : محمد فى المدينة : ص 457 .

(3) النحل : 67 .

يصف الواقع فى ذلك الوقت من اتخاذهم الخمر من ثمرات النخيل والأعناب ، وليس فيها نص يحلها بل فيه توطئة لتحريمها » [1] .

والحق أن مجرد الوصف للخمر بأنها « سكر » يختلف عن الرزق الحسن ، يعنى التلميح لتركها خاصة إذا علمنا أن الرسول ﷺ أرسل ليحل « الطيبات » ويحرم « الخبائث » ، والسكر خبيث ، مما يستحضر إلى الأذهان صورة تحريمه ، ولكن لماذا لم يصرح بتحريمه ؟ إنه لم يصرح لأن التحريم يتطلب رعاية الحرمة ، وهذا من عمل الدولة ، ومن المعلوم أن الدولة لم تقم بعد .

(ب) التشريع لتحريمها فى المدينة :

من المعلوم أن قرآن المدينة يغلب فيه طابع التحليل والتحريم على الأسلوب القرآنى الذى يربط بين ثلاث دوائر أساسية هى : العقيدة والعبادات والمعاملات بما فى ذلك الأخلاق الفردية والجماعية .

وبهذه الطريقة جرى التشريع لهذه المسألة الخطيرة التى تأتى خطورتها من كون المدمنين عليها تصير جزءا من تكوين دمهم يطلبها كلما خفت نسبتها فيه ،وربما لذلك كانوا يقولون : « ما حرم الله شيئا من الخمر » [2] .

فقد نزلت أول آية تتعلق بالخمر ضمن سورة البقرة وهى سورة مدنية ، فى شكل إجابة عن سؤال استفسارى حول الخمر والميسر ، كما يلى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ [3] .

وكونها إجابة عن سؤال يعنى أن الآية التى نزلت فى مكة قد أعطت ثمارها فقد تهيأت النفوس بما بث فيها من حيرة وبدأت تسأل عنها أهى ضارة أم نافعة ما دامت قد وصفت بأنها مسكرة وليست من الرزق الحسن ، وعلى هذا الأساس كان الجواب بقدر السؤال ﴿ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ وبهذا الوصف (الإثم الكبير) يعظم خطرها فى النفوس ويزداد حذرها منها ، لأنها من الإثم الذى هو قاعدة فى التحريم حتى قال بعض العلماء : « فى هذه الآية ما دل على تحريم الخمر لأنه سماه إثما وقد حرم الإثم فى

---

(1) فى ظلال القرآن : 4 / 2181 . (2) الجامع لأحكام القرآن : 6 / 286 .
(3) البقرة : 219 .

آية أخرى وهى قوله عز وجل : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ ﴾ (1، 2) .

فهذه الآية المكية هى معلم من المعالم الأساسية التى تجتهد العقل فى إطارها ولذلك الستنتج أولو النهى تحريمها ، أو على الأقل تساءلوا بشأنها هى والميسر ، فكانت الإجابة تخاطب فيهم العقل وتتخذ لذلك أسلوب المقارنة بين المنافع والآثام دون أن تصرح لهم بحكم قاطع ، وذلك لأن فى مثل هذه المســـائل يكون التلميح أبلغ من التصريح ·

ويأتى الأسلوب الثالث في المرحلة الثالثة ليبين أن الجمع بين العبادات والآثام أمر مذموم لا يقبله العقل السوي ، وهذه المرة يكون النداء من الله إلى المؤمنين كما يلى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا ﴾ (3) .

ولا شك أن الجمع بين السكر والجناية في هذه الآية بواسطة الواو يوحي باشتركهما في الخبث مما يستوجب استحالة افترانها بالصلاة ، وهكذا يسرى إلى عقل المؤمن وقد وجه إليه النداء الرباني الذي كان أقرب النداءات إلى النفوس الطيبة معنى ومغزى ضرورة ترك الخمر ، لأنها تذهب العقل الذي هو مناط التكليف · وبذلك يكون على أتم الاستعداد لنبذها ، حتى إذا نزل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِن عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ فِى الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ ، فَهَلْ أَنتُم مُنْتَهُونَ * وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ، فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا البَلاَغُ المُبِينُ ﴾ (4) .

وأمرهم باجتناب « الرجس » وربط ذلك بالفلاح واستفهم بما يشير إلى ضرورة الانتهاء وأمر بوجوب الطاعة وحذرهم وشدد الوعيد – لمن تولى – بعذاب جعله مبهما

---

(1) الأعراف : 33 ·

(2) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن : ص 60 ·

(3) النساء : 43 · (4) المائدة : 90 - 92 ·

حين استخدم الحذف ليكون أكثر تأثيراً وتخويفا ، نقول حتى إذا فعل ذلك قالوا على لسان عمر بن الخطاب الذي كان يدعو الله ليبين في الخمر بيانا شافيا : انتهينا ، انتهينا[1] ، وهكذا أخذوا يكسرون الدنان ويريقون الخمر حتى جرت في سكك المدينة[2] ، وبذلك تحققت المعجزة التي عجز عنها الغرب الأمريكي ، الذي قال أحد علمائه : « تحريم المشروبات المسكرة ميزة معروفة للحضرة الإسلامية وهو يعتمد على هذه الآيات القرآنية » [3] .

والآن أين وجه الإعجاز التشريعي بصفة محددة في هذا المثال ؟

إن الإعجاز يتجلى في عدة مسائل ؛ منها الاعتماد على طرح المشكلة لتشق – كما يقول ابن نبي – طريقها في ضمير الإنسان في هذا المجتمع الذي يحكمه الدافع الخلقي[4] والقيم الجديدة التي بدأت تنمو خلال العقيدة وما يرتبط بها من عبادات ، ومنها التدرج بالأخلاق عن طريق أسلوب تقبيح القبيح لتنفير الفطرة منه ، ومنها مخاطبة العقل ببيان الفروق الجوهرية بين المنافع والمضار والحسن الطيب من الرزق والخبيث النجس من الآثام ، ومنها بيان سوء المزج بين العبادات التي يراد منها التطهر والتقرب من الله كالصلاة وذكر الله ، وبين الفواحش والآثام التي من شأنها أن تفعل في ضمير المسلم عكس ذلك لتجعل الشخصية مائعة ، ومنها تعليل وتفسير أسباب التحريم ؛ لأن ذلك من شأنه الإقناع ، إذ من المعلوم أنه إذا عرف السبب بطل العجب ، ومنها التهديد والوعيد ، ثم توكيدهما بما يوحى للضمير المؤمن بشدة العذاب المنتظر لمن خالف أوامر الله ، كل ذلك دون أن يسكت النص عن ربط النتائج بالفلاح الأكيد لمن اجتنب هذا الرجس ، ولذلك نجد عبارات دالة على ذلك في خاتمة كل آية من الآيات السابقة مثل :

﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴾ ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ﴿ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

---

(1) الجامع لأحكام القرآن : 6/286 . (2) نفسه : 292 .
(3) مونتجومرى وات : محمد في المدينة : ص 455 .
(4) الظاهرة القرآنية : ص 283 .

من كل ذلك يتبين عظمة مصدر هذا التشريع الذي صمم هذه « الخطة الحكيمة التي انتهجها الإسلام في معالجة الأمراض الاجتماعية فقد سلك بالناس طريق التدرج في تشريع الأحكام فبدأ بالتنفير منه بطريق غير مباشر ··· ثم بالتنفير المباشر ··· ثم بالتحريم الجزئى ··· ثم الكلي ، فلّله ما أدق هذا التشريع وما أحكمه[1] ؟! ، وبمثل هذا يكون التشريع معجزا ، لأن البشرية مهما أوتيت من قدرة على التقنين فإنها لا تملك أن تطلع على النفوس بدقة تسمح لها بصياغة قوانين تتحكم في طبائعها الغريبة : ﴿ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تَعْلِنُونَ ﴾ ﴿ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا ﴾ [2] .

* *

المثال الثاني : « الإرث » :

لست أدري أين أضع هذا النوع من الإعجاز ، هل أضعه في الرياضيات فيكون إعجازا علميا ، أم أضعه في التشريع ليكون إعجازا تشريعيا ؟ والواقع أن عظمة القرآن تكمن هنا ، تكمن في هذه الهيمنة المطلقة على جميع التخصصات لا من حيث هي تخصصات مفردة فحسب ، ولكن في كيفية تكاملها في معالجة القضايا إذ نجد المسألة المعالجة خالية من الاعتباط بتاتا ، بحيث يستفاد من كل علم بمقدار ويوظف بدقة وبمقدار وحكمة ·

فقسمة الإرث عملية حسابية دقيقة ، من المستحيل أن تكون من وضع رجل أمي ، لأننا الآن وفي هذا العصر الذي هو عصر العلم بحق نجد صعوبة في تطبيقها وربما في فهمها ، فضلا عن أن نضع لها قواعد ونؤسس لها نظاما ·

ومع ذلك فأنا لا أعد ذلك إعجازا خالدا من هذا الجانب الحسابي الصرف الذي هو عملية ذهنية قد تكتسب بالتدريب والممارسة ؛ إنما وجه الإعجاز هنا في تنزيل العملية الحسابية على الواقعة المالية بحسب المقتضيات الاجتماعية والعلاقات الدموية ، فهذا هو موضع الإعجاز ؛ لأنه يقتضى علما دقيقا بكل تلك الأسرار الحسابية والاجتماعية والدموية من جهة ، وبأسرار العلاقات القائمة بينهما بنسب

(1) محمد علي الصابوني : روائع البيان : تفسير آيات الأحكام : ص 273 ·
(2) البقرة : 216 ·

متفاوتة بحيث ندرك بدقة نسبة الزوجة إلى الزوج ونسبة الابن أو البنت إلى الأب ، ونسبة حاجة كل منهم إلى المال لكي يغطي حاجته دون أن يغمط حق الآخر ، ونسبة ذلك إلى ما تركه من دين ونسبة ذلك إلى ما ترك من وصايا ، وقد انتبه لذلك السيوطي في حديثه عن العلوم المستنبطة من القرآن فقال : «أخذ قوم مما في آية المواريث من ذكر السهام وأربابها وغير ذلك **علم الفرائض** واستنبطوا منها من ذكر النصف والثلث والربع والسدس والثمن حساب الفرائض **ومسائل العول** واستخرجوا منه **أحكام الوصايا** [1].

ولكي نتبين وجه الإعجاز من كتب علينا أن نقرأ الآيات الخاصة بالإرث قراءة علمية دقيقة ، قال تعالى في سورة النساء. (ولوجود هذه المسألة في هذه السورة دلالته) :

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ، نَصِيبًا مَّفْرُوضًا * وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا * وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا * إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ، وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا * يُوصِيكُمُ اللهُ فِى أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ ، فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ، وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ، وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ ، فَإِن لَّمْ يَكُن لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ ، فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ ، مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَا أَوْ دَيْنٍ ، آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ، فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَهُنَّ وَلَدٌ ، فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ، مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ، وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ، فَإِنَ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ، مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ، وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ ، فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن

---

(1) السيوطي : الإتقان في علوم القرآن : 2 / ص 127 .

ذَلِكَ فَهُم شُرَكَاءُ فِى الثُّلُث ، مِن بَعْد وَصِيَّة يُوصِى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ ، وَصِيَّةً مِّنَ الله ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ * تِلْكَ حُدُودُ الله ، وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ * وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾(1) .

من هذا النص القصير نبع علم بأكمله هو **علم المواريث** الذي أدهش بدقته القدماء والمعاصرين حتى قال القرطبي : « هذه الآية ركن من أركان الدين وعمدة من عمد الأحكام وأم من أمهات الآيات ، فإن الفرائض عظيمة القدر حتى إنها ثلث العلم » (2) ولأحكام هذه الآيات وإعجازها وصف الله تعالى نفسه فيها بقوله : ﴿ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ قال القرطبي : إن الله كان عليما بقسمة المواريث ، حكيما حكم قسمتها وبينها لأهلها ، وقال الزجاج عليما بالأشياء قبل خلقها حكيما فيما يقدره ويمضيه منها (3) .

وقد جاءت آيات قسمة الإرث بعد بيان عدة أمور هامة ؛ منها أهمية الأموال في حياة البشرية ، ويتجلى ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِى جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ ﴾(4) ، ومنها ضرورة التأكد من أن اليتامى قد بلغوا الرشد الذي يبعدهم عن السفاهة وإلا فلا تصرف لهم أموالهم إلا بعد الابتلاء ، ومنها واجب إعطاء ﴿ النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾(5) ومنها تعدد الزوجات والأسباب الاجتماعية المرتبطة بذلك .

وهذا يبين أن القسمة التي ستأتي بعد ذلك مبنية على أسس مالية واجتماعية وأخلاقية ومن ثم فهي ليست مما يسهل التشريع فيه بعدالة ، ولذلك لم يترك الله أمرها إلى الاجتهاد ؛ لأن هذا فوق مستوى العقل البشري الذي تتحكم فيه عوامل ذاتية كثيرة فضلا عن الجهل ببعض الأسرار الدقيقة في الحياة الاجتماعية للبشر ، حتى أن الإنسان ليجهل أى أقاربه أقرب له نفعا ، قال تعالى : ﴿ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ﴾ (6) .

والعجيب في أمر هذا التشريع أنه يقدم القاعدة الأساسية التي تعبر عن المسألة

---

(1) النساء : 7 - 14 . (2) الجامع : 5 / 55 . (3) نفسه : 5 / 74 .
(4) النساء : 5 . (5) النساء : 4 . (6) النساء : 11 .

بالإجمال ، فتبين أن الإرث يمس الأنثى كما يمس الذكر ، وأنه يدور في إطار القرابة أصلا ، وأن القسمة فرض من الله في التركة مطلقا قليلة كانت أو كثيرة .

ثم يرجع إلى أصول الحياة وهي ضرورة مراعاة الضعفاء من اليتامى والمساكين بغض النظر عن القرابة الدموية ، وفي ذلك مراعاة للقرابة الإنسانية التي يقتضيها مبدأ الرحمة والقاعدة الخلقية النبيلة .

ثم يعود فيستأنف الحديث في تفاصيل الإرث الذي أحمله في المقدمة ؛ فيحمل من جديد - إجمالا محكما - مسألة القسمة في الأولاد : ﴿ يُوصِيكُمُ اللهُ فِى أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ ﴾[1] ثم يشرع في القسمة بحسب النسب ، والغريب أن البداية كانت بتعيين حق النساء ؛ لأنهن ضعيفات قياسا بالرجال الذين هم قوامون على النساء ، ثم يثني بالآباء : لأنهم ضعفاء في حالة الكبر ، ويعين نسبة الأم ؛ لأنها الأضعف بالنسبة للأب ، وفي جميع تلك الأحوال يقدم الأبناء لأنهم عندئذ أيتاما ضعفاء لا يقوون على شئ ، ولكن قبل ذلك كله لا بد من مراعاة حق صاحب المال المتوفى ﴿ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾ [2]، فهذا حق له بعد موته .

وتختم الآيات بإرهاب شديد لمن يتعدى حدود الله فى هذه القسمة ؛ لما يترتب عل ذلك من جور وظلم ، كما ترغب المؤمن الذي عمل بهذه الحدود في الجنة والنجاة من النار ، وهكذا تنتهي الآيات بتربية الضمير كما بدأت بذلك ، لأنه الأصل في أداء الحقوق والواجبات .

إن الإعجاز التشريعي كالإعجاز العلمي والتاريخي والبلاغي يحصل بسبب العلم المطلق الذي يتصف به من يصدر عنه كل ذلك بالنسبة للعلم النسبي الذي للبشر ، وقد صدق الدكتور محمد شحرور حين قال :« ... وفي هذا يكمن إعجاز القرآن الأكبر وهو الجدل بين النسبي والمطلق » ، [3] على أن يكون القصد بالنسبي علم الإنسان .

إن الإعجاز التشريعي هو الإعجاز الذي لا يمكن أن يتجاوزه أي تقنين بشري ؛ لأنه مهما أحكم فسيظل نسبيا لارتباط عقل صانعه بالمكان والزمان ولقصوره عن معرفة

(1) النساء : 11 . (2) النساء : 11 .

(3) شحرور : الكتاب والقرآن : ص 107 .

خصائص النفس البشرية وما تتطلبه أجواؤها الاجتماعية ، وعلى حد تعبير دراز : فإن « التفسير الديني للكون يتخطى الإدراك العلمي ويسمو عليه ؛ لأنه يوافق الفطرة العلمية ويحتويها ، بل ويتجاوزها إلى مالا نهاية فعندما يقف العلم عند تقدير وملاحظة الأسباب المتتالية ومراحلها الوسطية فإن النظرة الميتافيزيقية لا تقف عند هذا الحد ولا تجد رضاها وإشباعها إلا بالصعود إلى بداية البدايات التي تفسر كل شيء ، ولا يستطيع شيء أن يفسرها تفسيرا كاملا ، فالمتناهي يحتل ركنا صغيرا من اللامتناهي » ويبدو لي أن الشرط الذي وضعه شحرور في هذا الجانب لا أساس له من الصحة ، فقد ذكر أن من مقومات الإعجاز : « أن يكون الموضوع غير تشريعي » [1] ، وهذا يتناقض حتى مع الصفحة السابقة التي ذكر فيها شروط صياغة قانون مطلق [2] ، ويتناقض مع قوله : « فالذي أنزل القرآن هو الله ، والله سبحانه وتعالى مطلق حي باق والناس نسبيون ميتون ، لذا فالقران ليس تراثا وقد صيغ القرآن بصيغة متشابهة لهذا السبب ، بحيث حوى الحقيقة المطلقة من الله والفهم النسبي لهذه الحقيقة من قبل الناس بآن واحد » [3] ، أقول ذلك وأنا أعلم أنه يتعامل مع مصطلح « القرآن » من زاوية ضيقة ترجع للمنطلق الذي بنى عليه دراسته حيث فرق بين النبوة والرسالة في هذا الكتاب المقدس [4] ، واستند على ذلك في بيان وجه الإعجاز فأخطأ كما سنبين من بعد حين نعرض للإعجاز البلاغي ، وتضافر أوجه الإعجاز المختلفة ، يقول ابن عاشور : « نرى من أعظم الأساليب التي خالف بها القرآن أساليب العرب أنه جاء في نظمه بأسلوب جامع بين مقصديه وهما : مقصد الموعظة ومقصد التشريع ، فكان نظمه يمنح بظاهره السامعين ما يحتاجون أن يعلموه وهو في هذا النوع يشبه خطبهم ، وكان في مطاوي معانيه ما يستخرج منه العالم الخبير أحكاما كثيرة في التشريع والآداب وغيرها » [5] ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي

---

(1) نفسه : ص 190 .
(2) نفسه : ص 188 .
(3) نفسه : ص 208 .
(4) نفسه : ص 103 .
(5) التحرير والتنوير : 1 / 115 - 116 .

لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [1] أى فى كل آيات أحكامه ؛ فى الأحكام الخلقية والعملية والعــقدية ، ويربط بيـــنها ربطا محكما مما ينفــى عنها التناقض أو التخلف أو المفسدة فى أى زمان وفى أى مكان ، لأن الله لم يرد به إصلاح قومية من القوميات فى بقـــعة محـــدودة وإنما أنزله لإصلاح الناس كافة ، ولذلك ركز على إنسانية الإنسان ، أى على الثابت فيه ، وسكت عن المتغير الذى هو من طبيعة الحياة .

وبمعنى آخر أن إعجاز التشريع القرآنى يأتيه من كماله ، بحيث يراه العاقل من متخصصى التشريعات أنه لا يفتقر لأى كتاب فى أى أمر من الأمور فهو مكتف بنفسه مستغن عما سواه ، فى كافة التشريعات الكلية التى تقوم عليها الحياة ، لذلك صدق عليه ما يصدق على السنن الكونية من الثبات ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً ﴾ [2] .

إن آية نبوة محمد ﷺ لم تكن ذات طابع مادى كما الحال عند بقية الأنبياء وإن وجدت معه بعضها كما سنرى خارج النص القرآنى ، وإنما كانت كتاب هداية وتنظيم للبشرية ، ولذلك يرى إبراهيم عرجون أن الإعجاز بالهداية من أهم أبواب البحث فى إعجازه ، فبهذا الجانب سبق فلا يلحق لأنه خلّد الرسالة ومكنها من العالمية والشمولية ، فالهداية أساس دعوته عنها تفرعت آدابه وتشريعاته [3] وهى السمة التعجيزية التى لا تتخلف فهى ملازمة للبلاغة القرآنية ولئن صرح القرآن أحيانا بالتحدى فى الجانب البلاغى كما يفهم من قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مُفْتَرَى ﴾ فإن **ذلك لا يعنى السكوت عن التشريع من جهة الإعجاز ، بل العكس هو الصحيح ، إذ هو أشق على الإنسان وأصعب ، لأن القدرة على تشريع ما به تصلح الإنسانية كلها** يحتاج إلى عقل مهيمن يمكنه أن يبتكر القوانين التى تتسم بالعالمية والخلود ، وهذا يقتضى أن يخرج الإنسان من دائرة التأثير الزمانى والمكانى ، وهو محال بالنسبة للإنسان كيفما كانت عبقريته ، ولذلك قال تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللهِ هُوَ

---

(1) الإسراء : 9 .   (2) فاطر : 43 .

(3) محمد الصادق إبراهيم عرجون : القرآن العظيم هدايته وإعجازه : ص 155 .

أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [1] ، فالتحدى هنا وقع إلى الهداية لا إلى النظم والبلاغة ، هذه الهداية التى أرغمت بحجيتها أحد المستشرقين ليقول : « ولقد ألححنا خلال هذا الكتاب غالبا على استراتيجية محمد السياسية البعيدة النظر ، وعلى إصلاحاته الاجتماعية ، وقد دل على بعد نظره فى هذه المسائل الانتشار السريع الذى جعل من دولته الصغيرة إمبراطورية ، وتطبيق المؤسسات الاجتماعية على الظروف المجاورة واستمرارها أكثر من ثلاثة عشر قرنا » [2] .

ويقول بصدد التشريع المالى : « تدل هذه التعاليم والتنظيمات بصورة مدهشة على استمرار رسالة القرآن » [3] ، ويقول بشأن تشريعات استتباب الأمن والسلام والطمأنينة : « لم يكن عند محمد شرطة تحفظ الأمن ، فكان جميع الناس ضمنيا رجال شرطة أو أشرارًا ، ولو قلنا بأنه كان يملك سلطة خارقة لما استطاع محمد سوى معاقبة الأشرار ، ولكنه خلال الجزء الأكبر من الفترة المدنية لم يكن له قوات للقيام بهذا العمل ... وهكذا فإن الطريقة التى عالج بها محمد هذه المسائل ، وإن لم تكن ثورية ، كانت نتيجتها ثورة فتحت عهدا جديدا فى الأمن والسلامة » [4] .

ويقول بخصوص التشريع لتعدد الزوجات : « قد عالج هذا التغيير المساوىء التى نتجت عن ازدياد النزعة الفردية إذ أن تعدد الزوجات يسمح للنساء الكثيرات بالزواج الشريف ، كما يضع حدًّا لاضطهاد الأرامل اللواتى تحت الوصاية كما يخفف من إغراء الزواج المؤقت الذى يسمح به مجتمع ذو عوائد (أمية) ، ويجب اعتبار هذا الإصلاح بالنظر لبعض العادات السائدة آنذاك تقدما مهما فى تنظيم المجتمع » [5] ، « لقد قام محمد فى ميدان الزواج والعلاقات العائلية بتنظيم عميق واسع للبناء الاجتماعى » [6] .

وقد وجد هذا الباحث شيئا من الصعوبة فى فهم القواعد المتعلقة بتقسيم الميراث

(1) القصص : 49 .
(2) مونتجومرى واط : محمد فى المدينة : ص 511 .
(3) نفسه : ص 393 .   (4) نفسه : ص 414 .
(5) نفسه : ص 424 .   (6) نفسه : ص 441 .

ولكنه يرى : « أن القوانين التى شرعها محمد تهدف إلى إزالة المساوىء التى يؤدى إليها الانتقال من نظام الملكية الجماعية إلى نظام الملكية الفردية » (1) .

ولم يكن هذا المستشرق الذى خصص كتابين كبيرين لدراسة محمد ﷺ من خلال القرآن والسنة فى مكة والمدينة هو وحده الذي أدلى - بغض النظر عن بعض هفواته وأغراضه - بهذه الأحكام التى فرضت نفسها عليه فرضا ، وإنما هناك كثير غيره ، وقد خصص سفيان بن الشيخ الحسين فى كتابه : « القرآن الكريم بين علومه وإعجازه » فصلا لآراء أعداء الإسلام فى القرآن ، ومن الطبيعى أن تكون جل آرائهم المحترمة فى جانب المضمون ؛ إذ ليس لكثير منهم الإمكانات اللغوية المسعفة للحكم على البيان ، ولكن أحكامهم على الشريعة تبيّن اندهاشهم أمام إعجازها حتى قال الإنكليزى كارل ليل : « كل دين لا يساير الحضارة أنى سارت فاضرب به عرض الحائط ، وإنى لما بحثت فى تاريخ الديانات لم أجد دينا يساير الحضارة أين سارت ويمشى معها إلا الدين الإسلامى » (2) .

* * *

سر الإعجاز التشريعى :

لقد لاحظنا حتى الآن فاعلية التشريع الإسلامى فى واقع الحياة البشرية ؛ إذ شهد غير المسلمين من الدارسين بقدرته المعجزة على تغيير النفوس نحو الأصلح ، ومن ثم القدرة الهائلة التى غيرت التاريخ فى وقت قليل جدا ، وعبر غير واحد منهم على إعجابه الشديد بفاعلية هذا التشريع حتى ليشعر الإنسان أن كاتب هذه التعبيرات من الغربيين المؤمنين بالقرآن ورسول الله محمد ﷺ .

والآن ألا يحق لنا أن نتساءل عن أسرار ذلك الإعجاز ؟ إننا لم نتحدث هنا عن الطعم البيانى الذى تميز به تشكيل آيات الأحكام حتى بلغ من الجمال حدًّا منقطع النظير فى القوانين والتشريعات الوضعية ؛ لأن ذلك له موضعه الخاص ، وإنما سنعمد

(1) نفسه : ص 442 .

(2) سفيان بن الشيخ : القرآن الكريم بين علومه وإعجازه : ص 225 .

– فقط – إلى أسرار الإعجاز التشريعى الصرف ، لنبين بعد ذلك أن هذا لم ولن يصدر عن بشر !! وصدق الله إذ قال : ﴿ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ .

حين نتأمل التشريع الإسلامى لقضية من القضايا المتعلقة بالعبادات أو المعاملات نجدها تصاغ فى إطار تتكامل فيه جميع القيم (الخير ، الحق ، الجمال) ، حيث نجد النص الذى هو بمثابة قانون يحكم العلاقات بين الناس يتضمن الأخلاق ولا ينفصل عنها ، بل يكون وخز الضمير هو المعتمد بصفة رئيسية فى ذلك النص القانونى ، وقد عبر الرسول ﷺ عن ذلك بقوله : « إنما الأعمال بالنيات » [1] ، فالنية هى « لب العمل الأخلاقى » [2] .

فالله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِن خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ﴾ [3]، ويقول : ﴿ وَإِن تُبْدُوا مَا فِى أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ﴾ [4] ، وهذا سر من أسرار الإعجاز التشريعى فى الإسلام .

وقد وضح الدكتور عمر سليمان الأشقر فى كتابه « خصائص الشريعة الإسلامية » أهم العوامل المميزة لهذا التشريع ، ومنها (العصمة ، القدسية ، الكمال ، اليسر ، ورفع الحرج ، العدل والموضوعية ، حفظ مصالح العباد ، امتزاج القانون بالأخلاق ، المزج بين الجزاء الدنيوى والأخروى . . .) [5] .

ولا شك أن العصمة من الخطأ فى كل التشريعات القرآنية لهى أم المعجزات ، إذ لم يتسن فى أى وقت من الأوقات لأى قانون أن يكون معصومًا من الخطأ ، ولقد حاول المستشرقون والمغرضون من التغريبيين الملحدين أن يجدوا فيه مطعنا فلم يفلحوا ، ولذلك ظل كل ما يقولونه من كلام موجها لسلوك الناس لا التشريع ، فهم حين يتحدثون عن التخلف ويتهمون الدين بأنه أفيون الشعوب [6] فإنهم لا يملكون القدرة لبيان النصوص التى يمكن أن تتسبب فى ذلك وإنما يعتمدون على واقع

---

(1) حديث صحيح : متفق عليه فى الصحيحين .

(2) دراز : مدخل إلى القرآن الكريم : ص 106 .

(3) البقرة : 197 . (4) البقرة : 284 .

(5) عمر سليمان الأشقر : خصائص الشريعة الإسلامية : ص 33 - 100 .

(6) الدين أفيون الشعوب : للعقاد .

الناس ، ولا شك أن واقع الناس يكون شاهدا على النص فى حالة التعامل معه ، وإعلان الطاعة المطلقة لتشريعاته ، أما وقد ﴿ اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ فإن ذلك لا يقوم دليلا على القرآن ، وإنما يقوم دليلا له ، والقرآن نفسه نبه إلى ذلك فقال الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَا حَشَرْتَنِى أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ، وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى ﴾ (1) ، وذلك بعد أن قال : ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى ﴾ .

فالعصمة التى جعلت من التشريع نصا صالحا لكل الناس فى أى مكان أو زمان كانوا هى التى منحت القرآن الخلود ، بحيث يصلح للبشرية فى كل زمان لأنه يخاطب فيها « الفطرة » .

ولا شك أن مخاطبة الفطرة خاصية من خصائص هذا التشريع ، وربما وجدت بعض التشريعات على هذا الأساس ولكن ميزة القرآن أن نصه يخاطب الفطرة مخاطبة العارف لكنهها وكيفية استجابتها للحق ونكوصها عن الباطل ، ومن ثم جاءت أهمية المزج بين العقيدة والتشريع والأخلاق فى النص التشريعى مما منحه الفاعلية فى تغيير الواقع والنفوس ، يقول سيد قطب : « إن هذه الرسالة تخاطب الإنسان من وراء الظروف والبيئات والأزمان فهى تخاطب فطرة الإنسان التى لا تتبدل ولا تتحور ولا ينالها التغيير : ﴿ فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (2) وفضل هذه الرسالة شريعة تتناول حياة الإنسان من جميع أطرافها ، وفى كل جوانب نشاطها ، وتضع لها المبادىء الكلية والقواعد الأساسية فيما يتطور فيها ويتحور بتغير الزمان والمكان ، وتضع لها الأحكام التفصيلية والقوانين الجزئية فيما لا يتطور ولا يتحور بتغير المكان والزمان ، وكذلك كانت الشريعة بمبادئها الكلية وبأحكامها التفصيلية محتوية كل ما تحتاج إليه حياة

---

(1) طه : 124 - 126 وقبلها : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى ﴾ .

(2) الروم : 30 .

الإنسان منذ تلك الرسالة إلى آخر الزمان من ضوابط وتوجيهات وتشريعات وتنظيمات لكى تستمر وتنمو وتتطور وتتجدد حول هذا المحور وداخل هذا الإطار » [1] ، فالشريعة الإسلامية حينما تخاطب الفطرة الإنسانية تحرك أول ما تحرك الضمير ومن ثم تكون « مقبولة عند أهل العقول الراجحة من الناس الذين يستطيعون فهم مغزاها فيتقبلون ما يأتيهم منها بنفوس مطمئنة وصـــدور منشرحة فيتبنونها دون تردد ولا انقطاع » [2] .

ويترتب على ما يحدث من التبنى الالتزام لا الإلزام ، ولذلك تميزت هذه الشريعة بفاعلية التغيير ، بينما يسقط القانون ويفشل فى إصلاح المجتمعات ، لأن التشريع حينما يربط الثواب والعقاب بالله ينمى فى الإنسان استمرار الرقابة ذات الطابع القدسى ، أما القانون الوضعى فيربط الثواب والعقاب بالإنسان ومن ثم ينمى فيه الرياء والكذب والمخادعة وضرورة الإلزام ، وإذا فلت المجرم من حراسة الإنسان مرة ومرة تعود المخالفات القانونية وداوم عليها ، أما التشريع فيربط الإنسان بعاملين : دنيوى وأخروى مما يجعل أوامره ونواهيه نافذة ، وهذا جانب من إعجازه ، لأنه ليس من السهل أن يشرع الإنسان قانونا يجمع بين :

1 - مناسبته للفطرة .
2 - تبكيت الضمير الخلقى .
3 - اختيار العقوبة المناسبة للردع والإلزام .
4 - تكوين الإرادة الالتزامية .

وقد لاحظ الإمام محمد أبو زهرة أن هناك عدة اختلافات بين القوانين والشريعة الإسلامية منها « أن أكثر العقوبات فى القوانين الحاضرة كانت بالحبس الذى يقطع المحبوس عن الحياة والأحياء وعن كل عمل ، وفى ذلك تعطيل لقوى إنسانية وبث روح العداوة بين المجرم والمجتمع إن لم تكن قد نبتت ، وتنميتها إن كانت قد وضعت بذورها » [3] .

---

(1) فى ظلال القرآن : 6 / 482 .
(2) عمر سليمان الأشقر : خصائص الشريعة الإسلامية : ص 60 .
(3) الإمام محمد بو زهرة : الجريمة : ص 30 - 31 .

كما استنتج العلامة أبو الأعلى المودودى بعد دراسة تجربتين فى منع الخمر : إحداها إسلامية وثانيتهما أمريكية ، أن ما يجرى على التجربتين يسرى على أصول القانون والتشريع ، وإن تدبرت أسباب هذا الفرق العظيم تبينت أمورا هى كالأصول الكلية الثابتة ، لا فى الخمر وحدها ، بل فى جميع مسائل القانون والأخلاق ، ذلك لأن القوانين تعتمد رأى الإنسان إذا تراجع فى مسائلها الخاصة والعامة ، وقد يكون صوت العامة أقوى من صوت الخاصة إذا صار الأمر إلى الاقتراع ، أما الشرع الربانى فإن جميع أصوله ربانية أو نبوية ، وليس للرأى الإنسانى فى كبريات الأمور دخل إلا عن طريق الاستنباط والقياس ، وعليه فإن نفاذ القانون الوضعى يتوقف على أهواء العامة بينما يتوقف نفاذ التشريع الإسلامى على التركيز على الإيمان بالله ، فقبل أن يتعرض لحل مشكلة أو لمسائل التمدن والاجتماع والأخلاق وقبل أن يطالب الإنسان بطاعة القوانين يدعوه إلى الإيمان بالله ورسوله أولا ، فمتى آمن بطل حتى البحث عن التحليل لأسباب التحريم » ، ومن ذلك كله يتضح ويثبت أن بعث الحاسة الخلقية فى الإنسان وتنشئة الضمير المحاسب فيه ثم تزويد هذا الضمير من القوة بما يتغلب به على النفس الأمارة ، كل ذلك ليس من دور العلم والحكمة ولا هو فى طوق العقل والمنطق بل هو مما لا يحققه إلا الإيمان وحده » [1] .

ومعنى هذا الكلام أنه متى تحقق الإيمان تحققت قدسية مصادر التشريع كتابا وسنة ، وهذه القدسية ذات ثقل كبير فى نفاذ التشريع فى الوسط الاجتماعى ، تلاحظها حتى عند العصاة ، مما يكشف عن سبب التوتر النفسى الذى يعيشه خَمَّارٌ مثل أبى نواس فى المجتمع العباسى ، ذلك التوتر الذى عاشته الغامدية فلم يهنأ لها بال حتى وعدها رسول الله ﷺ بأن ينفذ فيها حد الله ، وهو الذى كان وراء حياة الزهد والتصوف فى سيرة رابعة العدوية .

والسبب فى ذلك أنه « ما دام الإنسان يعتقد أن هذه الشريعة من عند إلهه وخالقه ومعبوده الذى بيده أمره فى الدنيا وإليه مآبه فى الآخرة فإن لها فى نفسه شأنا عظيما واحتراما كبيرا ولذلك يحرص على تنفيذها بصدق وإخلاص ، ويحذر من

---

(1) أبو الأعلى المودودى : نحن والحضارة الغربية : ص 65 - 69 .

مخالفتها ولو كان فى بروج مشيدة لا يطلع عليه أحد ، لانه يعلم أن الله العليم الخبير يطلع عليه ويراه » [1] ، ومن أجل هذه القدسية نجد المولى تبارك وتعالى يبدأ آيات الأحكام غالبا ابتداء موجه للمؤمن خصـــوصا ، وينهيها بما يربط الحكم بالمشرع الحكيم [2] .

ولعل من أهم القواعد التى جعلت من هذا التشريع معجزة احتواؤه لمعانى الرحمة والعدل وهما نتيجتان طبيعيتان لمصدر هذا التشريع الذى من أسمائه الحسنى الرحمان والعـــدل والمقســـط ، وقد : ﴿ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [3] وبين أنه ﴿ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [4] ونفى عن نفسه الظلم مطلقا﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[5] ، فكل ما يصدر عنه عدل ، أما تقنينات الإنسان فإنها تعجز عن الانسلاخ عن الأهواء والميول ، وما إباحة اللواط فى بريطانيا عن عصرنا ببعيد .

ثم إن استجابة الشرع لمصالح الفرد كاستجابته لمصالح المجتمع بشكل متوازن يجعله مقنعا بشكل مبهر ، ويجعله فعالا ، والمسألة ليست فى ازدواجية الاستجابة التى تنعدم فى التشريعات الوضعية ، ولكن فى هذه القدرة العجيبة التى تجعل مصالح الفرد لا تتعارض مع التشريع لمصالح المجتمع ، بحيث ترى نصوص الزكاة تلبى المصلحتين معا ، ونصوص الميراث تلبى المصلحتين معا ، وهكذا ...

« فالمسلم لا يشعر أن هناك تعارضا بين تحقيق مصالحه وتحقيق مصالح المجتمع الذى يعيش فيه ، وتلك قضية حار علماء القانون فى كيفية علاجها » [6] .

وهناك مسائل لم يكن القانون الوضعى يهتم لها ، فضلا عن أن يشرع لها للطافتها ، ومثال ذلك أحكام السحر وسوء الظن ، والغيبة والنميمة ، واعتزال النساء فى المحيض ، والمحرمات من النساء ، والظهار ، والربا ، وغض البصر ، والعورات

---

(1) عمر سليمان الأشقر : خصائص الشريعة الإسلامية : ص 14 .
(2) انظر البقرة : 153 ، 162 ، 172 ، 178 ، 183 ، 254 ، 264 ، 267 ، 278 ، 282 .
(3) الأنعام : 12 . (4) المائدة : 42 .
(5) آل عمران : 182 .
(6) خصائص الشريعة الإسلامية : ص 90 .

الزمانية الثلاث ، والكذب ،ونظام الإرث ، وقد رأينا الفكر المعاصر يرى فى بعضها نسجا من الخيال .

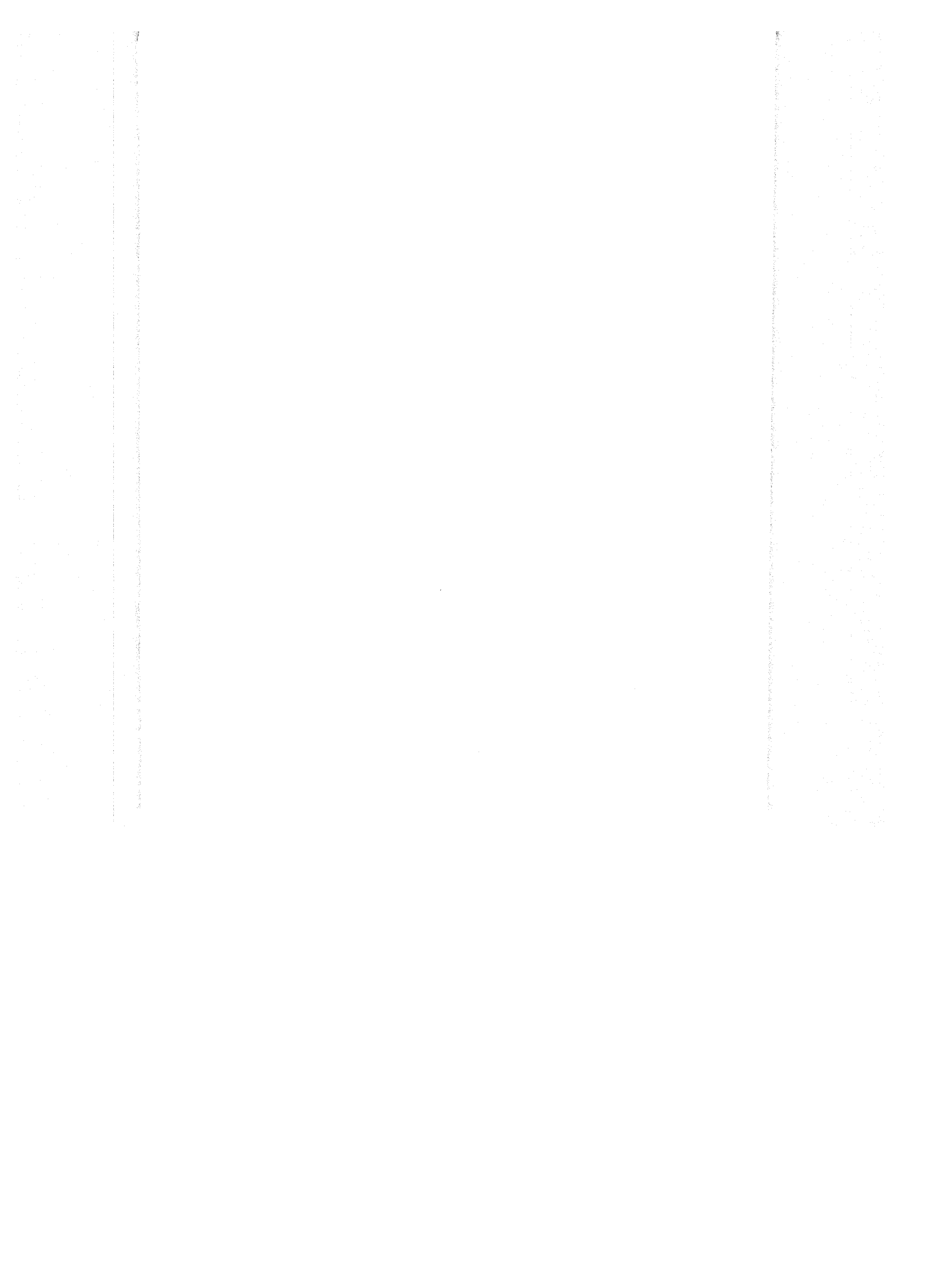
فهذه كلها مما لا يوليه التشريع الوضعى أهمية ؛ لأنها من اللطافة بحيث لا يدرك العقل الإنسانى مضارها ببساطة ، ولكن آثارها السيئة ومضارها الكبيرة لا قبل للمجتمع بها متى اجتمعت فيه ، وقد يصنفها الفلاسفة فى مجال الأخلاق ؛ولكن ذلك شيء وتحريمها شيء آخر ، لأن التحريم يترتب عليه فضلا عن الجزاء الدنيوى جزاء أخروى ، وقد لاحظ الدكتور الأشقر أن أهمية الأخلاق فى الأنظمة التشريعية الإسلامية تتجلى فى أوجه ثلاثة ؛ العلاقات الدولية والفردية ، ومراعاة الأخلاق فى الوسيلة والغاية ، وارتباط الأخلاق باستشعار تقوى الله ، فالشريعة الإسلامية لا يمكن أن تجيز أمرا يخالف الأخلاق ، بينما القوانين الوضعية تبيح حتى الزنا ولا تعتبره جريمة إلا فى حال الإكراه .

والآن وبعد كل هذا ألا يمكن أن نقول مع صاحبى تفسير المنار : « لا شك أن هذا الوجه من أظهر وجوه الإعجاز فإن علوم العقائد الإلهية والغيبية والآداب والتشريع الدينى والمدنى والسياسى هى أعلى العلوم ، وقلما ينبغ فيها من الذين ينقطعون لدراستها السنين الطوال إلا الأفراد القليلون ، فكيف يستطيع رجل أمى لم يقرأ ولم يكتب ، ولا نشأ فى بلد علم وتشريع أن يأتى بمثل ما فى القرآن منها تحقيقا وكمالا ، ويؤيده بالحجج والبراهين بعد أن قضى ثلثى عمره لا يعرف عنها شيئا ، ولم ينطق بقاعدة ولا أصل من أصولها ولا حكم بفرع من فروعها إلا أن يكون ذلك وحيا من الله تعالى » .

النتيجة : بعد كل ما سبق ألا يمكن أن نصوغ النظرية التالية :

النص القرآنى معجز بتشريعه كما هو معجز ببلاغته ، وأن تفسير هذا الإعجاز يتطلب نظرية خاصة هى نظرية الإعجاز التشريعى .

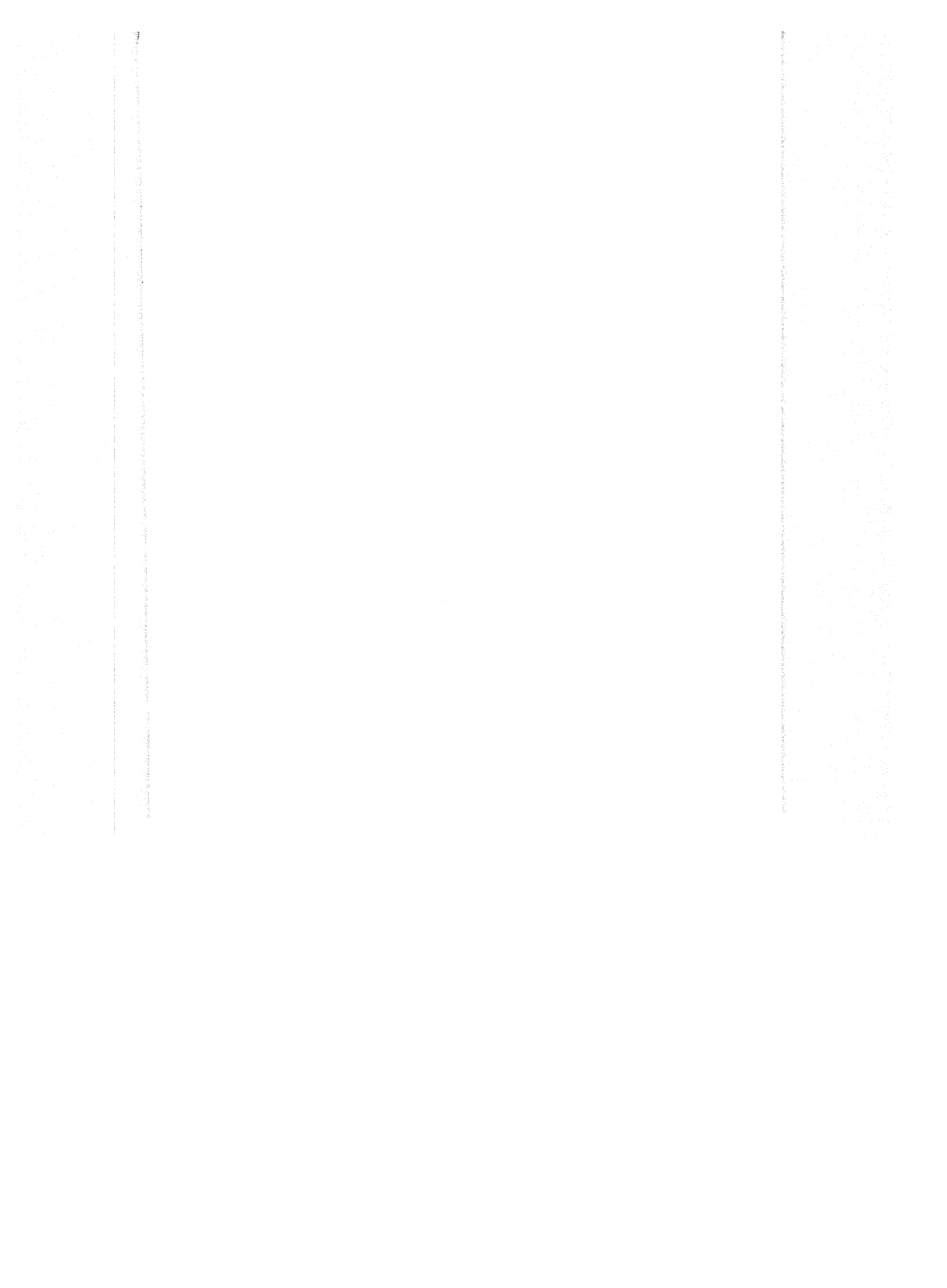
* * *



نظرية الإعجاز القرآنى
التنبؤى أو النظرية التاريخية

1 – نبوءات المستقبل والأخبار الموغلة فى النسيان .

2 – قوانين وسنن كونية مستقبلية تتسم بالديمومة .



1 - نبوءات المستقبل [1] والأخبار الموغلة فى النسيان

(أ) الأخبار المنسية الموغلة فى القدم :

إن القرآن الكريم يعد الكتاب الوحيد الذى يستحق الثقة العلمية الكاملة التى لا يتطرق إليها الشك مطلقا بالنسبة لتوثيق الأحداث التاريخية التى لم يتمكن علم التاريخ البشرى من تسجيلها لكونها كانت تضرب فى عمق التاريخ .

ولما كانت هذه المعلومات مما يستحيل التوصل إليها عن طريق الوسائل المتاحة للبشر زمن نزول القرآن فإن ذلك جعلها ضمن المعجزات الخاصة بالنبى الأمى محمد ﷺ كالإخبار بأن أول بيت وضع للناس فى هذه الأرض هو بيت الله بمكة فقال تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ، وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ [2] .

ولهذا السبب كانت عبارات معينة تتكرر فى القرآن الكريم لتبين للناس هذه الحقيقة الإعجازية كلما ورد فى القرآن خبر من هذا النوع الذى صار نَسْيًا منسيًّا ، ومن ذلك قول الله تعالى بعد عرض دقائق تخص حياة مريم أم عيسى عليهما السلام ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ، وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [3] ، فعبارة ﴿ مَا كُنتَ لَدَيْهِمْ ﴾ تبين أن مثل هذا الخبر لا يمكن أن ينقله بهذه الدقة الوصفية إلا من حضر الوقائع وشهد بنفسه الأحداث أو شارك فى صنعها وهذا لم يكن ليتسنى زمن نزول الوحى لأحد نصرانى أو يهودى أو غيرهما من أهل الكتاب فضلا عن أن يكون من رجل أمى بعث فى الأميين .

وتتكرر هذه الظاهرة التعبيرية فى سور كثيرة نذكر منها مثلا قوله بعد قصة سيدنا

---

(1) محمد حسين فضل الله : من وحي القرآن : 14 / 35 وانظر الصابونى : التبيـان : ص 122 .

(2) آل عمران : 96 - 97 .　　(3) آل عمران : 44 .

نوح مع قومه : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ، مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا ﴾ [1] ، يقول سيد قطب معلقا على هذه الآية : « ... هذا القصص غيب من الغيب ، ما كان يعلمه النبى وما كان معلوما لقومه ، ولا متداولا فى محيطه إنما هو الوحى من لدن حكيم خبير ... وهذا حسبنا فى إدراك طبيعة ذلك الحدث الكونى الذى جاءنا خبره من المصدر الوحيد الوثيق عن ذلك العهد السحيق ، الذى لا يعرف التاريخ عنه شيئا ، وإلا فيومها أين كان التاريخ ؟! إن التاريخ مولود حدث لم يسجل من أحداث البشرية إلا القليل وكل ما سجله قابل للخطأ والصواب والصدق والكذب والتجريح والتعديل ... » [2] .

إن القرآن يحمل كثيرًا جدًّا من أخبار شعوب بائدة وأمم فانية يعجز إلى اليوم علماء الآثار مع اختصاصهم فى التنقيب عن أخبار تلك الأمم ، فلا نعرف عنها إلا بعض ما حوته الأساطير من أخبار تجمع بين الخرافة وأنشطة الخيال القصصى ، أما القرآن فإنه لا يتوقف عند مجرد ذكر الحادثة ولكنه يتعمق حتى في تصوير الحالات النفسية التي كانت تصاحب الحدث ، وينقل لنا حتى الحوار الذي كان يجري بين أفراد من تلك الأمم والشعوب ، فهل يمكن لبشر أن يصنع ذلك ؟

ينبغى أن نقول إن من السذاجة أن نفكر أن رجلا في ذلك الوقت يجيد التوثيق التاريخي أدق مما يفعله اليوم خبراء التاريخ كما يقول مونتيه [3] .

من الذي يستطيع أن ينقل لنا بتلك الدقة المتناهية أخبار سيدنا يوسف عليه السلام في كامل مراحل حياته بما في ذلك الرؤى التي يراها أو تلك التي يقصها له سجناء في غياهب السجن ؟ إن القرآن وحده الذي يقصها ثم يعقب عليها بقول العليم الخبير : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ [4] .

وما الذي يملك القدرة على أن يرجع بذاكرته أبا عن جد ليتدارك أسرار خبر

---

(1) هود : 49 .

(2) فى ظلال القرآن : 4 / 1880 - 1881 .

(3) مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية : ص 151 .

(4) يوسف : 102 .

موسى عليه السلام والله يقضي الأمر إليه ، أو وهو يناديه في جبل الطور ؟ لا أحد يملك ذلك ، ومن هنا كان الله بعد أن يعرض لمثل هذه الأخبار يقول : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ۞ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ، وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۞ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [1] .

من كل ذلك يتبين لذوي البصائر أن القرآن معجزة خبرية لم يقدمها أحد قبل محمد صلى الله عليه وسلم ولا بعده ، وقد يكون علماء التاريخ والآثار والحضارات أكثر الناس اعترافا بهذه الحقيقة لما يتمتعون به من حس تاريخي مرهف ، ولما يتمتعون به من خبرة في البحث تعلمهم أن الوصول إلى الحقائق بهذه الدقة يعجز عنه ذوو الاختصاص في مجالات تاريخية محددة فضلا عن أن يدور بخلد صاحب التاريخ العام أن يحيط بهذه المعلومات أما الأمي فلا يتصور أن يفكر في ذلك مجرد التفكير ، وهذا دليل قوي على أن هذا الكتاب من عند الله الذي يعلم الغيب ويعلم ما تخفي الصدور وبطون الزمان ، ولهذا السبب قلنا لابد لهذا النمط من الإعجاز القرآني من نظرية تتضمن القواعد العلمية التي تفسر طبيعة هذا الإعجاز .

وقد انتبه إلى هذه الجوانب الإعجازية القدماء من الباحثين مثل الباقلاني والجرجاني والزركشي وغيرهم ، وقد عرض الباقلاني بعض تلك الآيات التي سبقت الإشارة إليها وقدم لها بقوله : « وأما الوجه الثاني الذي ذكرناه من إخباره عن قصص الأولين وسير المتقدمين فمن العجيب الممتنع على من لم يقف على الأخبار ولم يشتغل بدرس الآثار ، وقد حكي في القرآن حكاية من شهدها وحضرها ... فبين وجه دلالته من إخباره بهذه الأمور الغائبة السالفة [2] .

غير أن الباقلاني يرى أن الإعجاز الخبري شركة بين الكتب السماوية كلها [3] ، وهو محق في ذلك ، ولكن ينبغي أن نعلم أن تلك الكتب السماوية قد تطرق إليها

(1) القصص : 44 - 46 .

(2) الباقلاني : إعجاز القرآن : ص 49 .

(3) نفسه : ص31 .

التحريف من جهة وأنها لم تكن تصف الحادث وصف المشاهد الحاضر كما يصفه الله سبحانه وتعالى وصف من يرى ويخبر ، وعلى سبيل المثال نذكر أن المفكر مالك بن نبي قد عقد مقارنة بين قصة يوسف في القرآن وقصته في التوراة فوجد أن مضمون الآيات(24 - 30 - 31 - 34 - 36 - 40 - 49 - 53 - 57 - 80 - 81 - 87 - 88 - 93 - 94 - 95 - 96 - 99 - 101) لم يرد تماما في التوراة [1] ، وعند النظر إلى ما يرد نجده يتعلق بالأمور الدقيقة التي تحتاج في وصفها إلى من يشاهد الموقف ويحضره ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ، وَهَمَّ بِهَا ، لَوْلاَ أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ، كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالفَحْشَاءَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المخْلَصِينَ ﴾[2] وقوله : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَفْسِهِ ، قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ، إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾[3] .

حقًّا لقد كان القرآن الكريم ينقل الأخبار الماضية علي الرغم من إيغالها في القدم نقل من يرى ، وقد أصاب هذا الوجه الإعجازي أقلام القدماء والمحدثين كالسيوطي الذي قال : وقال آخرون إعجازه في « ما تضمنه من الإخبار عن قصص الأولين وسائر المتقدمين حكاية من شاهدها وحضرها » [4] .

وقد يكون بخصوص القصص الوارد في التوراة والقرآن ما يوحي بالتشابه الذي قال عنه (جول دافيد) في مقال له بعنوان : توافقات واختلافات بين القصص الديني في التوراة والقرآن : « إن الجوهر واحد والاختلاف ليس إلاَّ في الشكل ، وفي تفاصيل طفيفة [5] ، ولكن عند التحقيق نجد أن ما يعده اختلافا شكليا هو ما يؤكد بدقائقه نبوة محمد ومعجزته القرآنية ؛ لأن مثل هذه التفصيلات الوصفية والوعظية هي محل الاختبار للنص ؛ لأنه يبين ويكشف بما لا يدع مجالا للشك أن

---

(1) الظاهرة القرآنية : ص 240 .
(2) يوسف : 24 .
(3) يوسف : 30 .
(4) السيوطي : الإتقان : 2/ 188 .
(5) محمد عبد الله دراز : مدخل إلى القرآن : ص 174 - 175 .

مثل هذه الأوصاف الدقيقة لا تكون إلا ممن ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ ﴾ (1) .

(ب) نبوءات المستقبل :

لعل البحّاثة القدماء لم يعنوا بالأخبار الماضية الموغلة في القدم عنايتهم بنبوءات المستقبل ، لأنها تدخل في الغيب الذي استأثر الله وحده بالعلم به جملة وتفصيلا ، ولا يطلع عليه إلا خاصة عباده إما عن طريق الرؤى في المنام كما حدث بالنسبة لسيدنا يوسف عليه السلام الذي كان يعبر الرؤى فتصدق بعد عشرات السنين وكما حدث للرسول محمد صلى الله عليه وسلم الذي قالت عنه عائشة أم المؤمنين : « أول ما بدىء به رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح (2) .

وإما عن طريق الوحي كما يتجلى ذلك في القرآن الكريم ، وقد عني بهذا الجانب الرماني والخطابي والباقلاني والزركشي والسيوطي وغيرهم .

يقول الرماني : « وأما الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة فإنه لما كان لا يجوز أن تقع على الاتفاق دل على أنها من عند علاَّم الغيوب (3) » وقد استدل على ذلك بعدة آيات مثل قوله عز وجـل : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ أَن إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَوْكَةِ تَكُونُ لَكُـمْ ، وَيُرِيدُ اللهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الكَّافِرِينَ ﴾ (4) ثم يعلق بقوله :

« فكان الأمر كما وعـد من الظفر بإحدى الطـائفتين : العير التي كان فيها أبو سفيان أو الجيش الذي خرجوا يحمونها من قريش فأظفرهم الله عز وجل بقريش يوم بدر على ما تقدم به الوعد (5) وذكر من الأدلة قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ

---

(1) الأنعام : 103 .

(2) صحيح البخاري : 1 / 18 ، والسيرة النبوية لابن هشام : 1 / 249 .

(3) الرماني : النكت في إعجاز القرآن : ص 110 .

(4) الأنفال : 7 .

(5) النكت في إعجاز القرآن : ص 110 .

رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمشْرِكُونَ﴾ [1] وقوله بخصوص التحدي الإعجازي : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا ﴾ [2] .

على أن الخطابي الذي جاء بعد الرماني بقليل لم يكن يرى في الإخبار عن المستقبل جانبا هاما في الإعجاز لأنه في رأيه ليس شاملا لكلّ الآيات التي يجب أن تكون حسب التحدي جميعها معجزة ، لذا تراه يقول : « وزعمت طائفة أن إعجازه إنما هو فيما يتضمنه من الإخبار عن الكوائن في مستقبل الزمان نحو قوله سبـــحانه : ﴿ الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ ، وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ [3] . . . ونحوهما من الأخبار الصادقة التي صدقت أقوالها مواقع أكوانها ، قلتُ : ولا يشك في أن هذا وما أشبه من أخباره نوع من أنواع إعجازه ، ولكنه ليس بالأمر العام الموجود في كل سورة من سور القرآن ، وقد جعل سبحانه في صفة كل سورة أن تكون معجـــزة بنفســـها لا يقدر أحد من الخلق أن يأتي بمثلها . . . من غير تعيين فدل على أن المعنى فيه غير ماذهبوا إليه [4] .

أما الباقلاني فقد عد الإعجاز بالإخبار عن المستقبل وجها من وجوه الإعجاز وذكر عدة آيات تدل على ذلك منها ما كان قد ذكر عند الرماني والخطابي ومنها ما لم يذكر عندها كقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [5] ثم عقب قائلا : « وصدق الله تعالى وعده في ذلك كله » [6] .

ولعل الجرجاني لم يعن بالإعجاز الإخباري لأنه يرى كما يرى الخطابي أن موطن التحدي إنما كان فيما يشمل القرآن كله وهو النظم ، وعلى حد تعبيره « إن

---

(1) الصف : 9 .
(2) البقرة : 24 .
(3) الروم : 1 - 3 .
(4) بيان إعجاز القرآن .
(5) النور : 55 .
(6) الباقلاني : إعجاز القرآن : ص 48 .

الوصف الذي به تناهي القرآن إلى حد عجز عنه المخـــلوقون هو الفصـــاحة والبلاغة » [1] .

ويختلف عنه الزركشي الذي يذكر ثلاثة أنواع من الإعجاز الإخباري هي :

1- ما فيه من الإخبار عن الغيوب المستقبلة .

2 - ما تضمن من إخباره عن قصص الأولين وسائر المتقدمين .

3 - إخباره عن الضمائر من غير أن يظهر ذلك منهم بقـــول أو فعل كقوله : ﴿ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ ﴾[2] وقوله : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا اللهُ ﴾ [3] ، غير أن الزركشي يرى أن الإعجاز من هذه الأنواع الثلاثة منحصر [4] .

وقد ذكر السيوطي هذا الوجه دون تعليق قال :« وقال قوم وجه إعجازه ما فيه من الإخبار عن الغيوب المستقبلة ولم يكن ذلك من شأن العرب » [5] .

إن القدماء قد اعترفوا جميعا بأن الإعجاز الخبري وجه من وجوه الإعجاز ولكنهم مع ذلك يعدوه أساسا في الإعجاز لأنهم كانوا - كما قلت - يبحثون عما هو مشترك بين جميع الآيات القرآنية ، ولذلك انصرف تحليلهم لوجهة أخرى هي البلاغة كما سنري من بعد ، والسبب في ذلك أنهم لم يكونوا بصدد مناقشة كونه معجزا أم لا ، وإنما كانوا يبحثون في السر الذي به كان معجزا بالإجمال .

ولكن هل الإعجاز الخبري غيرمهم ؟

نعم للقدماء الحق في أن يقولوا ما قالوا ؛ لأن زمنهم كان يختلف عن هذا الزمان الذي تجاوز فيه القرآن حدود لغة الضاد ، وعبر البحار والمحيطات ليصل إلى الجهات التي لا يعنيها كثيرا الإعجاز البلاغي بمفهومه القديم لأن النصوص حينما تترجم قد تفقد بلاغتها من بعض الوجوه ، ولكن بالنسبة لهذا الزمان الأمر يختلف ، وبهذا صار الإعجاز الخبري مهمًّا ، يقول الصابوني :« ومن وجوه إعجاز القرآن

(1) دلائل الإعجاز : ص 399 .

(2) آل عمران : 122 . (3) المجادلة : 8 .

(4) الزركشي : البرهان في علوم القرآن : 2/ 62 .

(5) الإتقان : 2/ 188 .

الكريم إخباره عن المغيبات وذلك برهان ساطع ودليل قاطع على أن هذا القرآن ليس من كلام البشر إنما هو كلام علاّم الغيوب الذي لا تخفى عليه خافية ، ولو كان من صنع محمد - كما زعموا - لظهرت علائم الوضع في تلك الأخبار الغيبية بوقوعها على خلاف ما أخبر [1] .

وقد بين محمد حسين فضل الله أهمية ذلك وهو بصدد تفسير قول الله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ، وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا * إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ، وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا * عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ ، وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا ، وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ [2] .

فالمفسر فضل الله يرى أن الله أخبر بني إسرائيل فيما أخبرهم من غيبه بما سيحدث لهم في مستقبل أمرهم من بلاء وتدمير بحسب علوهم في الأرض واستكبارهم فيها ، والله جعل ذلك خطا مستمرا ضمن قانون يربط الظواهر بأسبابها ، فهذه الآية تحمل نبوءة المستقبل التي توحي بأنهم سينحرفون عن التعاليم الإلهية ، وبذلك انتظروا أن تحل بهم اللعنة مرتين لأن الفساد الأكبر سيتكرر بهذا المستوي [3] ، ويرى فضل الله أن الآية لم تعين قوما بأعيانهم فقد تحمل في داخلها الإيحاء بأنها تتحدث عن معركة بين المسلمين واليهود في العصر الحاضر ينتصر فيها المسلمون عليهم ثم يعود اليهود إلى النصر ثم يهزمون ، ويستدرك بعد ذلك بقوله : « ولكن مثل هذه الأمور لا تحمل في داخلها شاهدا على التحديد مما يجعل المسألة خاضعة للاستنتاج الذاتي للشواهد العلمية » [4] .

---

(1) محمد على الصابونى : التبيان فى علوم القرآن : ص 119 .
(2) الإسراء : 4 - 8 .
(3) محمد حسين فضل الله : من وحى القرآن : ج 14 ص 35 - 38 .
(4) نفسه : ص 41 .

وقد أولى الدكتور محمد حسن هيتو موضوع الإعجاز الغيبى أهمية [1] ، ولكنه ركز بشكل أساسى على نبوءات القرآن ، وذكر منها التنبؤات بانتصار المسلمين وسيادتهم كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [2] ، وذكر التنبؤ بانتصار المسلمين على الفرس والروم وانتصار الروم على الفرس فى قوله تعالى : ﴿ آلم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِى أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِى بِضْعِ سِنِينَ ﴾[3] وذكر الإخبار عن حفظ القرآن إلى يوم القيامة : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[4] وذكر الإخبار عن دخول مكة : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ ﴾ [5] .

هذه جملة من التنبؤات المستقبلية التى تدخل فعلا فى الإعجاز القرآنى ، ولكن تتطلب نمطا من البرهان لا يحسنه إلا ذوو الاختصاص الدقيق فى هذا المجال لذلك قلنا إن لهذا النمط من الإعجاز نظرية تخصه تدخل فى إطار النظريات التاريخية ، ولكن تتميز بعض التميز لأن البرهان عليها يتطلب فضلا عن التحكم فى البعد الزمنى التحكم فى البعد السببى ؛ ذلك لأن التنبؤ بأحداث المستقبل لا يستقيم إلا لمن يملك هذه الأدوات الضرورية التى تجيد ربط العلة بالمعلول ، وسنوضح ذلك فى العنصر التالى .

2 – قوانين وسنن كونية مستقبلية تتسم بالديمومة :

يبدو أن القدماء والمحدثين على حد سواء قد انصب اهتمامهم فى مسألة الإعجاز الخبرى على جانب الأحداث المحددة ؛ إما التى حدثت فى الماضى الغابر ، وإما تلك التى أنبأنا عن حدوثها فى المستقبل فحدثت ، مثل حادثة الروم ، وفتح مكة ، وحادثة غزوة بدر ، وما أشبه ذلك ولكنهم غفلوا عن نمط خاص من الغيوب ، وأعنى تلك القوانين التى يصوغها القرآن دائما بصيغ شرطية تبين أن

---

(1) محمد حسن هيتو : المعجزة القرآنية : الإعجاز العلمى والغيبى ص 90 - 145 .
(2) الصافات : 171 - 173 .
(3) الروم : 1 - 3 .
(4) الحجر : 9 .
(5) الفتح : 27 .

حدوث نوع من المقدمات يستلزم نوعا معينا ، بل محددا ، من النتائج تتوافق مع تلك المقدمات وترتبط بها ارتباط العلة بالمعلول ، ومثال ذلك قول الله تعالى : ﴿ إِن تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (1) وقوله : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (2) وقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ (3) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ، وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ﴾ (4) وقوله : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ، وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ، إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ﴾ (5) وقوله ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (6) وقوله : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (7) ، وقوله ﴿ وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ (8) ، وقوله : ﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (9) وقوله بخصوص بنى إسرائيل : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ ﴾ (10) ، وقوله بخصوص عجز كل قوى الأرض عن القضاء على الدولة الإسلامية ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ ، فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾ (11) .

إن مثل هذه الآيات تحمل فى طياتها تنبؤات مستقبلية هى أشبه بالقوانين والسنن الكونية بحيث يصدق وعدها كلما تحققت الشروط المؤدية لتلك النتائج ، ولم يحدث طوال القرون الخمسة عشر التى عاشها الإسلام فوق الأرض أن تأخر قانون من هذه

---

(1) محمد : 7 .
(2) النحل : 97 .
(3) النور : 55 .
(4) الأنعام : 36 .
(5) الطلاق : 2 - 3 .
(6) غافر : 60 .
(7) الرعد : 11 .
(8) البقرة : 120 .
(9) البقرة : 269 .
(10) آل عمران : 112 .
(11) الأنفال : 36 .

القوانين عن موعده ، ولكن الأمر يحتاج إلى علماء لهم القدرة على تتبع الظواهر الاجتماعية أو الأخلاقية أو التاريخية أو الاقتصادية التى يتحدث عنها نص من النصوص . وقد انتبه إلى ذلك محمد عبده ورشيد رضا وقالا لم يأت مثلها فى كتاب سماوى قبل القرآن [1] .

وقد كان الدكتور محمد عبد الله دراز على حق حين قال : « أما ما نحن بصدده من تنبؤات القرآن فإننا نجد فيه حقائق قاطعة متقدمة بنفس قوة الوعد الإلهى وتتعلق بوقائع من كل نوع بعضها يتحقق بطريقة أبدية والآخر فى تاريخ محدد وغيرها يستبعد نهائيا وفى كل حالة تتحقق هذه الوقائع كما هو مرسوم بكل دقة » [2] .

إن نجاح الدراسات الاستراتيجية فى أى دولة من الدول وعند أى عالم من العلماء ، مثلها مثل الدراسات النفسية أو الاجتماعية التى تقوم على تكرار التجارب وعلى الإحصاء الدقيق اللذين يسمحان باستنتاج قانون نفسى أو اجتماعى ما ، يصبح بعد ذلك بمثابة تنبؤ بحدوث أمرها إذا توفرت الشروط المؤدية إليه ، كما يحدث مثلا فى تنبؤات الأحوال الجوية ، ولكن المسألة من وجهة نظر علمية تحتاج إلى متخصص فى كل ميدان على حدة ليتمكن من حصـــر الظاهرة فى مجال معين يتحكم فى قوانينها ، وتحتاج فوق ذلك إلى استقرار وإلى وسائل وأدوات وإلى علم يعين على التسجيل المنظم لشروط حدوث الظاهرة ، وبيان كيفية تفاعل تلك الشروط ، وهذا لم يكن يتحقق لأمى يعيش فى وسط الأميين بعيد كل البعد عن الطرائق العلمية ووسائلها بعد السماء عن الأرض ، بينما كانت القوانين والنظريات التى تساق فى القرآن قوية الحجة والبيان ، وصادقة العلم والبرهان بحيث يقف الإنسان العالم فى حقل معين متعجبا من دقة ذلك القانون أو تلك النظرية .

والحق أن الله تعالى كان يؤكد هذه الحقيقة التى تجعلنا نقف متعجبين أمام هذا الإعجاز وكان يشير إليها يومئذ بقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ

---

(1) مدخل إلى القرآن الكريم : ص 179 .
(2) تفسير المنار فى قوله تعالى .

وَكَتَبْيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [1] فالآية تبين أن العملية كانت مقصودة ، أى أنها تحمل دلالة التحدى العلمى والمنهجى الصارخ ، بمعنى أن هذه الدقة وهذا العمق اللذين تطرح بهما هذه القوانين التى قد لا تستقيم بهذا المستوى من الدقة حتى لكل عالم على حدة فى ميدان تخصصه ، لا يمكن أن تستقيم لرجل أمى ، لذلك ستنصرف العقول إلى التساؤلات عن مصدر هذا العلم الخارق للعادة ، إذ كيف تستقيم لشخص واحد بشكل معجز لم يسبق له نظير ولم يلحق ؟ لهذا يجد المجادل لإعجاز القرآن نفسه حائرا حينما يقول « درست » لأنه سرعان ما يجد أن الذى درس قد يتعمق فى ميدان أو اثنين أما أن يتعمق فى كل الميادين وتنصاع له العبقرية فيها جميعا على حد سواء فذلك أمر خارق للعادة فعلا .

هذا فضلا عن كون التجارب العلمية تتوقف نتائجها على تكرارها أفقيا وعموديا ، بمعنى أن يتم امتحانها فى مناطق مختلفة من العالم ، كما يتم اختبارها فى مراحل متعددة من مراحل التاريخ البشرى ، وهذا لم يكن ليتاح لامرىء قط لاقبل ذلك ولا بعده ، خاصة حينما نعلم أن عمره لم يتجاوز الستين بينما يحتاج اختبار مثل تلك التجارب والنتائج إلى آلاف السنين بمعنى أنه يحتاج إلى تراكمات علمية تنقل تجارب الأمم ، فهذا هو معنى قوله : ﴿ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ ﴾ .

فالتحقق من أن الخير مرهون بالحكمة فى القانون الذى تصوغه الآية ﴿ وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[2] يحتاج إلى امتحان علاقة الحكمة بتحقق الخير فى كل مجالات الحياة ؛ فى التسيير الادارى ، والمال ،والاقتصادى ، والاجتماعى ، والسياسى ، والعلمى ، والتربوى . . .

والتأكد من الترابط الوثيق بين تغير الواقع وتغير النفس يحتاج لاستقراء الوقائع التاريخية بدقة ، تسمح باستنتاج قانون عام يصاغ بهذه الدقة التى تجعله يصدق فى كل زمان ومكان .

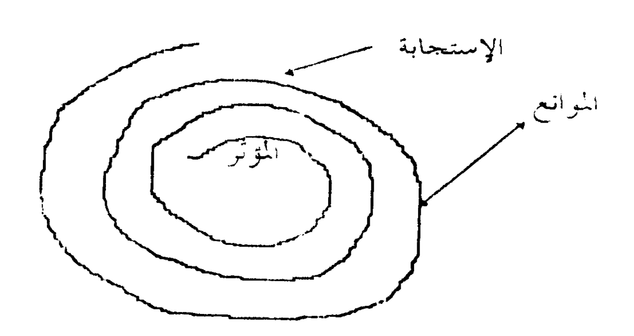
وكم يحتاج العالم من الوقت لإجراء تجارب تسمح له بصياغة قانون نفسى يبين

---

(1) الأنعام : 105 .
(2) البقرة : 269 .

العلاقة القائمة بين المثير والاستجابة من جهة ، وعلاقتهما بالعوامل التى تحول دون ذلك من جهة أخرى ، ثم كيف يمكن أن نُخلص (موضوع) الاستجابة من الحوائل المانعة من ذلك ، إن الله يصوغ ذلك بقوله : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ، وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ﴾ (1) .

فهناك مؤثر وهناك استـــجابة ، والمـــؤثر هو النص الذى يرسله الداعى إلى الله ،والاستجابة هى التغير الذى يطرأ فى نفسية وعقلية السامع ، ولكن الاستجابة مشروطة بصفاء النفس والعقل من الموانع التى تحول دون حدوث السماع الحق المؤدى إلى الاستجابة .



وهذه « الموانع » متغيرة بتغير النفوس ، بحيث لا تتحقق استجابة الناس دفعة واحدة فنراهم يستجيبون على مراحل مختلفة حسب زوال الغشاوة الكثيفة على عقولهم ، وهى غشاوة تختلف قوة وصلابة بحسب تمكنها من نفس الإنسان ،ولهذا السبب لم يؤمن بالنبى ﷺ الذين كانوا يسمعون حديثه فى مكة جميعا إلاَّ بعد فتح مكة ، وللسبب نفسه لم يؤمن فرعون بموسى عليه السلام مع قيام الحجة إلا عند لحظة الغرق .

فهذه الأنواع على قلوبها « الران » الذى تراكم على العقول بسبب ما يكسبه

---

(1) الأنعام : 36 .

الإنسان من مواد وامتيازات يحرص عليها حرصه على نفسه ﴿ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (1) .

فهو لا يستجيب إلا إذا خلصته من تلك الموانع وبمعنى آخر خلصت قلبه من التشبث بها ، وقد يكون الأمر صعبا بحيث يحتاج إلى هزة عنيفة مثل تهديد فرعون بالغرق وتهديد كفار قريش بفتح مكة ، ففى هذه اللحظة فقط يتحقق الصفاء ويتم السماع المؤدى إلى الاستجابة ، ولذلك عد الله مثل هذا النوع أمواتا لا يبعثون ؛ أى لا يستجيبون إلا بتوفر الهزات العنيفة التى تكافىء فى قوتها قوى « الران » الذى تسلط على العقول والنفوس ، ولذلك كان الله يقول لرسوله ﷺ : ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ ﴾ (2) وهو يقصد سادة قريش الذين كانوا بمثابة من مات أو أصيب بصمم .

إن صياغة قوانين لها هذه القوة وهذه المتانة وهذا الإحكام بحيث تصير صالحة لكل زمان ومكان يتوقف - حقًا - على تجارب علمية دقيقة ، وهو أمر لم يتحقق لأحد فى ذلك الزمان ولا فيما جاء بعده .

ولهذا لم يكن الناس يومئذ يصدقون أن هذا من عند محمد ﷺ - فكانوا يقولون « درست » ولكنهم لم يستطيعوا أن يعينوا المدرسة التى درس بها فأحالهم عليها بقوله : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمْ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ ﴾ (3) أى أن مدرسته هى « الوحى » .

وجاء العصر الحديث ودرس المستشرقون من المسيحيين واليهود على حد سواء هذه النظريات والقوانين الاجتماعية والاقتصادية وغيرها ، فلم يملكوا إلا أن يعربوا عن إعجابهم الكبير الذى لا يدل إلا على اعترافهم العلمى بإعجاز هذا الكتاب العظيم ،ويمكن أن نسوق هنا هذا النص لـ « مونتجومرى وات » من كتابه « محمد فى المدينة » الذى قال فيه :

« **ونستطيع أن نميز ثلاث هبات مهمة أوتيها محمد ﷺ ، وكانت كل واحدة منها ضرورية لإتمام عمل محمد ﷺ بأكمله :**

- لقد أوتى أولا موهبة خاصة على رؤية المستقبل ، فكان للعالم العربى بفضله أو بفضل الوحى الذى ينزل عليه حسب رأى المسلمين أساس فكرى (أيديولوجى)

(1) المطففين : 14 . (2) النمل : 80 . (3) العلق : 3 - 5 .

حلّت به الصعوبات الاجتماعية ••• وربما أحس القارىء الأوروبى بالحيرة أمام القرآن ، غير أن النص قد أخرج بشكل رائع موافق لحاجات الزمن وظروفه •

– وكان محمد ﷺ ثانيا رجل دولة حكيما ، ولم يكن هدف البناء الأساسى الذى نجده في القرآن ، سوى دعم التدابير السياسية الملموسة والمؤسسات الواقعية ، ولقد ألمحنا فى هذا الكتاب على استراتيجية محمد السياسية البعيدة النظر وعلى إصلاحاته الاجتماعية •••

– وكان محمد ﷺ ثالثا رجلا بارعا فكان ذا بصيرة رائعة فى اختيار الرجال الذين يندبهم للمسائل الإدارية إذ لن يكون للمؤسسات المتينة والسياسة الحكيمة أثر إذا كان التطبيق خاطئا مترددا •••

كلما فكرنا فى تاريخ محمد وتاريخ أوائل الإسلام كلما تملكنا الذهول أمام عظمة مثل هذا العمل ، ولا شك أن الظروف كانت مواتية لمحمد ﷺ فأتاحت له فرصا للنجاح لم تتحها لسوى القليل من الرجال ، غير أن الرجل كان على مستوى الظروف تماما • فلو لم يكن نبيًّا ورجل دولة وإدارة ولو لم يضع ثقته بالله ويقتنع بشكل ثابت أن الله أرسله ، لما كتب فصل مهم فى تاريخ الإنسانية • ولى أمل أن هذه الدراسة عن حياة محمد ﷺ يمكنهـا أن تساعد على إثارة الاهتمام من جديد ، برجل هو من أعظم رجال « أبناء آدم » [1] •

وخلاصة القول : إن مما يتضمنه القرآن من أوجه الإعجاز الأخبار الغيبية الموغلة فى القدم والنسيان ،والتنبؤات بأحداث مستقبلية ، والقوانين ذات الطابع السننى ، وهى بدون شك أوجه تختلف عن الأوجه السابقة الذكر ، وعليه فهى تتطلب نظرية تتضمن القواعد العلمية التى تفسر طبيعة هذا النوع من أوجه الإعجاز هى التى أطلقنا عليها اسم « **نظرية الإعجاز القرآنى التنبؤى** » •

* * *

---

(1) مونتجومرى وات : محمد فى المدينة : ص 512 •

نظرية الإعجاز العلمى ذى المنهج التجريبى

قال ابن سلام الجمحى قال عمر ابن الخطاب : « **كان الشعر علم القوم ، لم يكن لهم علم أصح منه** » . هذه العبارة تدل دلالة قطعية على النمط العلمى الذى كان قبل نزول القرآن ، فقد كان الشعر أصح علومهم ، ومعنى ذلك أن ما سيطرحه القرآن من جديد - فى أى مجال - هو محل تساؤل عن مصدره الحقيقى ، لأن كثيرا جدا من الحقائق العلمية المختلفة التى طرحها القرآن لم تكن البشرية تتخيلها حتى مجرد تخيل ، ومثال ذلك قـــوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ، وَهُمْ عَنْ آيَاتِنَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ الَّذى خَلَقَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[1] ، وقوله : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾[2] ، وقوله : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾[3] ، بل إن القرآن يحدثنا عن حقائق علمية لم يستطع التطور العلمى الآن - على الرغم من تحقيق الكثير على مستوى غزو الفضاء - أن يقول فيها كلمته النهائية ، ومن ذلك قوله : ﴿ اللهُ الَّذى خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾[4] ، وقوله : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ، قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِى كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾[5] .

ثم إن القرآن الكريم فى حديثه عن نفسه ما فتىء يخبرنا عن تضمنه ما لا يحصى من الحقائق التى ستكتشف مع تطور الزمن كقـــوله : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى الكِتَابِ مِن شَىْءٍ ﴾[6] . غير أن أسلوب القرآن فى عرض الحقائق العلمية يختلف عن الأسلوب البشرى ، إذ هو يعطيك النتائج مباشرة دون أن يعبر بك متاهات

---

(1) الأنبياء : 32 - 33 .
(2) الحجر : 22 .
(3) الطارق : 5 - 7 .
(4) الطلاق : 12 . -
(5) فصلت : 11 - 12 .
(6) الأنعام : 38 .

خطوات البحث والتنقيب ؛ لأن هذا من صنع مناهج الباحث عنـــد البشـــرية ،والله جل جلاله لا يبحث ؛ لأنه علـــيم خبير : ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ ﴾ (1) ، وإنما تصنع البشرية كذلك لأنها لا تملك طريقا إلى معرفة الحقائق غير طريق الوحى أو طريق البحث .

وقد انتبه القدماء من الجاحظ إلى الرمانى والخطابى والباقلانى والقاضى عياض والجرجانى وابن سنان الخفاجي وغيرهم إلى تعدد أوجه الإعجاز القرآنى ، ولكنهم عنوا عناية كبرى بوجه واحد هو البلاغة والبيان ، وربما ظن بعضهم أن الأساس فى الإعجاز هو الجانب البلاغى كما فعل الجرجانى حين ركز فى كتابه دلائل الإعجاز على النظم ، وجعله رأس الإعجاز ، فلم يدرس فى ذلك الكتاب النفيس شيئا من جوانب الإعجاز الأخرى ، وحتى إن كان مثـــل الرمانى قد قال فى « النكت فى إعجاز القرآن » (97) : « ولما تعللوا بالعلم والمعانى التى فيه قال : ﴿ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾(2) فدل بذلك على أنه كان على علم بجانب الإعجاز العلمى، فإن ذلك لا يعنى أنهم قد عنوا به كما عنوا بالإعجاز البلاغى الذى استنفد قواهم ووقتهم معا » .

وربما كان القدماء معذورين فى ذلك لأن زمانهم لم يكشف لهم عن قيمة كثير من العلوم التى كشفتها البحوث العلمية المعاصرة ، أما نحن الآن فليس لنا فى هذا الزمن أى عذر ؛ ذلك لأن « البيئة الثقافية التى تكتنف الإنسان فى عصر العلم تختلف عن تلك البيئة يوم لم يكن هناك علم ، ونحن نعيش اليوم عصر التخصص ، والتخصص معناه الفهم العميق فى ميدان من الميادين دون تعصب » (3) .

والحق أن المحدثين كانوا قد اهتموا بهذا الوجه من وجوه الإعجاز فكشفوا عن جوانب فى غاية الأهمية وربما رجحوا قيمتها عن قيمة الإعجاز البلاغى ، كما فعل ابن باديس وهو بصدد تفسير قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ، فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا

---

(1) الملك : 14 . (2) هود : 13 .
(3) محمد فتحى الشنيطى : أسس المنطق والمنهج العلمى : ص 156 .

فَهِىَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ۞ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ، إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (1) .

فقد انتبه الشيخ إلى أن الإعجاز هنا يشير إلى الجانب العلمى ، وما يعلمنا به القرآن من الأسرار الكونية فى السماوات وفى الأرض فقال : « القرآن أعجز العرب ببلاغته حتى عرفوا وعرف العلماء بلسانهم المرتضين ببيانهم أنه ليس مثله من طرق البشر ، هذه هى الناحية الظاهرة فى إعجاز القرآن والاستدلال به له ولمن أتى صلى الله عليه وآله وسلم .

وهنالك ناحية أخرى هى أعظم وأعم : وهى ناحيته العلمية التى يذعن لها كل ذى فهم من جميع الأمم فى كل قطر وفى كل زمن ،وهذه الناحية هى التى احتج بها هذا الموطن ، فقد استدل على أن القرآن لا يمكن أن يكون أتى به محمد من عنده ، ولا يمكن أن يستعين عليه بغيره ولا أن يكون من أوضاع الأوائل لأنه ينطوى على أشياء من أسرار هذا الكون لا يعلمها إلا خالقه ؛ فمن ذلك ما أنبأ به من أسرار الأمم الخالية وبيّن من أسرار الكتب الماضية وما أنبأ من أحداث مستقبلية وما ذكر من حقائق كونية كانت لذلك العهد عند جميع البشر مجهولة كالزوجية فى كل شىء ، وسبح الكواكب فى الفضاء ، وسير الشمس إلى مستقر مجهول معين عند الله لها ، وغير ذلك من أسرار العمران والاجتماع ، وما تصلح عليه حياة الإنسان مما تتوالى على تصديقه تجارب العلماء إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم ، فكتاب اشتمل على هذه الأسرار لا يمكن أن يأتى به مخلوق » (2) .

للإعجاز العلمى إذن أهمية كبرى ؛ لأنه أشمل وأكثر إقناعا للبشرية كلها ، فهو بحكم كونه يخاطب العقل البشرى فى المجالات التى لم يسبر أغوارها إلا بعد أن تمكن من اكتشاف الوسائل العلمية الدقيقة التى كانت وحدها القادرة على إمداد الإنسان بقدرات جديدة تعين الحواس على الإدراك العميق لنفسه وللكون من حوله ، قد برهن على أنه لا يمكن أن يكون من وضع أى بشر مهما أوتى من

---

(1) الفرقان : 4 - 6 .

(2) ابن باديس : تفسير ابن باديس : ص 212 .

إمكانات ؛ لأن الموضوعات العلمـــية التى يعبر عنها بكل ثقة ليست فى متناول أحد غير الله ·

وقد نوّه الشيخ ابن عاشور فى مقدمة تفسيره « التحرير والتنوير » بهذا الوجه من وجوه الإعجاز لأهمـــيته ،وبين « أن العلم نوعان : علم اصطلاحى وعلم حقيقى ؛ فأما الاصطلاحى فهو ما تواضع الناس فى عصر من الأعصار على أن صاحبه يعد فى صف العلماء ،وهذا قد يتغير بتغير العصور ويختلف باختلاف الأمم والأقطار ، وهذا النوع لا تخلو منه أمة ، وأما العلـــم الحقيقى فهو معرفة ما بمعرفته كمال الإنسان ، وما به يبلغ إلى ذروة المعارف ، وإدراك الحقـــائق النافعة عاجلا وآجلا · · · وقد اشتمل القرآن على النوعين ؛ فأما النوع الأول : فتناوله قريب لا يحتاج إلى كد فكر ولا يقتضى نظرا · · · وأما النوع الثانى : من إعجازه العلمى فهو ينقسم إلى قسمين : قسم يكفى لإدراكه فهمه وسمعه ، وقسم **يحتاج إدراك وجه إعجازه إلى العلم بقواعد العلوم** فينبلج للناس شيئًا فشيئًا انبلاج أضواء الفجر على حسب مبالغ الفهوم وتطورات العلوم ، وكلا القسمين دليل على أنه من عند الله لأنه جاء به أمى في موضع لم يعالج أهله دقائق العلـــوم ، والجائى به ثاو بينهم لم يفارقهم ، وقد أشار القرآن إلى هذه الجهة من الإعـــجاز بقوله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾[1] ثم إنه ما كان قصاراه مشاركة أهل العلوم فى علومهم الحاضرة ، حتى **ارتقى إلى ما لم يألفوه وتجاوز مادرسوه وألفوه** » ·

والحق أن كل ذلك يبين أن هذا وجه من أوجه الإعجاز له خصوصياته التى يتميز بها عن أوجه الإعجاز الأخرى مما يستوجب إفراده بنظرية خاصة تتناسب قواعد بحثها مع طبيعة النمط المعرفى الذى يعالج فى ضوئها هى : **نظرية الإعجاز العلمى ذى المنهج التجريبى** ·

إن هذه النظرية هى التى تملك القواعد التى تجعل هذا النمط المعرفي ينبلج للناس شيئًا فشيئًا انبلاج أضواء الفجر ·

صعوبة البحث فى الإعجاز العلمى :

يعد البحث فى الإعجاز العلمى من أشق أنواع الإعجاز لكونه يتوقف على

(1) القصص : 49 - 50 ·

المنهج التجريبى ، فلكى تبرهن على عبارة أو كلمة لا يكفى - كما فى الإعجاز اللغوى والبلاغى والتشريعى - أن تبحث فى علوم اللغة ، أو تبحث فى الأنظمة الاجتماعية ، وإنما ينبغى أن تخضع الظاهرة للتجربة وترقب النتائج التى تحصل عليها لتعرف مدى مطابقتها للنص القرآنى .

فى الإعجاز العلمى تحتاج كما قال سعيد حوى إلى « أن تقرأ مئات الصفحات للوصول إلى كلمة أو لالتقاط حجة »[1] ، بل إنك قد تحتاج لأن تسبر أغوار البحار وتنفذ فى أقطار السموات والأرض لكى تقف على حقيقة من حقائق القرآن .

ولكن من جهة أخرى يعد البحث فى الإعجاز العلمى تفسيرا حقيقيا للقرآن الكريم فى مجالات عجزت اللغة بمفردها عن تفسيره فيها .

ومن هنا عد العلماء العلم الحديث من ضروريات الفهم الصحيح للقرآن ، يقول سعيد حوى : « فى عصرنا وجدت علوم كثيرة ، هذه العلوم قدمت فهومًا جديدة للنصوص أو صححت فهومًا قديمة »[2] .

غير أن من العلماء - كالطباطبائى مثلا - من يلح على أن « البحث الصحيح يوجب أن تفسر هذه البيانات اللفظية على ما يعطيها اللفظ فى العرف واللغة ثم يعتمد فى أمر المصداق على ما يفسر به بعض الكلام بعضا ثم ينظر ، هل الأنظار العلمية تنافيها أو تبطلها ؟ فلو ثبت فيها فى خلال ذلك شىء خارج عن المادة وحكمها فإنما الطريق إليه إثباتا أو نفيا طور آخر من البحث غير البحث الطبيعى الذى تتكفله العلوم الطبيعية . . . إن العلم الباحث عن المادة وخواصها ليس من وظيفته أن يتعرض لغير المادة وخواصها لا إثباتا ولا نفيا ، ولو فعل شيئًا منه باحث من بُحَاثه كان ذلك منه شططا من القول ، نظير مالو أراد الباحث فى علم اللغة أن يستظهر من علمه حكم الفلك نفيا أو إثباتا »[3] .

ويمكن على سبيل المثال أن نقف عند عدة ظواهر عرض لها العلماء بالاعتماد على الوسائل الحديثة ومنها :

---

(1) سعيد حوى : الأساس فى التفسير : 1 ص 29 .
(2) سعيد حوى : الأساس فى التفسير : 1/ 9 .
(3) الميزان : 1/ 89 .

1 - **قانون الجاذبية** : فقد لاحظ العلماء أن قول الله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ (1) ، ليس يسهل على العقل البشرى أن يدركه لاسيما فى تلك الفترة التى نزل فيها القرآن الكريم وما قبلها وما بعدها بقرون ، لأنها كانت كما قال موريس بوكاى مرحلة ركود من ناحية المعارف العلمية منذ عدة قرون .

ولكن الإنسان المعاصر يرى فى هذه الآية بفضل الاكتشافات العلمية تفسيرا عميقا للظاهرة فهو يرى أن « هنالك عمدا غير مرئية تتمثل فى قانون الجاذبية ، وهى التى تساعد كل هذه الأجرام على البقاء فى أماكنها المحددة فلا تسقط على الأرض ولا يصطدم بعضها ببعضها الآخر، وبهذا يظهر لنا سرّ التعبير القرآنى ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ مما يشير إلى وجود عمد غير مرئية وهى ما يتم بفعل الجاذبية وقانونها » (2) . وقد عد الغزالى التعبير بالعمد غير المرئية عن القوى التى رفع الله بها السماوات هو أدق تعبير يفهم كل إنسان منه بقدر طاقته العلمية (3) .

2- حقيقة الأضواء والأنوار المنبعثة من الشمس والقمر :

لقد لاحظ العلماء أن القرآن الكريم حين يعبر عن ظاهرتى النور والضياء بالنسبة للشمس والقمر يستخدم نظاما دقيقا فى التعبير يمكن أن نلاحظه فى الآيات الآتية :

1- ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ (4) .

2 - ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ (5) .

3 - ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾(6) .

4 - ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ ﴾ (7) .

إننا حين نتأمل الآيات نجد النور مرتبطا بالقمر ، والضياء مرتبطا بالشمس ،

---

(1) الرعد : 2 .
(2) محمد حسن هيتو : المعجزة القرآنية : الإعجاز العلمى والغيبى : ص 181 .
(3) الغزالى : نظرات فى القرآن : ص 137 .
(4) النبأ : 13 . (5) نوح : 16 .
(6) الفرقان : 61 . (7) يونس : 5 .

وهذا يعنى أن الأمرين مختلفان ، واختلافهما يكمن فى حقيقة كل منهما ، إذ أن السراج هو مبعث الضياء عن طريق الإشعاعات المنبعثة منه ، أما النور فهو انعكاس للضوء المنبعث من شىء آخر على القمر ، ولذلك نلاحظ أن السراج وصف فى الآية الأولى بأنه وهاج ، بينما وصف القمر فى الآية الأخيرة بأنه قدر منازل ، أى أن نوره ليس ملازما له على حال .

وقد استنتج الباحثون من ذلك أن « القمر جرم بارد لاحرارة فيه وأنه يكتسب أشعته ونوره من جرم آخر ، ثم يعكسه على الأرض ، وأن الشمس مضيئة إضاءة ذاتية بأشعة حارة » (1) .

زقد تتبع العلماء المعاصرون الظاهرة الطبيعية بمعزل عن الكتب السماوية كلها فاكتشفوا هذه الحقيقة العلمية التى تطابق نص القرآن تماما ، كما يعبر عنها فى مواضع مختلفة تكشف بحق أن هذا القرآن يحمل أسرارا علمية لا يعلمها إلا خالق هذا الكون العظيم .

3 - **الأمطار** : يعالج المطر من جهة البحث فى الأسباب المؤدية لوجوده فى محور « الكهربائية الجوية » ومن الطبيعى أن فترة نزول القرآن الكريم لم تكن المعارف المتعلقة بهذا المحور متوافرة ،ولذلك يعد أى معنى فى القرآن يتعلق بهذا داخلا فى الإعجاز العلمى وأمثلته كثيرة منها ما يتعلق بالعلاقات بين العناصر المكونة لظاهرة المطر ومنها ما يتعلق بالظواهر الملابسة له كالبرق والرعد ونزول المطر جامدا ... إلخ .

ومن أمثلة ذلك قول الله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ (2) .

فما معنى كون الرياح « لواقح » ؟

إن القدماء ومنهم الرازى الذى فهم اللقاح نقلا عن ابن عباس بأنه لقاح للشجر وللسحاب فقال : هى من قولهم : « لقحت الناقة وألقحها الفحل إذا ألقى الماء فيها

---

(1) هيتو : نفسه ص 187 .
(2) الحجر : 22 .

فحملت ، فكذلك الرياح جارية مجرى الفحل للسحاب » [1] ، ولكن هذا الفهم تأتى من جهة الدلالة اللغوية لا من جهة فهم الحقيقة العلمية ، وقد أدرك الرازى ذلك ، فأعطى وجوها أخرى منها أن الريح لافحة بمعنى حاملة تحمل السحاب والماء ، ومنها أنها بمعنى تأتى بالخير .

وهذه كلها معانى تبين مستوى الفهم حتى عصر الرازى ، فقد كان غامضا وغير قادر على تحليل الظاهرة فى إطارها الحقيقى وهو محور « الكهربائية الجوية » .

وقد بقى معنى الآية غامضا حتى اكتشفت الأسرار العلمية للظاهرة ؛ فبينت أن « الفاء » فى قوله تعالى ﴿ فَأَنزَلْنَا ﴾ للسببية ، أى أن الله تعالى قد رتب على إتيان الرياح لواقح إنزال الماء من السماء فتحتم - كما يقول الغزالى - أن يكون للواقح معنى غير معنى تلقيح الزرع ويكون مع ذلك من ناحية يشبه لقاح الأحياء من زرع وحيوان ، ومن ناحية أخرى يحتاج لبيان العلاقة السببية بين الرياح ونزول المطر فللرياح أثر فى تمهيد سبل الاتحاد بين كهربائية وكهربائية فى سحاب وسحاب ، فالسر يكمن فى الجمع بين الكهربائية السالبة والموجبة فى السحاب [2] ، فإذا ما اتحدت الشحنة الكهربائية الموجبة التى حملتها الرياح مع الشحنة الكهربائية الموجودة فى الفضاء يتكون مجال كهربائى يكون السبب فى تحويل البخار إلى قطرات دقيقة من الماء ، ومن ثم تتجمع وتكبر شيئا فشيئًا إلى أن تثقل وتنزل مطرا عى الأرض ، إذن فالسحاب وحده لا ينزل المطر ولا بد له من تلقيح وهذا التلقيح إنما يكون بواسطة الكهرباء الجوية التى تسببها الرياح [3] ، ويعضد ذلك قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ، وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ ، يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾ [4] .

إن المعانى العلمية التى تفهم من هذه الآيات هى معانى فوق المستوى المعرفى

---

(1) الرازى : التفسير الكبير : الجزء 19 ص 139 .
(2) نظرات فى القرآن : 138 .
(3) محمد حسن هيتو : المعجزة القرآنية : ص 211 .
(4) النور : 43 .

القديم قطعا ، بل إن المستوى المعرفى اليوم بما تحقق له من تقدم عن طريق المنهج التجريبى لا يزال يمعن النظر بعد النظر ليصوغ الواقعة من حيث هى قانون يحكم سنة من سنن الطبيعة ، ولذلك تعد مثل هذه الآيات من المعجزات العلية الدالة على نبوة هذا النبي العظيم ٠

وقبل أن ننهى البحث فى مجال هذه النظرية من الضرورى الإشارة إلى أن هناك من يرى أنه « لو ظفر البحث العلمى على الأسباب الحقيقية الطبيعية القصوى لم يبق مورد للمعجزة »[1]،ولا شك أن هذا الكلام يقال لو أن هذا الظفر كان هكذا بغير الوسائل المستحدثة ، أما إذا كان ذلك من بعد اكتشاف الوسائل المعاصرة ، فلا يعتد به لأن حصول المعرفة للرسول ﷺ كان بغير تلك الوسائل البتة ، ومثال ذلك حادث الإسراء والمعراج الذى حصل بغير وسيلة فهو معجز للإنسانية فى كل زمان ومكان بمعزل عن الوسيلة العصرية أو التى ستكتشف ، وقد رد الطباطبائى - رحمه الله - على هذه الفكرة بقوله : « فليست المعجزة معجزة من حيث إنها مستندة إلى سبب طبيعى مجهول حتى تنسلخ عن اسمها عند ارتفاع الجهل وتسقط عن الحجية ،ولا أنها معجزة من حيث إسنادها إلى سبب مفارق للعادة ، بل هى معجزة من حيث أنها مستندة إلى أمر مفارق للعادة غير مغلوب السبب قاهرة العلة البتة »[2] ٠

والآن يمكننا أن نتساءل : إذا كانت هذه الأدلة قطعية البرهان على نبوة محمد ﷺ ؛ لأنها ذات دلالة حسية ، يدركها العالم والجاهل ، فما بال الإنسانية لا تزال ترفل فى أغلال الكفر والضلال ، لا سيما بعد أن برهن التقدم العلمى علي صدق الرسول وصحة هذه النبوة ؟ ٠

قبل كل شىء ينبغى التذكير بأن الهداية أساسا نعمة من الله يهبها من يشاء من عباده ، ثم إن هناك مشكلة الران الذى إذا استحكم بنفس صعب عليها مفارقة الكفر والضلال ، كما بينا ذلك فى كتابنا « التفسير الموضوعي ، نظرية وتطبيقا » ، وربما كان الطباطبائي يقصد ذلك حين قال : « وكما أن الحس والتجربة الساذجين لا يساعدان على تصديق هذه الخوارق للعادة ،كذلك النظر العلمى الطبيعى ؛ لكونه

---

(1) تفسير الميزان : 1 / 82 ٠

(2) السابق : 1 / 82 - 83 ٠

معتمدا على الطبع المشهود من نظام العلة والمعلول الطبيعيين ، أعنى به الطبع الذى يستقرىء التجارب العلمية اليوم والفرضيات المعللة للحوادث المادية »[1].

وخلاصة القول : إن القرآن الكريم كتاب هداية ، وقد وظف لهذا الغرض وسائل متعددة تبرهن فى كل زمان على صدق نبوة صاحب هذه الرسالة ، ومن بين تلك الوسائل : الإعجاز العلمى ، وهو إعجاز يتطلب بيان طبيعته نظرية خاصة هى : **نظرية الإعجاز العلمى ذى المنهج التجريبى** .

* * *

---

(1) نفسه : 1 / 75 .

نظرية تضافر أوجه الإعجاز القرآنى

« هل رأيت رأيا أعجز ، واختيارا أقبح ممن كره
أن تُعرف حجـــة الله تعالى من الجهة التى إذا
عرفـت منها كانت أنور وأبهر ، وأقوى وأقهر »
الجرجانى

لقد قلنا إن أوجه الإعجاز القرآنى كثيرة ، منها ما اكتشفه القدماء وركزوا عليه تركيزا شديدا ظنا منهم أنه الإعجاز المنشـــود وحـده كالإعجاز البيانى والإخبار بالغيبيات ،ومنها ما اكتشفه المعاصرون نتيجة التطور العلمى الشامل فى الطب والفلك والفيزياء والكيمياء وما إلى ذلك ، ومنها ما سيبقى مجهولا إلى أن يزداد التطور العلمى والفكرى والبيانى عمقا ليكشف البحث العلمى جوانب جديدة من هذا الإعجاز الذى كان قد بشر به الإنجيل من قبل ، وبشر به القـــرآن بقـــوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ ﴾[1] .

والحق أن بعض القدماء والمحدثين ، ومنهم أبو حيان التوحيدى الذى شبه من يسأل عن موضع الإعجاز القرآنى من القرآن بمن يسأل عن موضع الإنسان من الإنسان وبين أن بيان ذلك مرهون بالإشارة إليه كله ، لا إلى جزء منه ، وكذلك الخطابى الذى توصل بعد بحث إلى أن « القرآن إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ فى أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعانى » وبين أنه « قد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق فى أنواع الكلام ، فأما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه فلم توجد إلا في كلام العليم القدير الذى أحاط بكل شيىء علما وأحصى كل شيىء عددا»[2]، وكذلك كان سيد قطب قد انتبه إلى قيمة التضافر فى بيان أوجه الإعجاز القرآنى ، فقد لاحظ ذلك بخصوص العلاقة بين الجانب التشريعى والـجانب الجمالى ، فقال : « إن الإنسان ليقف فى عجب وفى إعجاب أمام التعبير التشريعى فى القرآن حيث

(1) فصلت : 53 .   (2) بيان إعجاز القرآن : 27 .

تتجلى الدقة العجيبة فى الصياغة القانونية حتى ما يبدل لفظ بلفظ ولا تقدم فقرة عن موضعها أو تؤخر ، وحيث لا تطغى هذه الدقة المطلقة فى الصياغة القانونية على جمال التعبير وطلاوته ، وحيث يربط التشريع بالوجدان الدينـــي ربطا لطيـف المدخل عميق الإيحاء قوى التأثير دون الإخلال بترابط النص من ناحية الدلالة القانونية » .

وقال سعيد النورسي : (القرآن ما هو ؟ . . . هو المرشد المهدى إلى ما خلق البشر له وكذا هو للإنسان ، كما أنه كتاب شريعة كذلك كتاب حكمة وكما أنه كتاب دعاء وعبودية كذلك هو كتاب أمر ودعوة ، وكما أنه كـــتاب ذكر كذلك هو كتاب فكر ، وكما أنه كتاب واحد لكن فيه كتب كثيرة في مقابلة جميع حاجات الإنسان المعنوية كذلك هو كمنزل مقدس مشحون بالكتب والرسائل حتى إنه قد أبرز لمشرب كل واحد من أهل المشارب المختلفة ولمسلك كل واحد من أهل المسالك المتباينة رسالة لائقة لمذاق ذلك المشرب) .

وقال الطباطبائي في الميزان [1] : « والآيات المشتملة على التحدي مختلفة في العموم والخصـوص ، ومن أعمـــها تحديا قوله تعالي : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[2] والآية مكية وفيها من عموم التحدى مالا يرتاب فيه ذو مسكة ، فلو كان التحدي ببلاغة بيان القرآن وجزالة أسلوبه فقط لم يتعد التحدي قوما وهم العرب العرباء من الجاهليين والمخضرمين قبل اختلاط اللسان وفساده ، وقد قرع بالآية أسماع الإنس والجن ، وكذا غير البلاغة والجزالة من كل صفة خاصة اشتمل عليها القرآن كالمعارف الحقيقية والأخلاق الفاضلة والأحكام التشريعية والأخبار المغيبة ومعارف أخرى لم يكشف البشر حين النزول عن وجهها النقاب إلى غير ذلك ، كل واحد منها مما يعرفه بعض الثقلين دون جميعهم ، فإطلاق التحدي على الثقلين ليس إلا في جميع ما يمكن فيه التفاضل في الصفات ، فالقرآن آية للبليغ في بلاغته وفصاحته ، وللحكيم في حكمته ، وللعالم في علمه وللاجتماعي في اجتماعه ، وللمقننين في تقنينهم ،

---

(1) التفسير : ص (1 / 59 - 60) .

(2) الإسراء : 88 .

وللسياسيين في سياستهم ، وللحكام في حكومتهم ، ولجميع العالمين فيما لا ينالونه جميعا كالغيب والاختلاف في الحكم والعلم والبيان ، ومن هنا يظهر أن القرآن يدعي عموم إعجازه من **جميع الجهات** من حيث كونه إعجازا لكل فرد من الإنس والجن من عامة أو خاصة أو عالم أو جاهل » .

كل ذلك يبين أن أوجه الإعجاز متعددة ، مما يفرض ضرورة البحث عن صيغة ذات شمول وكلية ، يمكن أن نسميها « **نظرية التضافر** » ، ولكن كيف الوصول إليها ؟

في الحقيقة نحن الآن نعيش فعلا عصر التخصص ، وهو من مكتسبات العصر التي ينبغي الحفاظ عليها ؛ لأن التخصص من شأنه أن يعمق فهمنا للظواهر والمجالات المعرفية ، ولكن دون أن نتعصب له باسم العصرنة أوما شابه ذلك من التعليلات التي إن صلحت في مجال فإنها قد لا تصلح في غيره . بل إن التخصص نفسه« يقتضي أن تكون النظرة للعلوم جميعا نظرة متضافرة من أجل غاية بعيدة هي تحقيق الفهم الإنساني والسعادة البشرية »[1] ، ومعنى ذلك أن فهمنا للأشياء والظواهر يتطلب « أن يكون هذا الفهم مربوطا بدائرة واسعة من الثقافة العامة ، وكلما زاد نصيب صاحب التخصص من الثقافة العامة زاد عمقه في تخصصه »[2] ؛ لأن العلم في الحقيقة نتيجة تراكمات معرفية تجمعت من خلال جداول معرفية كثيرة تضرب في القدم إلى عهد سيدنا آدم عليه السلام ، منها ما هو يقيني كالوحي الذى نجا من التحريف ، ومنها ما هو نسبي كالإنتاج العلمي البشري .

وعلى هذا الأساس كان لزاما علينا أن نبحث قضية الإعجاز في فضاء ثقافي أكثر شمولا واتساعا لنتبين بصورة أكثر وضوحا هذه الحقيقة الخالدة ، « وعلى ذلك فإذا كنا لا نستطيع أن نرد العلوم كلها إلى الوحدة ، فلا أقل من أن ننسق بينها بحيث يشملها سياق شامل ، ويفيدنا هذا في الوصول إلى نظرة عامة مستوعبة للمعارف الإنسانية »[1]، ومن المعارف الإنسانية مجتمعة يمكن أن يفتح الله علينا بفهم أعمق

---

(1) محمد فتحي الشنيطي : أسس المنطق والمنهج العلمي : ص 156 .

(2) نفسه .

(3) نفسه : ص 166 .

لكثير من القضايا العلمية القرآنية التي استوعبها الإنسان إلى تاريخنا الحديث ، ولا شك أن كثيرا جدا من الحقائق ستظل غامضة في مجال القرآن إلى أن تتفتح مجالات معرفية أخرى ·

وعلى هذا إن البرهنة على مصداقية نظرية التضافر يتطلب الوقوف على النصوص القرآنية بدقة ؛ لذلك لابد من تحليل بعض النماذج الأكثر تعبيرا عن خصائص النظرية ·

والآن سنبين معالم تلك النظرية من خلال كشف أسباب ذلك الإعجاز عن طريق تحليل الآيات القرآنية تحليلا دقيقا ومتنوعا ومتكاملا لنكشتشف من خلالها تضافر الوجوه الإعجازية جميعها في الآيات ·

وما دام العصر عصر التحديات العلمية ، فيحسن بنا أن نتوقف عند هذه الآيات التى توقف عندها من قبل داود الأنطاكى المتوفى 1008 للهجرة ، ثم الرافعى فى كتابه الذى تناول فيه إعجاز القرآن ·

النص :

قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ من سُلاَلَة مِّن طين * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فى قَرَار مَّكين * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عظَامًا فَكَسَوْنَا العظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ، فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالقينَ * ثُمَّ إنَّكُمْ بَعْدَ ذَلكَ لَميِّتُونَ * ثُمَّ إنَّكُمْ يَوْمَ القيَامَة تُبْعَثُونَ * وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائقَ وَمَا كُنَّا عَن الخَلْق غَافلينَ * وَأَنزَلْنَا مَنَ السَّمَاء مَاءً بقَدَر فَأَسْكَنَّاهُ فى الأَرْض ، وَإنَّا عَلَى ذهَاب به لَقَادرُونَ * فَأَنشأْنَا لَكُم جَنَّات مِّن نَخيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فيهَا فَوَاكهُ كَثيرَةٌ وَمنْهَا تَأْكُلُونَ** ﴾[1] ·

الإعجازات الواردة في النص :

1 - **الإعجاز الخبري** : ويتمثل في الإخبار عن أصل الإنسان ، فقد كان المفك والفلاسفة والعلماء منذ القديم وإلى اليوم يتساءلون عن أصل الإنسان ، فمنهم من يرده إلى الحيوان كما فعل دارون ، ومنهم من يرده إلى غير ذلك ، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو الأمي الذي لا يعرف القراءة والكتابة ، فضلا عن أن يفكر في كبريات القضايا التي تجمع بين ضرورة المعرفة بالعلوم البيولوجية والديانات والتاريخ

(١) المؤمنون : 12-19

وما إلى ذلك من العلوم التي قد تعين الإنسان على التفكير الموصل لهذه الحقيقة التي أثبتها العلم بعد مرور أربعة عشر قرنا إثباتا لا يزال موضع شك وتردد ، كما سيبين لنا حين نتحدث في الإعجاز العلمي لهذه الآية ، إذ أن جسم الإنسان يحتوي على ماء + حديد + كبريت + كلس + عناصر أخرى ، وقد ذكر صاحب كتاب : الله والعلم الحديث ما يلي : « وقد أثبت العلم الحديث أن جسم الإنسان يحتوي من العناصر ما تحتويه الأرض فهو يتكون من الكربون والأكسجين والأيدروجين ، والفوسفور والكبريت والآزوت والكالسيوم والبوتاسيوم والصديوم والكلور ، والمغنيزيوم والحديد والمنجنيز والنحاس واليود والفلورين والكوبالت والزنك والسلكون والألمينيوم ، وهذه نفسها هي العناصر المكونة للتراب وإن اختلفت نسبها من إنسان عن الآخر وفي الإنسان عن التراب إلا أن أصنافها واحدة[1] .

2- توافق الآيات وخلوها من الاختلاف :

فقد وافقت هذه الآية آيات أخرى في معناها مثل قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ، وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ، وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى ، وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾[2] .

وقوله في الأنعام : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً ، وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ، ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾[3] وقوله في السجدة : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ، وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلاَلَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ، قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ * وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ، بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾[4] .

وقال في الأعراف : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا

---

(1) الطب والعلم الحديث : ص 180 عن : في ظلال القرآن : 6 / 3451 .

(2) الحج : 5 مدنية . (3) الأنعام : 2 مكية .

(4) السجدة : 7 - 10 مكية

لآدمَ فَسَجَدُوا إلاّ إبْلِيسَ ، لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ، قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾[1].

وقال في الصافات : ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا ، إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لاَزِبٍ ﴾[2] وقال في سورة ص : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾[3] .

وقال في الإسراء : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلاّ إبْلِيسَ ، قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾[4] .

فهذه الآيات كلها كانت من سور مختلفة ، ومعناه أنها نزلت في أوقات مختلفة وظروف مختلفة ، ومع ذلك لا تجد بينها اختلافا أو تناقضا ، بل إن القرطبي قد انتبه إلى هذه المسألة وقارن بين الأحاديث الصحيحة والآيات ثم عقب بقوله : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما من مولود إلا وقد ذر عليه من تراب حفرته) قلت: وعلى هذا يكون كل إنسان مخلوق من طين وماء مهين فتنتظم الآيات والأحاديث ويرتفع الإشكال والتعارض[5] ، ولهذا السبب كان القدماء قد اشترطوا في الإعجاز السلامة من الاختلاف والتعارض[6] . فأنت ترى كيف خلت الآيات من الاختلاف ، فكان بعضها يعضد بعضا أو يفسره .

3- الإعجاز العلمي للآية :

حينما يقول الدكتور خالص جلبي ، وهو صاحب اختصاص في الطب : « نحاول على ضوء هذه الآية أن نتبين بعض الأسرار المادية في تكوين الإنسان وتخلقه حيث استطاع الطب الحديث أن يكتشف بعض أسرار التكوين[7] . فإن ذلك يعني أن الطب لم يستطع بعد مع التقدم الذي أحرزه في ميدان الوسائل أن يكتشف

---

(1) الأعراف : 11 - 12 مكية .
(2) الصافات : 11 مكية .
(3) سورة ص : 71 - 72 مكية .
(4) الإسراء : 61 مكية .
(5) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : 6 / 388 .
(6) السيوطي : الإتقان : 2 / 116 .
(7) خالص جلبي : الطب محراب الإيمان : 1 / 59 .

كل الأسرار المتعلقة بجسم الإنسان سواء بالنسبة لمكونات الجسم مثل : الماء والحديد والكبريت والكلس و ٠٠٠ أو بالنسبة لمراحل تطور الجنين في بطن أمه إلى أن يصير بشرًا سويًّا ، وهذا وحده دليل قاطع على إعجاز القرآن من الناحية العلمية في هذه الآية ٠

ولكن لا بأس من أن نواصل دراسة المراحل حتى يتبين لنا الأمر من كثب ، وذلك بعد أن نفهم الآية أولا ٠

يقول القرطبي :« إنا خلقناكم أي خلقنا أباكم الذي هو أصل البشر يعني آدم عليه السلام من تراب ، ثم خلقنا ذريته من نطفة وهو من المني ، سمي نطفة لقلته ، وهو القليل من الماء ٠٠٠ ثم من علقة وهو الدم الجامد والعلق الدم العبيط أي الطري وقيل الشديد الحمرة ، ثم من مضغة وهي لحمة قليلة قدر ما يمضغ ٠٠٠ وفي العشر بعد الأشهر الأربعة ينفخ فيه الروح فذلك عدة المتوفي عنها زوجها أربعة أشهر وعشرا[1] .

قال وقيل « المراد بالسلالة ابن آدم والسلالة على هذا صفوة الماء ، والسلالة فعاله من السل وهو استخراج شئ من الشئ[2] ٠ وقد صيغ للدلالة على القلة وقد قال ابن قتيبة « إنما جعل آدم من سلالة لأنه سل من كل تربة »[3] ٠

ونبدأ الآن ببيان المسألة الأولى وهي :« عناصر التراب في الإنسان » :

إن علماء الأحياء يقولون إن الخلية تحتوي على:«الماء ثم الأملاح المعدنية حيث تحتوى خلايا جميع الأحياء على ما يلى من العناصر المعدنية بالدرجة الأولى :(H) هيدروجين + (C) فحم + (N) آزوت + (O) أوكسجين + (P) الفوسفور ثم عناصر ثانوية وهى (Na) الصوديوم + (Mg) مغنزيوم + (CL) كلور + (K) بوتاس+(Ca) كلس + (Fc) حديد ثم عناصر بكمية قليلة جدا هى (B) بور + (F) فلور +(Si) سيليس + (MN) منغنيز +(CU) نحاس + (I) يود وهكذا نرى وسطيا فى كل خلية حية

(1) الجامع لأحكام القرآن : 6 / 127 ٠

(2) الجامع لأحكام القرآن : ص 109 ٠

(3) غريب القرآن : ص 296 ٠

من العناصر المعدنية حوالى ١٨ عنصرا ، وهى العناصر الموجودة في التراب الذى نعيش عليه مصداقا لقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾(1) .

إن الطب يعترف أنه يعجز عن تفسير المورثات التي تحمل صفات الإنسان الإرثية وعلى أي حال فإنهم يرون أن البيضة التي تكونت من اجتماع البويضة والنطفة سيخلق منها الإنسان بكامله وصدق الله إذ يقول : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾(2) .

والآن أين تستقر النطفة؟ إن الآية نشير إلى أن النطفة تجعل في قرار مكــين : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ ، والضمــير في جعلناه يعود على الإنسان المخلوق ، وعندئذ قد يكون المعنى جعلنا النطفة في الظهر والبويضة في الترائب كـما قال : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾(3) ، والصلب هو عظام ظهر الرجل الفقارية ، والترائب هي عظام صدر المرأة العلوية ، ولقد ظل هذا سرًا إلى النصف الأخير من هذا القرن حيث عرف أن ماء الرجل يتكون في الصلب وماء المرأة يتكون في الترائب ثم يلتقيان في قرار مكين حيث ينشأ الإنسان(4) ، وبهذا يكون القرار المكين إشارة إلى القرار في الصلب والترائب ، وهما قراران مكينان للحفاظ على الماء لئلا يتعرض للموت ، إذ أن الحيوان المنوي إذا خرج حتــى وهو قبل التلقيح للبويضة يموت بعد ثلاثة إلى أربعة أيام ، كما أن البويضة إذا خرجت من جرابها لا تعيش إلا ساعات قليلة(5) ، كما يحدثنا العلم أن البويضات تكون فى المبيض وهى تقرب من 400 ألف جريب توجد فى جراب كالسجن أو أشد(6) .

---

(1) الإنسان : 12 والنطفة ذكرت 12 مرة فى القرآن .
(2) الإنسان : 2 .
(3) الطارق : 7 .
(4) الظلال : 6 / 3878 .
(5) الطب محراب الإيمان : 1 / 73 .
(6) نفسه : ص 58 - 69 .

وقد يكون المقصود بالقرار المكين هو « الرحم » ذلك لأن « الجدار الرحمى مغلقا أساسا ولا يفتح إلا أمام البيضة الملقحة ويغلق الباب الذى فتح لها خلفها ثم يغلق الجدار »[1] وهكذا يتم الطور الثانى ويبدأ الطور الثالث وهو المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ و « العلقة » هى الطور الذى تعلق فيه النطفة بجدار الرحم وتمتص الغذاء للجنين ؛ من الماء والفيتامينات والسكريات والأمينات والدسم والأملاح ، وبعد أن تتكدس الخلايا تشكل ما يسمى التوتة التى يختص قسم منها بالتكوين الخارجى للمضغة ويختص قسم صغير فى تكوين المساحة الإنسانية وتنتهى دورة هذا الطور الذى أشار إليه قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾ ومنها ستتخلق العظام ، وهكذا تبدأ عملية التخلق ويظهر الدماغ أولا والنخاع ثم تتولد الفقرات والامتداد العظمى ، وهى عظام الأطراف ، وينتهى هذا الطور المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا ﴾ والعجيب أن العضلات تتكون بعد العظام وهى المرحلة التى يعبر عنها قوله ﴿ فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ﴾ .

ثم تبدأ العملية الجبارة التى تتمثل فى مرحلة خلق أعضاء الجنين فتختص بعض الخلايا بالحواس والأخرى بالجملة العصبية والأخرى بالرئتين والكبد وأخرى بالشعر بحيث تجد كل مجموعة خلوية تقوم ببناء جهاز خاص بحيث يأخذ كل جهاز مكانه الطبيعى ، ولذا لم تنبت العين إلا فى موضعها وكذا بقية الأعضاء والحواس ، ومع ذلك فإن الإنسان يبقى أقرب فى مضغته إلى الحيوان ، ولكن ما إن يكتمل الشهر الثانى حتى ينشأ الإنسان إنشاء جديدا[2] ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ .

خلاصة المراحل : عند تأمل المراحل نجد أنها ليست على مستوى واحد لأن :

– كما يقول الدكتور خالص جلبى : « يعتبر الشهر الأول مرحلة بيضية ؛ لأن شكل الإنسان ما زال فى طور البيضة والشهر الثانى يعتبر مرحلة مضغية ؛ لأن شكل الإنسان كأنه قطعة لحم ممضوغة ، وفيها يدخل الإنسان مرحلة الجنين الكامل حيث

---

(1) الطب محراب الإيمان : 74 - 75 .

(2) نفسه : ص 75 - 76 .

تتكامل أعضاؤه وتتميز وتأخذ الشكل النهائى ثم يبدأ الشهر الثالث لينمو نموا جديدا » [1] لتأخذ بعد ذلك **مظاهر الجمال** بالظهور حتى إذا جاء الشهر التاسع يكون الجنين قد اكتمل ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ ﴾ .

هل بعد هذا يمكن أن يشك أحد من كبار العلماء أن محمدا ﷺ يمكن أن يعرف ذلك من تلقاء نفسه لو لم يكن الوحى يتنزل عليه ؟

الإعجاز البلاغى فى الآية :

عند تأمل الآية - كما نرى - كان موضوعها علميا نجدها قد استخدمت من أجل بيان الترابط الموجود بين مراحل التطور أداتين من أدوات العطف هما : « ثم » و « الفاء » ، أما الأولى فتفيد الترتيب مع التراخى ، وأما الفاء فتفيد الترتيب مع التعقيب ، فما سر استخدام كل منهما ؟ وهل وضعتا اعتباطا أم أن الأمر كان فى غاية الدقة ليتناسب مع ما يقتضيه الموضوع العلمى الدقيق الذى كان معجزة علمية لا يخطر مضمونها ببال عالم معاصر يفتقد لأدق الوسائل العلمية مهما كان نضج خياله العلمى ؛ لأن المسألة تحتاج لتجارب عديدة فى أحدث المخابر ولمدة طويلة ؟ .

حينما نتأمل المراحل التى يمر بها الجنين نجد أن ثلاثة منها متباعدة من حيث التشكيل بحيث تعد كل مرحلة متميزة تماما عن سابقتها وهما :

1- مرحلة النطفة .

2 - مرحلة العلقة (وفيها يتحول تحولا سريعا إلى المضغة فالعظام فاللحم) .

3- مرحلة الاستواء الخلقى الإنسانى .

وعند التعبير نجد حرف « ثم » هو المستخدم فى هذه المراحل الثلاثة ، وهكذا نجد الحرف فى دلالته على الترتيب والتراخى هو المناسب للاستخدام .

أما المراحل الثلاثة الأخرى فهى متتالية فى التحول ؛ إذ أنها عبارة عن تحول داخلى لكتلة واحدة هى « العلقة » ، وعليه كانت المراحل الثلاثة التى هى :

1- المضغة .

2 - العظام .

3- اللحم الذى يكسو العظام .

---

(1) نفسه .

مراحل متتابعة يتسبب السابق فى وجود اللاحق منها ، فعير عن تتابعها السريع بالحرف المناسب لذلك وهو « الفاء » لأنها تفيد الترتيب مع التعقيب والسببية .

وهذه الدقة لا تتأتى فى الواقع إلا لمن جمع بين العلم بالموضوع المعبر عنه والعلم بدقة أدوات التعبير ، وهذا لم يتأتى إلا للعليم الخبير .

ويمكن أن تشكل الآية حسب الشكل التالى [1] : لنبين ترابط الجمل تبعا لترابط عناصر الموضوع من جهة ، وتوزيع الأفعال وفق دلالتها وبحسب ما يقتضيه توزيع المراحل التى يمر بها الإنسان من الخلق الأول من التراب إلى تصييره نطفة إلى تخلقه خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاثة إلى أن يكسى عظمه لحما إلى أن ينشأ خلقا آخر يختلف كلية عن الكائنات الحيوانية التى تنمو بنفس الطريقة التى ينمو بها الإنسان ، وجنين الإنسان يشبه جنين الحيوان فى أطواره الجسدية ، ولكن جنين الإنسان ينشأ خلقا آخر ويتحول إلى تلك الخلية المتميزة المستعدة للارتقاء ويبقى جنين الحيوان فى مرتبة الحيوان مجـــــردا من خـــصائص الارتقاء والكمال الذى يمتاز بها جنين الإنسان . . .

لقد اختلف بعد ذلك بتلك الخصائص المعينة الناشئة من تلك النفخة التى ينشأ بها الجنين الإنسانى (**خلقا آخر**) وسنلاحظ أن **بناء نص بهذه الدقة** التى روعيت فى استعمال الحروف الرابطة التى هى (الواو) و (ثم) و (الفاء) ، كما روعيت بنفس المستوى فى اختيار الأفعال الدالة التى هى (خلق + جعل + خلق مكرر ثلاث مرات + كسا + أنشأ) إنما كان استجابة للمعنى والمحتوى بحسب التطور والتحول الذى يحدث فى الكائن الحى (الجنين) أى أن **المبنى النصى** كان استجابة لمقتضيات الأحوال ومقاصد النص كما يقول الشاطبى [2] ،ولهذا السبب نفسه نلاحظ أن تسلسل الأسماء وانتظامها فى النص إنما يتم بحسب تسلسل مراحل النمو فى واقع الجنين ، فتترتب كما يلى : (السلالة الطينية -> النطفة -> العلقة -> المضغة - العظام+ اللحم -> الخلق المبارك - الحسن) .

ولكى يتم الترايط النصى بحسب ترابط مراحل التحول هذه فإن الله قد اختار

---

(1) انظر الشكل (1) .

(2) الموافقات .

الأفعال التى تتعدى إلى مفعولين ؛ لأنها تتضمن تماسك العلاقات بين الكلمات الدالة على مراحل التحول فكانت ما يلى :

(جعلناه نطفة + خلقنا النطفة علقة + خلقنا العلقة مضغة + خلقنا المضغة عظامًا + كسونا العظام لحما + أنشأناه خلقا آخر) ، ولا يستثنى من تلك المراحل السبعة إلا المرحلة الأولى لأن التركيب فيها يختلف إذ قال : ﴿ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مِن طِينٍ ﴾ والسبب فى أن جعل الفعل يتعدى بحرف الجر (من) مع أنه هو نفسه قد استعمل فى الجمل الأخرى ليتعدى مباشرة هو الاختلاف الواقع بين دلالة الجمل الستة الأخرى وبين الجملة الأولى ؛ إذ أن الجملة الأولى لم تدل على وقوع تحول فى المادة نفسه وإنما دلت على استدلال مادة معينة من الطين ، فليس الطين هو الذى تحول وإنما استخلصت منه خلاصة صيرت بعد ذلك نطفة ، يقول الزمخشرى فى الكشاف : السلالة ، الخلاصة لأنها تسل من بين الكدر ، وفعالة بناء للقلة ، وعن الحسن السلالة ماء بين ظهرانى الطين ، ومعنى جعلنا الإنسان نطفة ، أنه خلق جوهر الإنسان أولا طينا ثم جعل جوهره بعد ذلك نطفة [1] ، وعلى هذا الأساس ، وبهذا السبب عدى الفعل خلق بالحرف (من) التى تفيد الابتداء كما نص على ذلك الزمخشرى .

ومن الجدير بالذكر هنا أن نتطرق للأسباب التى جعلت النص يستخدم أدوات الربط بالأسلوب الذى بيناه فى الشكل السابق ، إذ أننا نلاحظ أن حرف (الواو) قد وظف دائما فى بداية الخلقة العامة (« ولقد حلقنا الإنسان من سلالة » + « ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق » + « وأنزلنا من السماء ماء بقدر ») فالواو هنا وصلت الحلقات ببعضها (حلقة خلق الإنسان + خلقة خلق السماوات أو الطرائق السبع + حلقة إنزال الماء من السماء إلى الأرض من أجل الإنسان) ، ومن الواضح أن العلاقة بين الحلقات الثلاث تكمن فى بداية الخلق من جهة ، ومصدر الخلق من جهة ثانية ، وهو الخالق ،ولذلك وجد هذا الترابط بين الواو والأفعال والضمير « أنا » الذى يدل على العظمة (ولقد خلقنا الإنسان + ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق + وأنزلنا من

(1) الزمخشرى : الكشاف : 3 / 27 .

السماء ماء) ، هذا وقد ارتبطت الواو كذلك بالحرف « لقد » الذى يفيد عند دخوله على الفعل الماضى التحقيق ؛ لأن « لقد » تختص بالفعل وتكون بمثابة جزء منه ولذلك لا تعمل فيه (1) .

ومن المعلوم أن (الواو) تفيد الجمع ومن ثم أدت وظيفتها هنا لتثبت اجتماع كل تلك البدايات فى يد المبدع الخالق الواحد ، ولكن الواو لا تفيد إلا مجرد الجمع ولهذا جاءت هنا لأن الغرض من الآيات فى الحلقات الثلاث إنما هو مجرد التذكير بتكريم الله للإنسان إذ سخر له وهو المخلوق الضعـــيف ما فى الحلقـــتين الأخيرتين (السماوات + الماء) .

ولهذا السبب ذكرت حلقة خلق الإنسان أولا ، ثم حلقة خلق السموات السبع ثم إنزال الماء الذى يضمن لكل حى حياته فى الأرض ، مع أن الآيات تذكر فى موضع آخر أن الله سبحانه وتعالى خلق السموات والأرض وإنزال المياه قبل خلق الإنسان ، فالترتيب إذن ترابطت فيه الآيات بالواو وانتظمت بحسب المقاصد وما يقتضيه الحال ، وهو تكريم الإنسان بتسخير الطبيعة - على عظمتها - له ، ومن الواضح أن الواو من حيث ربطها بين الحلقات قد نجدها تجمع بين مجموعة من الآيات .

أما بالنسبة لـ (ثم) فقد استعملت فى المراحل التى بينها مهلة ،وهى كما ترى فى النص الذى يشكل الحلقة الأولى وهى حلقة دورة حياة الإنسان تمثل الآيات التى بينها تراخ ومهلة داخل الدائرة نفسها على الشكل التالى : (ثم جعلناه نطفة + ثم خلقنا النطفة + ثم أنشأناه خلقا آخر + ثم إنكم بعد ذلك لميتون + ثم إنكم يوم القيامة تبعثون) .

وقد أنبه لهذه العلاقة داود الأنطاكى المتـــوفى سنة 1008 هـ وبين ذلك قائلا : « ولما كان بين هذه المراتب من المهلة والبعد ما سنقرره ، عطفها بـ (ثم) المقتضية للمهلة » (2) .

---

(1) انظر : مادة « قد » فى المعاجم .

(2) انظر الرافعى : تاريخ آداب العرب : ج 2 ص 136 .

أما بالنسبة لحرف (الفاء) التى تفيد الترتيب مع التعقيب مع السببية فقد وظفت فى الطور الذى تسارعت فيه التحولات ، يقول داود الأنطاكى : « ثم شرع فى المراتب القريبة التحويل والانقلاب وهى ثلاثة :

أحـــدها ما أشـــار إليه بقوله : ﴿ فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾ أى حولنا الدم جسما صلبا قابلا للتفصيل والتخليط والتصوير والحفظ .

وثانيها مرتبة العظام المشار إليها بقوله : ﴿ فَخَلَقْنَا المضْغَةَ عِظَامًا ﴾ أى صلبنا تلك الأجسام بالحرارة الإلهية حتى اشـــتدت وقبلت التوثيق والربط والإحكام والضبط .. وقوله ﴿ فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْمًا ﴾ أى حال تحويل الدم غاذيا للعظام لا يكون عنه إلا اللحم والشحم وكل ما يزيد وينقص » (1) .

فالجمل التى ربطت بالفاء كانت فى الواقع تعبر عن المراحل التى يتم التحول فيها ذاتيا وسريعا ، ولعله لذلك كانت كلها فى آية واحدة هى الآية (14) التى تتضمن الحديث عن (العلقة + المضغة + العظام + اللحم) وهى كلها مراحل يبنى بعضها على بعض ، ويكون بعضها بسبب من بعض ؛ مما يتناسب مع فاء السببية التى تفيد الترتيب مع التعقيب ، لتبين التتالى الذى تمت عليه تلك المراحل المتعاقبة ، حتى إذا جاء إلى مرحلة تميز الإنسان عن الحيوان وظف الحرف (ثم) فقال : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ لأنه ينسجم مع المهلة التى يقضيها الجنين فى هذه المرحلة التى ينفخ فيها الروح ، وسنلاحظ من بعد أن الفعل أنشأ يفيد الإدراك .

ونستنتج من كل ما سبق أن هذا النص بنى على الوصل بحروف العطف الثلاثة (و + ثم + فـ) لأن حلقاته تشكل وحدة واحدة ، ولأن الوصل يكون أوجب حيث يكون الترابط بين الجمل وسطا بين شدة الاتصال وشدة الانفصال ، فالعطف - كما يقول الجرجانى - لما هو واسطة بين الأمرين وكان له حال بين الحالين (2) .

من كل ذلك يتبين لنا أن حروف العطف الثلاثة لم توظف اعتباطا، وإنما وظفت بحسب ما يقتضيه الحال،أو السياق المعنوى الذى أسست عليه الآية العلمية ،ومن ثم

---

(1) انظر الرافعى : تاريخ آداب العرب : ص 136 - 137 .

(2) انظر : دلائل الإعجاز : ص 188 .

نقول مع بهاء الدين السبكى : إن غاية النحوى أن ينزل المفردات على ما وضعت له ويركبها عليها ، ووراء ذلك مقاصد لا تتعلق بالوضع مما يتفاوت به أغراض المتكلم على أوجه لا تتناهى ،وتلك الأسرار لا تعلم إلا بعلم المعانى ، والنحوى وإن ذكرها فهو على وجه إجمالى يتصرف فيه البيانى تصرفا خاصا لا يصل إليه النحوى [1] .

بهذا نعرف جانبا هاما مما به كان النص معجزا ، ونعرف كما قال عبد القاهر الجرجانى : « من أين كان نظم أشرف من نظم وبم عظم التفاوت واشتد التباين ، وترقى الأمر إلى الإعجاز وإلى أن يقهر أعناق الجبابرة ؟ » [2] .

إن مسألة الوصل والفصل التى عرضنا لها الآن هى من آكد مواضيع البلاغة وأشدها تعقيدًا حتى قال فى ذلك الجرجانى : « اعلم أن العلم بما ينبغى أن يصنع فى الجمل من عطف بعضها على بعض أو ترك العطف فيها والمجيىء بها منثورة تستأنف واحدة منها بعد أخرى من أسرار البلاغة ومما لا يأتى لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخلص . . . وقد بلغ من قوة الأمر فى ذلك أنهم جعلوه حدًّا للبلاغة ، فقد جاء عن بعضهم أنه سئل عنها فقال : معرفة الفصل من الوصل ، ذاك لغموضه ودقة مسلكه وأنه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد إلا كمل لسائر معانى البلاغة » [3] .

والحق أن العطف بالواو من أعقد المسائل ، ولكن مع ذلك فإن باقى الحروف ليس أمرها هينا سهلا ، على أن عبد القاهر الجرجانى يقول : « واعلم أنه إنما يعرض الإشكال فى الواو دون غيرها من حروف العطف ، وذاك لأن تلك تفيد مع الإشراك معانى مثل أن الفاء توجب الترتيب من غير تراخ و (ثم) توجبه مع تراخ . . . فإذا عطفت بواحد منها الجملة على الجملة ظهرت الفائدة فإذا قلت : أعطانى فشكرته ظهر بالفاء أن الشكر كان معقبا على العطاء ومسببا عنه ،وإذا قلت خرجت ثم خرج زيد أفادت (ثم) أن خروجه كان بعد خروجك وأن مهلة وقعت بينهما . . . وليس

---

(1) نفسه : ص 170 - 171 .

(2) دلائل الإعجاز : ص 85 - 86 .

(3) نفسه : ص 170 - 171 .

للواو معنى سوى الإشراك فى الحكم الذى يقتضيه الإعراب الذى اتبعت فيه الثانى الأول . . . ولا يتصور إشراك بين شيئين حتى يكون هناك معنى يقع ذلك الإشراك فيه . . وجملة الأمر أنها لا تجيء حتى يكون المعنى فى هذه الجملة لفقا لمعنى فى الأخرى ومضاما له . . . وكذا السبيل أبدا والمعانى فى ذلك كالأشخاص »[1] .

من الطبيعى القول بأن النص لا يتألف تألفه الجميل الذى يرفعه إلى مستوى الإعجاز بسبب التحكم فى الفصل والوصل الذى عالجناه لحد الآن فقط ، وإنما يتحقق ذلك الحسن المعجز بالقدرة الفائقة فى التأليف بين مجموع العناصر الأخرى التى تنظم فى التركيب النصى بحسب انتظام المعانى التى تترتب بحسب المقاصد ومقتضيات الأحوال ، وهذا يقودنا للحديث عن انتظام بقية العناصر التى سبق ذكرها بشيء من الإيجاز .

إن النصوص الناجحة إنما هى تلك التى تترتب فيها خصوصيات التركيب وفق مقتضى الحال والمقاصد ، وبقدر دقة استجابة التراكيب للمقتضيات يكون حسن النص ، حتى يصل إلى الإعجاز ،ولهذا رأى القدماء أنفسهم أن النصوص مستويات ، قال الخطابى : « إن أجناس الكلام مختلفة ، ومراتبها فى نسبة التبيان متفاوتة ، ودرجاته فى البلاغة متباينة غير متساوية ، فمنها البليغ الرصين الجزل ، ومنها الفصيح القريب السهل ، ومنها الجائز الطلق الرسل ، وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود دون النوع الهجين المذموم الذى لا يوجد فى القرآن شيء منه البتة ، فالقسم الأول : أعلى طبقات الكلام وأرفعه ، والقسم الثانى : أوسطه وأقصده والقسم الثالث : أدناه وأقربه ، فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصة ، وأخذت من كل نوع من الأنواع شعبة ، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتى الفخامة والعذوبة ، وهما على الانفراد فى نعوتها كالمتضادين لأن العذوبة نتاج السهولة ، والجزالة والمتانة فى الكلام تعالجان نوعا من الوعورة ، فكان اجتماع الأمرين فى نظمه مع نبو كل واحد منهما على الآخر فضيلة خص بها القرآن ، ويسرها الله بلطيف قدرته من أمره ليكون أكبر بينة لنبيه ودلالة له على صحة ما دعا إليه من أمر دينه .

(1) نفسه : ص 172 - 173 .

وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله لأمور : منها أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وبألفاظها و (أوضاعها) التى هى ظروف المعانى والحوامل لها ، ولا تدرك أفهامهم جميع معانى الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ ،ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظوم التى بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض ، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله ،وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حامل ، ومعنى به قائم ، ورباط لها ناظم ، وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه فى غاية الشرف والفضيلة حتى لا يرى شيء من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ،ولا ترى نظما أحسن تأليفا وأشد تلاؤما وتشاكلا من نظمه ، وأما المعانى فلا خفاء على ذى عقل أنها هى التى تشهد لها العقول بالتقدم فى أبوابها ، والترقى إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها ، وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق فى أنواع الكلام ، فأما أن توجد مجموعة من نوع واحد منه فلم توجد إلا فى كلام العليم الخبير الذى أحاط بكل شيىء علما وأحصى كل شيىء عددا فتفهم الآن واعلم أن القرآن إنما صار معجزًا لأنه جاء بأفصح الألفاظ فى أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعانى » (1) .

إن النصوص إذن مستويات أعلاها هو المعجز ، ولكن بأى سبب يكون الإعجاز ما دام الفصل والوصل وحدهما غير كافيين للبرهنة على الإعجاز البلاغى للقرآن ؟ .

لقد لاحظنا أن الخطابى يرجع الكلام إلى تضافر ثلاثة عناصر : (لفظ حامل + معنى به قائم + رباط لهما ناظم) ويرجع الإعجاز إلى قدرة التحكم فيهما ومن ثم تبين له « إن القرآن إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ فى أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعانى » ، وهو يرى « أن الإتيان بمثل هذه الأمور والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتسق أمر تعجز عنها قوى البشر ولا تبلغه قدرهم فانقطع الخلق دونه وعجزوا عن معارضته بمثله أو مناقضته فى شكله » (2) .

---

(1) الخطابى : بيان إعجاز القرآن : ص 26 - 27 .
(2) الخطابى : بيان إعجاز القرآن : ص 28 .

وسبب العجز فى رأيه يعود إلى علم الإنســـان المحدود فى مقابل علم الله المطلق ، فقد تعذر على البشر الإتيان بمثله لأمور منها :

1- أن علمهم لا يحيط بجميع الألفاظ ·

2 - أن أفهامهم لا تدرك جميع معانى الأشياء ·

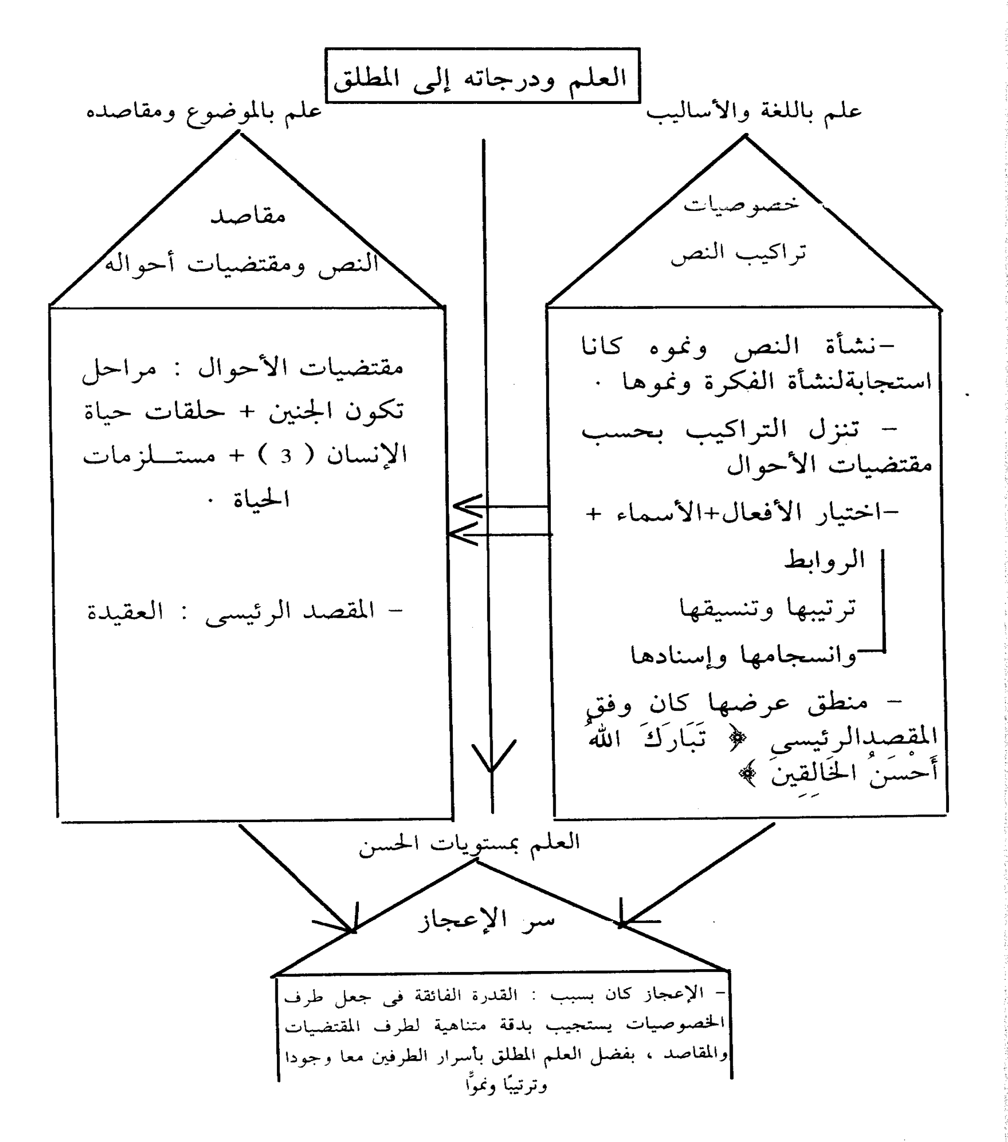
3 - لا تكمل معرفتهم بجميع وجوه النظوم التى بها يكـــون ارتباط بعضها ببعض (1) .

والواقع أن هذه المسائل التى ذكرها الخطابى فى غاية الأهمية ولذلك لابد من توظيفتها فى بيان الإعجاز البلاغى للنص الذى نحن بصدد دراسته ، لاسيما بعد أن وجدنا بعض المفسرين يقولون « هاهنا جهات ثلاث يمكن أن تجتمـــع فى الوجـــود أو تفترق فربما أحاط إنسان بلغة من اللغات فلا يشذ عن علمه لفظ ، لكنه لا يقدر على التهجى والتكلم ،وربما تمهر الإنسان فى البيان وسرد الكلام لكن لاعلم له بالمعارف والمطالب ، فيعجز عن التكلم فيها بكلام حافظ لجهات المعنى ، حاك لجمال صورته التى هو عليها فى نفسه ،وربما تبحر الإنسان فى سلسلة من المعارف ولطفت قريحته ورقت فطرته لكن لا يقدر على الإفصاح عن ما فى ضميره ، وعيًّ عن حكاية ما يشاهده من جمال المعنى ومنظره البهيج ، فهذه أمور ثلاثة : أولها راجع إلى وضع الإنسان بقريحته الاجتماعية ، والثانى والثالث راجعان إلى نوع من لطف القوة المدركة ، ومن البين أن إدراك القوى المدركة منا محدودة مقدرة لا تقدر على الإحاطة بتفاصيل الحوادث الخارجية والأمور الواقعية بجميع روابطها » ·

وسنوضح المسألة حسب الشكل التالى :

---

(1) نفسه : ص 26 ·


العلم ودرجاته إلى المطلق
علم باللغة والأساليب
علم بالموضوع ومقاصده
خصوصيات
تراكيب النص
مقاصد
النص ومقتضيات أحواله
-نشأة النص ونموه كانا استجابةلنشأة الفكرة ونموها ·
- تنزل التراكيب بحسب مقتضيات الأحوال
-اختيار الأفعال+الأسماء +
الروابط
ترتيبها وتنسيقها
وانسجامها وإسنادها
- منطق عرضها كان وفق المقصدالرئيسى ﴿ تَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ ﴾
مقتضيات الأحوال : مراحل تكون الجنين + حلقات حياة الإنسان (3) + مستلزمات الحياة ·
- المقصد الرئيسى : العقيدة
العلم بمستويات الحسن
سر الإعجاز
- الإعجاز كان بسبب : القدرة الفائقة فى جعل طرف الخصوصيات يستجيب بدقة متناهية لطرف المقتضيات والمقاصد ، بفضل العلم المطلق بأسرار الطرفين معا وجودا وترتيبًا ونموًّا

ونستنتج من ذلك أن الإعجازين : العلمي والبلاغي يعودان إلى العلم بأسرار العناصر التي يصنع منها الشيئ إن كان الإعجاز يطلب فيه ، ويرجى منه.، أو العلم بأسرار العناصر التي ينشأ منها النص البليغ إن كان الإعجاز يطلب في ذلك الجانب البلاغي .

وعند تأملنا للمسألة بحسب النصين نجد أن التركيز كان قائما في التوجيه للبحث في « أسرار التركيب » سواء بالنسبة للأول (عناصر الكائن) أو الثاني (عناصر النص) .

وفي الحقيقة كانت هذه النظرة مطابقة لنظرة عبد القاهر الجرجاني الذي يعد بحق من أفضل من بحث في مجال الإعجاز البلاغي قديما وحديثا ، وقد يكون من المفيد جدا أن نستدل على سر الإعجاز البلاغي هنا بقوله :« يعلم أن ها هنا دقائق وأسرار طريق العلم بها الروية والفكر ، ولطائف مستقاها العقل ، وخصائص معاني ينفرد بها قوم قد هدوا إليها ودلوا عليها ، وكشف لهم عنها ورفعت الحجب بينهم وبينها ، وأنها السبب في أن عرضت المزية في الكلام ووجب أن يفضل بعضه بعضا وأن يبعد الشأو في ذلك وتمتد الغاية ويعلو المرتقي ويعز المطلب حتي ينتهي الأمر إلى الإعجاز وإلى أن يخرج عن طريق البشر [1] .

خلاصة الحديث في نظرية التضافر :

إن قوام هذه النظرية هو الانطلاق من أن النص القرآني عمل على نسجه على الصورة التي هو عليها عوامل متعددة ، لا يمكن حصرها في شكل النص وحده أو في ما يحمله من معارف علمية أو أخبار غيبية ، « لأنه كيفما تصور الإعجاز به فماهيته هى الدالة على ذلك ، فإلى أي نحو منه ملت دَلَّكَ ذلك على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] ومن ثم لا يمكن تحقيق نتائج مرضية في البخوث المتعلقة بالإعجاز إلا بتحليل النصوص في ضوء نظرية شاملة تتضافر فيها مجموعة من العوامل التى تمكن الباحث من الإجابة عن التساؤلات المطروحة مجتمعة ، وهذه النظرية هي : **نظرية تضافر أوجه الإعجاز القرآني .**

(1) دلائل الإعجاز : ص 6 .
(2) الموافقات : 376/3

وقد أفضى بنا التطبيق إلى نتائج يمكن حصرها في ما يلي :

1 - مع أن الموضوع الذي تناولته الآية علمي دقيق جدا فقد روعيت فيه قواعد البلاغة في قسم علم المعاني بصورة هي أدق ما يشاكل الموضوع ، وقد ركبت خصائص التراكيب اللغوية على ما يقتضي الحال وتتطلبه المقاصد ليكون في أحسن صورة وأدقها ، فكل عبارة وافقت ما يستوجبه الحال الذي وردت من أجله ، وكل لفظ أنزل في موضعه اللائق بمعناه ، كما روعيت فيه القيم الصوتية بشكل مدهش ، وروعى فيه التقديم والتأخير بمنطق يعجز البشر بقينا عن مراعاته في نتاجهم .

2 - يخلو النص من التعابير البيانية كالمجاز والاسعارة والتشبيه والكناية وما أشبه ذلك مما يصلح في غير هذا الموضوع ؛ لأن الأسلوب هنا يتطلب التعبير العلمي الدقيق الذي يحدد ويبين ، لا الذي يخيل ويرمز .

3 - بناء النص لم يكن القصد منه هو توضيح المسألة العلمية فقط لتكون إعجازا علميا خالدا يشهد على صدق نبوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكن كانت كذلك تستهدف مقصدا آخر هو بيان قدرة الخالق ، ثم ارتباط حياة الإنسان بما يلي النص بعد ذلك من مقاصد أخرى كالموت والبعث وأسباب الحياة (الماء) . . .

4 - وظفت الأفعال كلها بصيغة الماضي للدلالة على ثبوت وقوع الحدث ، ولم يرد من الأفعال المضارعة إلا الفعل الوحيد الدال على البعث في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ .

5 - إن نصا كهذا لا ينشئه بهذه الصورة إلا من له علم مطلق بموضوع الخطاب ووسائل التعبير وطريقة تركيب كل واحد منهما على حدة ثم طريقة بناء النص استجابة لمقتضيات أحوال الموضوع ومقاصد خالقه من التعبير ، ثم العلم المطلق بمستويات الحسن التي تهز قلوب المتذوقين من ذوي الألباب بما تحمله من الحق المقنع والجمال المؤثر والخير النافع ، وهي القيم الكبري في حياة الإنسان ، وهذا لن يتحقق إلا لله ، وبذلك كان معجزا .

ولقد قال الجرجاني :« إذا كان النظم سويا والتأليف مستقيما كان وصول المعنى

إلى قلبك تلو وصول اللفظ إلى سمعك » [1] ، وقد عرض الخطابي لجهالة كانت قد صدرت من أحد مدعي النبوة الذين عارضوا القرآن وأتوا بكلام ينم عن جهل كبير بالأسرار العلمية التي نجدها في هذه الآيات السابقة ، ويكشف النص فعلا – على رداءته – عن التضافر العظيم بين الإعجاز العلمي والإعجاز اللغـــوي في القرآن الكريم ، هذا لإعجاز الذي لا يصدر عن عليم باللغة وخبير بأسرار الخلق ، قال الخطابي :« وأما قول الآخر وما جاء به من نعت للحبلى ، فإن أول ما غلط به هذا الجاهل أنه وضع كلمة الانتقام في موضع كلمة الأنعام حين قال :« ألم تر إلى ربك كيف فعل بالحبلى « وإنما تستعمل هذه اللفظة في العقوبات ونحوها كقوله :« ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ؟ » وكقوله : « وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال » ، وأما قوله :« أخرج منها نسمة تسعى من بين شراسيف وحشي » ، فإنما تعاطى استرافا من قول الله تعالى :« خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب « وهذا في أول تارات الخلقة التي ذكرها الله سبحانه وتعالى ، ثم ذكر في آية أخرى عدد انتقالاته في الرحم من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى لحم وإنشاء خلق بعد ذلك آخر ، وهو اجتماع الصورة ونفخ الروح فيها ، فدل بها على عظيم قدرته ولطيف حكمته وسعة رحمته ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، وإنما تتصرف به هذه الأحوال بعد الانتقال إلى الرحم ، وبين الرحم والشراسيف مسافة وحجب ، قال أصحاب التشريح : الرحم موضوعة بين المثانة والمعي المستقيم ، فلم يدر هذا البائس ما يقول حين جعل الولد بعد الحبل خارجا من بين الشراسيف والحشي تمثلا بقوله : جل وعز ﴿يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ فغلط في الوصف وأخطأ في المعنى كما أبطل في الدعوى [2] .

6 – البحث في الإعجاز البلاغي للقرآن ليس إلا البحث في سر الخصائص الأسلوبية الدقيقة للقرآن الكريم ، لذلك يجب البحث في الكيفية التي تحدث على أساسها استجابة الخصائص التركيبية إلى مقتضي الحال والمقاصد حتي يحصل الحسن

(1) الدلائل : ص 210 .
(2) الخطابي : بيان إعجاز القرآن : ص 69 .

الذي يرقي في القرآن إلى مستوى الإعجاز الذي ليس إلا القدرة الخارقة للسنن التي ألفها البشر في إحداث التوافق والانسجام بين خصائص التراكيب ومقتضيات الأحوال والمقاصد ·

7 - إن الآيات القرآنية كلها معجزة ، بل في كل آية معجزات متعددة منها الثابت اللازم في طبيعته لا في خصوصياته كالإعجاز البلاغي ، وخلو النص من التعارض ومقاصد الشريعة ، ومنها المتغير = المتحول كالأخبار ، والسنن والمسائل العلمية والتشريعات والأحكام بفروعها ، وعلى هذا الأساس فإن المعجزات القرآنية تتضافر وتتناصر ويعضد بعضها بعضا مما يميزها عن معجزات الكتب المقدسة الأخرى ·

8 - قد ترتب على الإعجاز العلمي للآية السابقة إعجاز في الأحكام [1] ، وهو ما تختص بدراسته « نظرية الإعجاز التشريعي » ، وقد عرضنا لها في موضعها تفصيلا كما تبين لنا عند دراسة وجوه الإعجاز القرآني كثير من المسائل التي فصل فيها الحديث بإذن الله تعالى وتوفيقه ·

ولله الحمد من قبل ومن بعد · · ·

---

(1) انظر : الجامع لأحكام القرآن ج1 ص 8 حيث يقول القرطبي :« لم يختلف العلماء أن نفخ الروح فيه يكون بعد مائة وعشرين يوما وذلك تمام أربعة أشهر ودخوله الخامس ، وعليه يحول فيما يحتاج إليه من الأحكام في الاستحقاق عند التنازع وفي وجوب النفقات على المطلقات وذلك لتيقنه بحركة الجنين في الجوف وقيل إن الحكمة في عدة المرأة من الوفاة بأربعة أشهر وعشر » ·

الخـــــاتمة

لقد تبين لنا بعد هذه الدراسة أن القرآن الكريم معجزة خارقة للعادة من أي وجه من الوجوه درسته ، وفي إطار أي قيمة من القيم وضعته ، جمالية أو خلقية أو تاريخية أو علمية ، وأن هذه المعجزة ذات عمق بعيد الغور مما يجعلها معجزة لا يقدر على تفسيرها التفسير الصحيح إلا الراسخون في العلم من ذوي الاختصاص – وعلى حد تعبير صاحب الإتقان – من « ذوي البصائر » ، كل في دائرة اختصاصه ، وبذلك كانت تختلف عن باقي المعجزات ذات الطابع الحسي ، سواء تلك التي جاء بها الأنبياء والرسل عليهم السلام مثل إحياء الموتي أو شق البحر ، أو تلك التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم نفسه ٠

ونظرا إلى هذا **الطابع العلمي العميق** الذي تتميز به – ونحن نستخدم هنا كلمة العلم للدلالة على العلم بمفهومه العام والتاريخي تماما كما استخدمه القرطبي وهو بصدد ذكر أوجه الإعجاز في قوله :« ومنها ما تضمنه القرآن من العلم الذي هو قوام جميع الأنام ، في الحلال والحرام وفي سائر الأحكام » [1] – فإننا قد اضطررنا إلى التحليل في ضوء النظريات المناسبة لكل وجه من أوجه الإعجاز على حدة لندلل بذلك على أهمية الاختصاص في تعميق البحث ، ثم عرجنا على نظرية التضافر لنبين أنها ضرورية في موضعها الذي يليق بها لندل على أهميتها في البحث عن التكامل بين أوجه الإعجاز في النص الواحد ، حتى ليشعر القارىء العالم بمعجزة تداخل المواهب المختلفة في ذلك النص ٠

وقد تبين لنا أن لكل نظرية قواعدها وعملياتها الخاصة التي تسعفها على الوصول إلى الحقيقة ؛ فلنظرية الإعجاز البلاغي قواعدها المعيارية ذات البـــعد الجمالي ، ولنظرية الإعجاز التاريخية قواعدها السننية التي هى أشبه بقوانين العلوم التجريبية ، ولنظرية الإعجاز التشريعي قواعدها المعيارية ذات البعد الأخلاقي ،

(1) الجامع لأحكام القرآن : ج 1 ص 75٠

ولنظرية الإعجاز العلمي قوانينها ذات البعد التجريبي حينا ، والبرهاني أخرى ، ولنظرية الإعجاز التضافري قواعدها التركيبية ذات البعد التكاملي .

وكما تبين لنا أن لكل نظرية قواعدها تبين لنا كذلك أن قدرات العلماء على صياغة النظريات التي تعالج قضية الإعجاز متوقفة على درجة معرفة الجانب العلمي للإطار الذي تصاغ فيه تلك النظرية ؛ بلاغية كانت أو تشريعية أو تاريخية أو من العلوم التجريبية .

ومن المعلوم أن معرفة الجانب العلمي لذلك مرهون بقدرة العالم على تحليل وتفسير العلاقات القائمة بين عناصره تفسيرا وتحليلا علميا سليما ، مبنيا على معطيات ومبادىء يقينية ؛ لأن كل محصلة معرفة من تلك المحصلات هي محصلة علمية في مجالها الخاص .

وهكذا يتضح لنا أنه لاضرر من تعدد النظريات التي تفسر ظاهرة الإعجاز ، مادامت كل نظرية تتحرك في مجالها الخاص الذي تفرضه طبيعة البحث العلمي في ذلك المجال الذي لا يصلح فيه غيرها بنفس الدقة ، كما يتضح أنه لا تناقض بين هذا التعدد وبين التوحيد الذي تتطلبه نظرية التضافر ؛ مادام الهدفان الجزئيان مختلفين ؛ إذ أن هدف النظريات المتعددة هو تعميق تفسير ظاهرة الإعجاز في مجال متخصص ، بينما يعد هدف نظرية التضافر هو تعميق تفسير الظاهرة في إطار تكاملي يتخذ من نظرية المعرفة الإسلامية مرجعيته .

وقد تبين كذلك أن هناك مجموعة أوجه من الإعجاز التي كانت تعرض عند القدماء والمحدثين متفرقة هي في الحقيقة تنتمي إلى دائرة معرفية واحدة ، وأن تناولها بشكل ممزق يفسد دلالتها على المقصد الذي تساق من أجله ، وكان ذلك أحد أبرز دواعي إعادة صياغة قضية الإعجاز في ضوء منهج النظريات لكون النظرية مقولة كلية يمكن أن تُفسرَ في ضوئها مجموع الجزئيات المنتمية إليها ، وبهذا أمكن أن نفسر - مثلا - كل ما ينتمي إلى الأحكام الجمالية ؛ من قيم صوتية كالفصاحة والفواصل والتجانس ، أوقيم منطقية كالتقديم والتأخير والوحدة الموضوعية ، أو قيم دلالية كالاستعارة والتشبيه والمجاز والإيجاز في ضوء نظرية الإعجاز البلاغي ، وكل ما

ينتمي إلى البعد الزماني من أحداث ماضوية أو مستقبلية في ضوء نظرية الإعجاز التاريخي ، وهكذا دواليك ·

هذا وقد بيننا خطأ القول **بنظرية الصرفة** اعتمادا على عرض وتحليل ومقارنة آراء القدماء في هذه النظرية التي كشف بشأنها الجرجاني أن القول بالصرفة قول في غاية البعد والتهافت ، وأنها من جنس ما لا يعذر العاقل في اعتقاده [1] .

ولله الحمد من قبلُ ومن بعدُ · · ·

---

(1) الرسالة الشافية : ص 149 - 150 ·

المحتويات

* * *

رقم الإيداع	١٨٦٧ / ٩٨
I. S. B. N الترقيم الدولى	977-19-5266-8